المركز القومي للترجمة

هنريش بل

نهاية مأمورية

ترجمة: علاء الدين ندا



المشروع القومي للترجمة

1855

سلسلة الإبداع القصصي

نهاية مأمورية

رواية

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 1855
- نهاية مامورية
- هنريش بل
- علاء الدين ندا
- الطبعة الأولى 2011

هذه ترجمة رواية:
Originally published in German under the title
"Ende einer Dienstfahrt"
by Heinrich Böll

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤-٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

نهاية مأمورية

رواية

تأليف: هنريش بل
ترجمة: علاء الدين ندا

2011

بل، هنريش.

نهـاية مـأمـورية: رواية/ تأليف: هنريش بل؛ ترجـمـة: عـلاء الدين ندا. ـ القـاهـرة : الهـيـئـة المصرية العامة للكتاب،٢٠١١.

٢٥٢ص ؛ ٢٠ سم.

تدمك ٢ ٠٠٢ ٢٠٧ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ القصص الألمانية.

أ ـ ندا، علاء الدين. (مترجم)

ب ـ العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩١٠٤/ ٢٠١١

I. S. B. N 978 - 977 - 207 -002 - 2

ديوى٨٣٣

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمـذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي، وتعريفه بها. والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المركز.

المحتويات

مقدمة المترجم

هينريش بل: تواريخ وإبداعات ومواقف:

هينريش تيودور بل (١٩١٧ - ١٩٨٥) أديب ألمانى معروف، وإحدى العلامات المضيئة فى أدب ما بعد الحرب أو ما يطلق عليه أيضًا أدب الأنقاض أو أحيانًا أدب العودة للوطن، حاصل على جائزة نوبل عام ١٩٧٢، ولد فى مدينة كولن فى ٢١ ديسمبر عام ١٩١٧ أثناء الحرب العالمية الأولى. هينريش هو الابن الثالث للأب النجار فيكتور بل من زوجته الثانية ماريا. ترجع أصول أجداده من ناحية الأب لإنجلترا، وقد هاجروا منها لأسباب دينية.

دخل المدرسة الشعبية فى عام ١٩٢٤، ثم المدرسة الأساسية عام ١٩٢٨ وحصل على الثانوية العامة فى عام ١٩٣٧، وبدأ مرحلة التدريب العملى فى مهنة تجارة الكتب، توقف بعد عام واحد ولم يتمها.

شهدت حياته المبكرة تبعات الأزمة الاقتصادية التى تمثلت فى طالة ما يقرب من خمسة ملايين شخص والتردد على حوانيت زهن وملاحقة الديانة والمحضرين بأوامر الحجز.

فى سن السابعة عشرة ظهرت ميوله المبكرة لإنشاء الأدب بغرض الشعر. تعرف وهو فى التاسعة عشرة على آن مارى، وتزوجها بعد ست سنوات. كانت آن مارى مُدرسة، وكانت تعمل لتؤمن قوام الأسرة. تم تجنيده عام ١٩٣٩بسلاح المدفعية وخدم على الجبهات فى فرنسا، وبولندا، والاتحاد السوفيتى، ورومانيا، والمجر، وألمانيا. توفيت والدته بأزمة قلبية على أثر إحدى الغارات الجوية. وقع فى الأسر من ٩ أبريل حتى ١٥ سبتمبر ١٩٤٥.

التحق بل بالجامعة لغرض الحصول على بطاقة صرف مقررات تموينية. شرع فى دراسة الآداب الجرمانية ولكنه لم يتمها، فقد حصل على اعتذار من الجامعة عن فصل دراسى، ولم يستأنف الدراسة بسبب استدعائه لأداء الخدمة العسكرية. كان يعمل معاونًا فى بعض الأعمال لاكتساب قوت يومه، فعمل فى ورشة نجارة يملكها أخوه الواز. لم يعتمد فى إعالة أسرته على عائداته من الاشتغال بكتابة الأدب، فمارس أعمالاً أخرى. عمل مثلاً موظفًا معاونًا فى مكتب الإحصاء لمدينة كولن. كتب أثناء فترة دراسته القصيرة أول أعماله الروائية "على هامش الكنيسة".

تفجرت طاقته الإبداعية فى بداية الخمسينيات. كتب بل الرواية والقصة القصيرة والمسرحية والهجاء والمقالات الأدبية والسياسية، والتمثيليات الإذاعية.

حياة بل وأعماله، كتاباته وأفعاله وجهان لعملة واحدة. ويمكن القول إن السياسة والأدب امتزجا فى انسجام متكامل فى أعماله. قلمه الناقد واكب تطور وبناء المجتمع الألمانى دون كلل بعد الحرب.

موضوعات أعماله تعكس خبرات الحرب والتغيرات الاجتماعية فى فترة ما بعد الحرب بألمانيا. تناولت أيضًا كتاباته خلافاته مع الكنيسة الكاثوليكية، ومع السلطة ووسائل الإعلام وعواقب دولة المخابرات.

فى عام ١٩٤٦ كتب أول أعماله عن فترة ما بعد الحرب «صليب بلا حب»، وفى عام ١٩٤٧ظهرت أولى قصصه القصيرة «الرسالة»، ثم «الهجوم»، و«من الزمن السابق».

ظهر أول كتبه «كان القطار فى موعده» ١٩٤٩، وهو عمل قصصى يعكس خبرات الحرب. يعالج رحلة قطار لجندى شاب عائد من إجازة إلى الجبهة. ويتم التركيز على المشاعر التى سادت هذه الفترة. ثم ينشر فى العام التالى مجلدًا يحوى مجموعة كبيرة من القصص القصيرة بعنوان «أيها المتجول، إذا ما أتيت إلى سبا»، تضم أفضل أعماله القصصية القصيرة، وتحكى عن جندى مصاب إصابة جسيمة، محمول على نقالة إلى مستشفى الطوارىء، الذى يكتشف أنه مدرسته، التى تركها بسبب الحرب منذ ثلاثة شهور، ولا يزال هناك كتابة بخط يده على السبورة يتعرف عليها.

ينشر فى عام ١٩٥١رواياته «أين كنت يا آدم»، عمل قصصى من مجموعة من الفصول يربط بينها خيط واحد ويعالج موضوعها الحرب والموت. وفى نفس العام يتلقى دعوة لحضور مؤتمر أدباء «جماعة ٤٧» فى باد دوركهايم، حيث تم تكريمه عن قصته الساخرة «الخراف السوداء».

فى عام ١٩٥٣ ينشر رواية «ولم يتفوه بكلمة» وهى تعالج مشاكل أسرية للعائدين إلى أوطانهم بعد الحرب حيث الظروف الحياتية الضيقة وأزمات السكن فى المدن الكبرى. نرى فريد بوجنر الزوج يعيش منفصلاً عن الزوجة كيتا وأولاده الثلاثة بسبب الظروف الصعبة وأعباء الحياة التى تلاحقه. وهو عامل سويتش فى إحدى المؤسسات الكنسية ويقطن فى البلوكات سكنًا متواضعًا كمستأجر من الباطن. بعد قضائه إحدى عطلات نهاية الأسبوع مع زوجته فى أحد الفنادق الصغيرة التى تؤجر الحجرات بالساعة يرى استحالة الحياة مع زوجته ويقرر الانفصال النهائى عنها، إلا أنه لا يلبث أن يتيقن من حبه واحتياجه لها فيعود إليها.

يصبح بل عضوًا فى الأكاديمية الألمانية للغة والأدب. وفى العام التالى ينشر رواية «بيت بلا حارس» ويتلقى عنها جائزة الناشرين الفرنسيين عن أفضل رواية أجنبية، ويصبح عضوًا فى مركز القلم لجمهورية ألمانيا الاتحادية. ويحصل على جائزة النقاد الألمانية. تعالج رواية «بيت بلا حارس» موضوعًا متصلاً اتصالاً مباشرًا بالحياة الأسرية فى فترة ما بعد الحرب للأسر التى تحاول الحياة بعد أن سقط عائلها فى الحرب. وينشر فى العام التالى عمله القصصى «خبز تلك السنوات الخوالى»، التى تم انتاجها فيلمًا فى عام ١٩٦٢ بنفس الاسم. وفيها ينجح هينريش بل فى إطار قصة حب أن يقدم صورًا حية لمشاهد وأجواء سادت الحياة فى سنوات الضنك والأزمة والتحول إلى الانتعاشة الاقتصادية، لنرى كم كلفت هذه الانتعاشة الأمة الألمانية. ويتوجه بل فى أعماله الأدبية الآن بشكل أكثر للمشكلات المعاصرة لجمهورية ألمانيا الاتحادية. فيتزايد

إنتاجه من المقالات التى يتخذ فيها موقفًا من الوضع السياسى للجمهورية الناشئة. بل ويتجاوز بمواقفه السياسية حدود ألمانيا، ويتبنى فى عام ١٩٥٦موقفًا لمناشدة ١٠٥ شخصيات من الحياة الأدبية (من بينهم ألبير كامو، بابلو بيكاسو، أرتور كوستلر، جان بول سارتر وهينريش بول) للتنديد بإجراءات الاتحاد السوفيتى إزاء الانتفاضة فى المجر وضد تدخل بريطانيا وفرنسا فى مصر (أزمة السويس). وفى عام ١٩٥٧يظهر عمله «مدونة يومية أيرلندية»، وهو فى ظاهره وصف لرحلة كان قد قام بها لأيرلندا، إلا أن بعض النقاد البارزين يعتبرون هذا الكتاب نقدا ثاقب الفكر لأوضاع سياسية واجتماعية واقتصادية، باعتبار أيرلندا صورة مناقضة لألمانيا. ويتلقى بل جائزة إدوارد فون دير هايت لمدينة فوبرتال عام ١٩٥٨ على مجموعته القصصية «ما جمعه د. موركا من صمت وكتابات ساخرة أخرى». ويعتبر مارسل رايش رانتسكى أكبر نقاد ألمانيا أن هذه القصة التى تحمل اسم المجموعة من أروع ما كتب بل، إن لم تكن من أروع ما أنتجه أدباء ألمانيا فى تلك الفترة. وقد تم تقديمها فى معالجات فنية مختلفة كتمثلية إذاعية أو فيلمية أو مسرحية. مكان الحدث القسم الثقافى لمقر الإذاعة وموضوعه استخدام الإذاعة بشكل دعائى لأغراض سياسية. ويتصادف فى هذا العام وفيما يخص الإذاعة أن يتم منع برنامج إذاعى لهينريش بل بعنوان «رسالة إلى شاب كاثوليكى» بسبب نقده اللاذع لكاثوليكية سنوات ما بعد الحرب.

فى عام ١٩٥٩ تظهر رواية «بلياردو فى التاسعة والنصف»، وتحكى قصة ثلاثة أجيال لعائلة تمتهن هندسة البناء والعمارة

موطنها مدينة كولن، تناقش هذه الرواية أهم قضايا الأخلاق فى سنوات ما بعد الحرب وتبلور الصراع بين الأخلاق والقيم الفردية ضد انتهازية الجموع السائدة والنفاق. ويتلقى مجموعة من الجوائز منها الجائزة الكبرى لولاية نوردراين فستفالن. ويشارك فى تأسيس «مكتبة كولن لتاريخ اليهود الألمان».

مع بداية الستينيات يشتد الجدل بين بل والكنيسة الكاثوليكية التى اتهمها بالتحيز السياسى. يتخذ موقفًا مناهضًا لبناء سور برلين وتقسيم المدينة، ويقود حملة شديدة تدعو إلى التزام الأدباء بوصفهم «ضمير الأمة». يتلقى فى عام ١٩٦١ منحة فيلا ماسيمو بروما. وينشر فى عام ١٩٦٢ قصتيه «ما أن اندلعت الحرب»، «ما أن انتهت الحرب». القصتان تعتبران درتين فى الأدب الألمانى لفترة ما بعد الحرب، يورد بل فيهما وصفًا خارجًا عن المألوف لويلات الحرب على مستوى المواطن الفرد، وصفًا يخلو من نزعة التحذير المباشر عالية النبرة. ويزور الاتحاد السوفيتى فى نفس العام.

تظهر فى عام ١٩٦٣ رواية «تأملات مهرج» التى تتضمن نقدًا للكنيسة الكاثوليكية الألمانية، رغم نفى بل نفسه لهذا. وقد ظهرت هذه الرواية فى معالجات فنية أخرى. ويتم تعيينه فى عام ١٩٦٤ محاضرًا فى علم السياسة فى جامعة فرانكفورت. وقبل منتصف الستينيات بقليل يشتد الالتزام السياسى لدى بل من خلال مزيد من المقالات والخطب وينتج فى عام ١٩٦٤ قصة «الإقصاء من الكتيبة» ويحاول وضع معالم نظرية نقدية خاصة به أسماها «جماليات الاتجاه الإنسانى»، ويتصدى فى هذه الفترة لهجوم الجرائد فى ألمانيا الديمقراطية على الشاعر وكاتب الأغانى فولف بيرمان.

فى عام ١٩٦٦ تظهر روايته الكبيرة «نهاية مأمورية». وفى العام التالى يتلقى جائزة جيورج بوشنر للأكاديمية الألمانية للغة والأدب. فى عام ١٩٦٨ يلقى كلمته فى حضور سبعين ألفًا من المتظاهرين ضد قانون الطوارىء، ويتلقى دعوة من لويس أراجون وجان بول سارتر عن طريق رابطة الأدباء التشيك لزيارة تشيكوسلوفاكيا، فيقوم بالزيارة فى شهر أغسطس ويصبح شاهدًا على غزو دول حلف وارسو لتشيكوسلوفاكيا، الغزو الذى أنهى محاولات إقرار الديمقراطية لحكومة دوبتشك.

فى عام ١٩٦٩ يلقى خطبة بعنوان «نهاية التواضع» فى التجمع المقام بمناسبة تأسيس رابطة الأدباء الألمان. ويكتب عام ١٩٦٩ «صدع فى استقرار البيت» وهى تمثيلية إذاعية. فى فترة بداية السبعينيات يوجه بل اهتمامًا خاصًا لمواجهة الإرهاب الآخذ فى التزايد داخل ألمانيا الاتحادية، ويصبح رئيسًا لرابطة الأدباء فى ألمانيا الاتحادية ثم رئيسًا لرابطة الأدباء الدولية فى الفترة من عام ١٩٧١إلى ١٩٧٤ .تظهر له فى عام ١٩٧١رواية «صورة جماعية مع سيدة»، وقد تم تقديمها فى فيلم على شاشة السينما. وكانت من أسباب حصوله على جائزة نوبل عام ١٩٧٢، بعد أن غابت عن أدباء الألمانية طيلة ثلاثة وأربعين عامًا. وعام ١٩٧٢هو العام نفسه الذى شهد بدايته جدلاً موسعًا حول مقالته الشهيرة فى مجلة شبيجل «هل تحتاج أولريكا ماينهوف رأفة أم ترحيلاً آمنًا؟» ويتضمن المقال نقدًا شديدًا للسياسات الداخلية بشأن تضارب الآراء حول مرتكبى جريمة سطو على بنك.

نتيجة لحملة الملاحقة المتزايدة للأدباء والمثقفين فى العالم يتبنى بل فى عام ١٩٧٣دعوة السياسيين فى الشرق والغرب «بالكف عن مبدأ المصانعة فى التظاهر بعدم التدخل فى الأمور الداخلية للدول الأخرى». فى عام ١٩٧٤يتم القبض على الأديب الروسى الكسندر سولجينستين الذى يتم طرده من الاتحاد السوفيتى بعد موجات عارمة من الاعتراضات فيجد ملاذًا له فى منزل بل، الذى كان قد ساعده فى تهريب مخطوطات أعمال له إلى الغرب لتعرف طريقها للنشر بمساعدة بل أيضًا. ويظهر فى عام ١٩٧٤عمل بل الروائى الشهير «شرف كاتارينا بلوم الضائع، أو: كيف يمكن أن ينشأ العنف وإلى أين يقود»، على خلفيات أحداث مظاهرات الطلبة فى عام ١٩٦٨ والفضيحة التى دار حولها مقال مجلة شبيجل المشار إليه فيما سبق. ويقوم بتقديمها للسينما مخرج الأعمال الأدبية الشهير فولكر شلوندورف باسم «شرف كاتارينا بلوم الضائع». ويتلقى بل فى نفس العام ميدالية كارل فون اوسيتسكى للرابطة الدولية لحقوق الإنسان.

فى عام ١٩٧٦ينشق عن الكنيسة الكاثوليكية. وبعد اختطاف وقتل هانز مارتن شلاير تنشأ حملة علنية من جديد ضد بل ومثقفين آخرين. وفى عام ١٩٧٨ تناشد لجنة دولية ينتمى لها بل، تناشد «باسم الإنسانية» رئيس كوريا الجنوبية إطلاق سراح الكاتب كيم شى ها المحبوس حبسًا انفراديًا منذ سنوات. ويواصل هينريش بل نشاطه السياسى الإنسانى فينضم فى عام ١٩٧٩ إلى منظمة الغوث الخاصة «خطوة من أجل فيتنام». كان هدفها تأجير سفينة لإنقاذ الفارين من فيتنام الموجودين فى عرض البحر فى ظروف

خطرة. وفى هذا العام يرفض بل منح فالتر شيل رئيس جمهورية ألمانيا الاتحادية له نوط الاستحقاق الاتحادى. ويظهر له فى نهاية هذا العام رواية «حصار حذر»، ويعرض فيها بل صورة للتغيرات التى طرأت على الحياة الاجتماعية فى فترة السبعينيات نتيجة لانتشار العنف والإرهاب المنظم.

مع بداية الثمانينيات يقل نشاطه الحركى نتيجة وطأة المرض ويزيد التزامه بحركة السلام ودعم جماعة «الخضر». وتظهر فى عام ١٩٨١ أولى محاولاته فى سرد سيرته الذاتية فى عمله «ماذا ينبغى أن يصير الفتى فحسب؟ أو: ثمة شىء من كتب.» يدعم بل جهود أدباء أوروبا ضد القنبلة النيوترونية وتعزيز التسلح. وفى العاشر من أكتوبر يتحدث بل فى مظاهرة السلام الكبرى أمام حوالى ٢٠٠٠٠٠ مواطن فى بون ضد قرار حلف الناتو بتطوير إجراءات تسليحه. وفى عام ١٩٨٢ يعترض بل فى مؤتمر صحفى على الظروف السياسية الداخلية فى بولندا وعلى النظام العسكرى هناك. وينشر عمله القصصى «الوصية». ويتم منحه درجة الأستاذية الجامعية ومرتبة المواطن السامى لمسقط رأسه مدينة كولن عام ١٩٨٣ . ثم ينشر مجموعته القصصية «إصابة حرب وقصص أخرى». وفى نفس العام يطالب بل الرئيس الروسى أندروبوف فى خطاب مفتوح، رفع قرار حرمان الأديب الروسى حامل جائزة نوبل أندريه زخاروف. ثم يشارك فى بيان موقع من أدباء ست دول ضد المحاولات الواضحة لحكومة الولايات المتحدة لإسقاط حكومة الساندينسته فى نيكاراجوا. ويجند نفسه لصالح

الخضر فى الانتخابات. وفى سبتمبر من نفس العام يشارك فى الاعتصام أمام قاعدة الصواريخ الأمريكية فى موتلانجن.

فى الذكرى الأربعين لاستسلام القوات الألمانية يظهر عمله «خطاب إلى أولادى أو أربع دراجات». وينشر فى عام ١٩٨٥روايته «سيدات على مشهد النهر» وهى آخر ما نشر له فى حياته.

توفى فى صباح ١٦يوليو ١٩٨٥ فى منزله وهو فى السابعة والستين من عمره بعد معاناة طويلة مع المرض، دفن بعدها بثلاثة أيام فى مدافن بورنهايم ـ مرتن بالقرب من بون بعد جنازة شعبية شارك فيها أدباء وسياسيون تقدمهم ريتشارد فون فايتسكر رئيس جمهورية ألمانيا الاتحادية.

بعد وفاته نشرت له بعض الأعمال مثل «قطعنا شوطنا بعيدا» ١٩٨٥ مجموعة قصائد، و«روما من أول نظرة» ١٩٨٧كتاب فى أدب الرحلات، و«موعد غرام مع مارجرت» ١٩٨٧رواية، و«صمت الملاك» ١٩٩٢رواية كان قد كتبها فى سنوات إبداعه المبكرة.

نهاية مأمورية:

فى قالب التقرير القضائى الملتزم بدقة تفصيلات التقارير من حيث الشكل يسرد بل وقائع محاكمة طريفة، أطراف الادعاء فيها جهات عليا والمتهم فيها أب وابنه يمتهنان النجارة. نتيجة مستحقات مالية كبيرة للضرائب يتم توقيع الحجز على الأب. ويلتحق ابنه الذى يعينه فى هذا الظرف الضيق بقوات الدفاع الألمانية لأداء الخدمة الإلزامية. يتلقى الجندى جرول الابن الأمر بأداء مهمة عسكرية وهى قيادة سيارة جيب مسافة الخمسة آلاف كيلومتر اللازمة

لتوقيع الفحص على السيارة. يمتثل الجندى جرول للأمر ويقود السيارة وينفذ المهمة بمشاركة أبيه لكن على طريقتهما، بأن يضرما فيها النيران عمدًا ويؤديا بعض الطقوس الغريبة أثناء اشتعالها وتجمع بعض الناس. فيمثلا للمحاكمة ويعترفا بفعلتهما. تدور المحاكمة فى محكمة بمدينة صغيرة يحتشد أهلها فى قاعة المحكمة بحكم قرابتهم ومعرفتهم بالمتهمين أو حتى بهيئة المحكمة أو العاملين فيها. وتتحول الجلسات الرسمية إلى ما يشبه التجمعات العائلية فى المناسبات. وكأى تجمع عائلى تتحول المحاكمة إلى مجالس للنميمة واستعادة ذكريات ومواقف من حياة أناس عاديين جدًا، يحشد خلالها بل آراء عادية جدًا، لا تخرج عن خبرات الحياة اليومية البسيطة، إلا أنها فى مجموعها تنقل لنا واقعًا سياسيًا واجتماعيًا بل أيضًا ثقافيًا وفنيًا وعقائديًا بشكل غير مباشر وبسخرية لاذعة. ولما كانت قوات الدفاع الألمانية طرف إدعاء فى القضية إلى جانب جهات عليا أخرى، صدرت تعليمات بالتعتيم على والتهوين من شأن الأمر. كما تم تعيين قاض مشهود له بالرأفة لنظر القضية كآخر قضية يحكم فيها قبل إيداعه للتقاعد.

الفصل الأول

نظرت محكمة بيرجلار فى بداية خريف العام الماضى قضية، اطلع الرأى العام على القليل من تطورها. الجرائد الثلاث ذائعة الانتشار فى دائرة بيرجلار، "راينشى روندشاو"، و"راينيشى تاجبلات" و"دورتال بوته" التى كانت من وقت لآخر تنشر فى أعمدة "من قاعة المحكمة"، و"فى قاعة المحكمة" و"الجديد فى قاعات المحاكم" تقارير صحفية مسهبة عن سرقات ماشية مثلاً وجنح مخالفات جسيمة للمرور ونزاعات عقائدية، أوردت عن هذه الواقعة تنويهًا صغيرًا فقط. الأمر المثير للدهشة هو أنه جاء فى الجرائد الثلاث فى صياغة واحدة: "قاض رءوف لجرول وابنه. أحد أحب شخصيات الحياة العامة فى مدينتنا، د. شتولفوس رئيس المحكمة الرسمية، الذى سيتم تكريمه لجدارته بهذا المنصب، رأس - كآخر محاكمة له قبل التقاعد لبلوغه سن المعاش - جلسة القضية الموجهة ضد يوهان وجيورج جرول مواطنى هوسكيرشن، التى أثارت فعلتهما الغامضة فى شهر يونيو الوجدان لدى البعض. بعد محاكمة

استغرقت يومًا صدر حكم على الاثنين بالتعويض الكامل والسجن لستة أسابيع. وبعد مشاورة لم تطل مع دفاعهما د. هيرميس المحامي مواطن بيرجلار تقبل الاثنان الحكم المخفف. وأمكن إطلاق سراحهما في الحال لحساب مدة الحجز على ذمة التحقيق لهما."

قبل بداية القضية بعدة أسابيع اتفقت إدارتا التحرير المحليتان لجريدتي "راينشي روندشاو" و"راينيشي تاجبلات" على عدم التنافس في هذا الأمر وعدم المزايدة على واقعة جرول، فهي "لا تستحق". وفي حالة - وهو أمر لا يثير المخاوف - تضرر القراء من المعلومات المنقوصة عن قضية جرول، كانت إدارتا التحرير قد أعدتا عذرًا، هو، كما قال كريسيل رئيس تحرير الروندشاو، "المشاهدة خير من جموح المنافسة": القضية المتداولة في نفس التوقيت في المدينة الكبيرة المتاخمة ضد شيفين سفاح الأطفال، التي تشغل اهتمام قُراء أكثر. وقد فشلت محاولة قامت بها إدارتا التحرير هاتان للتوصل لنفس الاتفاق مع سيادة الدكتور هولفيج رئيس تحرير ومحرر وناشر الـ"دورتال بوته". فالدكتور هولفيج، الذي كان ينهج في دائرة بيرجلار نوعًا من المعارضة الليبرالية، تشمم - ولم يجانبه الصواب - مؤامرة "اكليروسية - اجتماعية" وكلف مراسله الصحفي في ذلك الوقت، فولفجانج بريهزل طالب اللاهوت البروتستانتي سابقًا بإعداد مذكرة عن الأمر. وقد قامت زوجة د. هيرميس المحامي بإخبار بريهزل، من كان يفضل التحقيقات الصحفية القضائية على كل التحقيقات الصحفية الأخرى، بموعد المحاكمة الذي تم تحديده بشكل مفاجئ، وعندما جلسا معًا لتناول الجعة بعد محاضرة عن



"المجلس الكنسى وغير المسيحيين" مع المحاضر الحبر د. كيرب، كانت قد أوضحت له ما يستحق النشر فى واقعة جرول: إعتراف المتهمين الكامل، فعلتهما، شخصيتهما، وقبل كل شىء حقيقة أن الادعاء يأمل فى اعتبار الجريمة الغريبة للثنائى جرول مجرد "إضرار مادى وعبث فظ" وإهمال واقعة الحرق العمد الواضحة. وبخلاف ذلك قد استرعى انتباه السيدة هيرميس نفسها الحاصلة على دكتوراه القانون بتقدير جيد: سرعة تحديد موعد جلسة المحاكمة وإيداع المتهمين مبنى المحكمة المجهز مؤقتًا بزنزانتين، أقاما فيهما كما هو شائع فى بيرجلار كنزيلين مدللين؛ بدا أيضًا أمرًا لافتًا للنظر بشكل بالغ للسيدة هيرميس، تداول هذه القضية أمام محكمة رسمية برئاسة د. شتولفوس وشيك التقاعد، وهو المشهور برأفته إلى حد فاضح فى ماضيه وحاضره. وبرغم أن بريهزل كان قد بدأ توًا فى استبيان الأسباب المبدئية للحكم، فقد بدا له أيضًا أن جنحة كهذه من اختصاص محكمة من قاض ومحلفين على الأقل، لا من قاض بمفرده؛ وقد أيدت السيدة هيرميس هذا، والتفتت بعد ذلك إلى محاضر الأمسية، د. كيرب الحبر، الذى كان قد بدأ يتململ بالفعل من هذا الهراء الجارى فى بيرجلار، وناشدته أن يدلى لبريهزل اللا كاثوليكى شديد التحمس على مستوى العالم المأهول ببعض العبارات لمقالته عن المحاضرة.

فى مساء نفس اليوم كان بريهزل قد تحدث فى إدارة التحرير مع رئيسه د. هولفيج عن التفصيلات القضائية لواقعة جرول، بينما كان يملى على آلة اللينوتيب مقاله عن المحاضرة المسائية لهولفيج، الذى

أثبت بكفاءة، أنه كان قد تعلم حرفتى الطبيع والجميع "من أساسهما". قام هولفيج، المعجب بحماس بريهزل، من كان من وقت لآخر، كما قال "يدغدغ الحواس"، بتغير التعبير "شديد التفاؤل" فى مقالته إلى "يداخله أملا ما"، والتعبير "ليبرالية فائقة" إلى "فى ظل نزاهة مؤكدة" وطلب من بريهزل أن يتولى النشر فى قضية جرول فى جريدة الـ"دورتال بوته". ثم غسل يديه مغمورًا ببهجة الأطفال تلك، التى كانت تنتابه كل مرة، عندما تتسخ يداه من جراء عمل فعلىّ وحقيقى، وتوجه بسيارته إلى كيريسكيرشن حيث زميله فى الحزب، أحد النواب، من كان قد دعاه لتناول الطعام. هولفيج، وهو رجل فى بداية الخمسين من عمره، مرح، لطيف جدًا، ولو أنه يميل قليلاً إلى التكاسل، لم يشعر أنه يجنب زميله فى الحزب كدرًا متزايدًا بحديثه عن واقعة جرول الغريبة. فهو يقول عنها بشكل يثير للدهشة، إنه لن يكف عن التنديد بتسلط الدولة، نعم بصرامتها أينما تظهر؛ وينبغى التربص لها، ولعلها تظهر فى هذه الواقعة بشكل مغال فى اللين؛ هذا اللين من جانب سلطة الدولة مريب له تمامًا كالشدة المفرطة؛ وبصفته ليبراليًّا، فهو يشعر بأنه ملزم بنكأ الجرح فى هذه الواقعة. وقد تلقى هولفيج، الذى ينزلق أحيانًا إلى الثرثرة، من زميله فى الحزب تنبيهًا بأسلوب صائب يبقى على الود بعدم المغالاة فى الأحداث الخاصة بدائرة بيرجلار، وهو ما يحدث منه بشكل عفوى فى الغالب، مثل واقعة هينريش جرابل مواطن دولبنفايلر، الذى رأى فيه على الفور شهيدًا للحرية، وتبين أنه نصاب غر، مدع غشاش ذى "يد تعرف طريقها دون حياء للمال

المشبوه". هولفيج لا يحب أن يُذَكره أحد بواقعة جرابل؛ كان قد حشد له فائق جهده، وساق حملة دعائية من أجله، واستمال زملاءه فى الخارج لصالحه، بل وجعل مراسلى جريدة يتجاوز توزيعها حدود المنطقة يهتمون بأمره. قام بتقبيل يد زوجة النائب، التى التمست العذر متثائبة وطلبت السماح لها بالانصراف ـ فقد قضت الليل بطوله إلى جانب ابنتها الصغيرة فى مرقدها ـ، قبل يدها، وانكب على الحلو لوهلة، مع جبنة الكممبير المزينة بالفلفل والبصل، مصحوبة بكأس مترعة من النبيذ الأحمر. صب له النائب وقال: "ارفع يدك عن الاثنين جرول هذين." لكن هولفيج بادر بالرد، بأنه ـ وهو ليس بهذه الدرجة من الحمق ـ تشمم خلف طلب كهذا غرضا ـ فهذا التحذير له، وهو الليبرالى والصحفى المتحمس، بمثابة دافع له لتقصى الأمر. جنح مضيفه إلى الجدية وقال، "اسمع يا هربرت، هل سألتك من قبل معروفًا فيما يخص الجريدة؟" قال هربرت وقد انتابته الدهشة إنه لم يسأله أبدًا. قال المضيف إنه الآن، يسأله لأول مرة صنيعًا ما، "وفى الحقيقة لمصلحتك." هولفيج الذى كان يناله ما يكفى من التندر بسبب عصبيته لموطنه بيرجلار، وكان يخجل أيضًا من قرويته، وعد بسحب مراسله الصحفى لكن بشرط أن يطلعه النائب على الخلفيات. فقال إنه ليس ثمة خلفيات؛ وباستطاعة هولفيج أن يتوجه إلى هناك، ويشارك فى المحاكمة، ثم يقرر ما إذا كانت تستحق النشر أم لا؛ وأنه لمن السخف أن يغالى أى مراسل صحفى فى الأمر. داهمت هولفيج نوبة من التثاؤب عندما تصور قاعة المحكمة: هذا المبنى المقيت المجاور للكنيسة الذى يفوح دائمًا

برائحة المدارس؛ وشتولفوس المسن، وأجنيس هال ابنة خاله المشاهدة بالإكراه، وأضف إلى ذلك: ألم يتم عقد الآمال على تخصيص قاض رءوف للاثنين جرول وتجنيبهما الدعاية؟ ناهيك عن أنها ستكون بشرة خير لكل هواة الموبيليا قديمة الطراز داخل دائرة بيرجلار وخارجها، إطلاق سراح جرول الأكبر ووضع يديه الماهرتين وذوقه الأصيل مرة أخرى فى خدمة المجتمع.

أثناء تناول القهوة التى صبها النائب فى صالة الرجال من ترموس، سأل هولفيج هل يتذكر واحدة باسم بيتى هال من هيريسكيرشن أصبحت فيما بعد ممثلة. قال هولفيج لا، فهو، أى النائب ربما ينسى فارق السن بينهما، الذى يبلغ بالفعل خمسة عشر عامًا؛ وأما هال هذه، فهى، وهذا كلام النائب، تظهر فى مسرحية بولندية فى المدينة الكبيرة المتاخمة وهى مادة صحفية براقة. وقد قبل هولفيج الدعوة للمسرح.

استدعى هولفيج بريهزل فى حوالى السابعة والنصف صباحًا وطلب منه عدم النشر فى بيرجلار عن واقعة جرول، بل السفر إلى المدينة الكبيرة المتاخمة حيث تبدأ فى نفس التوقيت القضية المثيرة لسفاح الأطفال شيفين. وللحظات بدا أمرًا مستغربًا لبريهزل أن رئيسه المعروف عنه تأخره فى النوم يستدعيه فى ساعة مبكرة من الصباح هكذا، حتى استرعى انتباهه أن من يتأخرون فى النوم يخلدون للنوم فى وقت متأخر غالبًا وربما كان هولفيج قاد عاد الآن لتوه إلى المنزل. كان وقع صوت هولفيج له لا يخلو من نبرة الحماس،

له شكل الأمر تقريبًا، كانت النبرتان مبعث مفاجأته؛ كان هولفيج فيما عدا ذلك سلسا، خافت الحماس، اعتاد الانفعال فقط بسبب إلغاء ثلاثة أو أربعة اشتراكات فى يوم واحد. لم يفكر بريهزل مليًا فيما شذ من طفيف الأمور عما هو معتاد، حلق ذقنه، تناول طعام الإفطار وتوجه بسيارته الصغيرة إلى المدينة الكبيرة المتاخمة؛ كان مزاجه قليل العصبية بسبب ما ينتظره من صعوبات فى ساحة انتظار السيارات، وأيضًا لأنه كان يخشى كبار عتاولة المراسلين الصحفيين الدوليين، الذين أعلنوا حضورهم من جميع أنحاء العالم. كان تصريح الصحافيين معدًا له كما أكد هولفيج؛ فقد انبرى النائب بإصرار، وهو عضو فى لجنة الدفاع والصحافة، لتدبير تصريح عن طريق اتصالات تليفونية صباحية.

كانت قضية جرول فى أصغر صالة من الصالات الثلاث المخصصة للمحاكمات فى حضور عشرة، كلهم تقريبًا لهم صلة قرابة بالمتهمين أو الشهود أو الخبراء أو هيئة القضاء أو بشخوص آخرين لهم اهتمام بالقضية. شخص واحد فقط من بين الحاضرين كان غريبًا عن المكان، رجل فى منتصف العمر، نحيف، لا يسترعى الانتباه، أنيق الملبس، كان معروفًا فقط لرئيس المحكمة والمدعى العام والدفاع بأنه برجنولته مستشار المحكمة الرسمية من المدينة الكبيرة المجاورة.

فى حجرة الشهود، وهى حجرة المعلمين فيما سبق بالمدرسة التى بنيت من أربعة فصول فى ثمانينيات القرن السابق(١) وتم توسعتها

---

(١) القرن التاسع عشر (المترجم).

إلى ستة فصول مع نهاية القرن، واستبدلت بمبنى جديد فى أواخر الخمسينيات من هذا القرن وآلت إلى هيئة القضاء مضرب المثل فى الفقر، التى كانت حتى ذلك الوقت تزاول القضاء فى مدرسة صف ضابط سابقة؛ فى حجرة الشهود المعدة لستة أشخاص، ولثمانية على أقصى تقدير، تزاحم أربعة عشر شخصًا من مختلف النوعيات الاجتماعية والأخلاقية: مواطن هوسكيرشن القس الكهل كولب، وسيدتان من منطقته، واحدة منهما كانت تتمتع بسمعة العفاف والتدين بمعناهما فى العرف المأثور، والأخرى بسمعة من تجاوزت حدود الشبقية، حيث تعنى لفظة تجاوز إطلاق الإفراط لا تخطى الحد؛ بالإضافة إلى: ضابط، ورقيب وعريف من قوات الدفاع الألمانية، ومحاسب، ومُحضر، وموظف مالية من الهيئة المتوسطة العليا، ومندوب مبيعات، ومفوض الدائرة لقضايا المرور، ورئيس رابطة النجارين، ورجل شرطة، ومالكة بار. وبمجرد بدء المحاكمة، كان على شترك خفير المحكمة، المنتدب لهذا الغرض خصيصًا من المدينة الكبيرة المتاخمة، أن يمنع الشهود من التجول فى الرواق؛ حيث يمكن سماع المحاكمة من الرواق عند ارتفاع الصوت فى قاعة المحكمة. كان هذا الوضع قد أدى من قبل إلى جدل عقيم بين مدير المحكمة وسلطته الأعلى. لأنه فى قضايا السرقات، ونزاعات الميراث، وجنح مخالفات المرور، حيث كانت تقتصر الفرصة الوحيدة للمحكمة فى إدراك الحقيقة على كشف التناقض فى أقوال الشهود، كان يجب غالبًا طلب خفير كمراقب للشهود، وهذا كان عليه أن يتعامل مع الشهود بصرامة متناهية أشد من معاملة زميله داخل

القاعة للمتهمين. أحيانًا كان يحدث فى حجرة الشهود أيضًا تشابك بالأيدى، وسباب ناب، وتشنيع واتهامات. الميزة الوحيدة للمدرسة المتهالكة، كما كان يرد دائمًا بشكل تهكمى فى التقارير الخاصة بالأمر، اقتصرت على حقيقة أنه "لا يوجد نقص فى عدد دورات المياه". وفى المدينة الكبيرة المتاخمة، لدى الإدارة العليا لمحكمة بيرجلار الرسمية، التى تم إحلال مبنى جديد محلها، ذات ندرة واضحة فى دورات المياه، صار فى عداد النكات الشائعة، نصح كل من يتضرر من قلة عدد دورات المياه، بأن يستقل سيارة أجرة إلى بيرجلار التى تبعد مسافة خمسة وعشرين كيلومترا فقط، حيث الوفرة ذائعة الصيت لدورات المياه المخصصة لهيئة القضاء.

ساد بين الحاضرين فى قاعة المحاكمة مزاج مماثل لما يسود فى الفترة التى تسبق عروض مسرح الهواة، ممن أعلنوا عن مسرحية كلاسيكية من البرنامج المُعد؛ إثارة لطيفة، تستمد لطف وقعها من خلو الأمر من توقع عقاب وخيم: الجرم معروف، والأدوار معلومة، وأيضًا من يؤدونها، ولا مفاجآت ومع ذلك ثمة إثارة؛ فلو فشلت، لن تكون الخسارة جسيمة، على أقصى تقدير مجرد تبديد لقليل من الحماس حسن النية؛ أما لو سار الأمر بشكل طيب: فلا بأس. كانت نتائج إجراءات التحقيق والبحث المبدئى معروفة لجميع الحضور بطريق غير مباشر من خلال عدم التكتم المتعمد وغير المتعمد، سمة المدن الصغيرة على أية حال. كل كان يعرف أن المتهمين مذنبان تمامًا، بل كانا، كما قال المدعى العام قبل أيام قليلة فى جلسة خاصة، "ليسا مذنبين فحسب" ككل المتهمين الذين مروا عليه، لا،

لقد كانا "الأكثر إدانة"؛ لم يعارضا الشهود أو الخبراء لا أثناء إجراءات التحقيق ولا أثناء البحث المبدئى. وأفصح المدعى العام بأن الأمر سيكون بمثابة إحدى تلك القضايا السلسة، كما هو غير خاف على كل رجل قضاء محنك.

ثلاثة شخوص فقط من الموجودين بمقصورة المشاهدين كانوا يعلمون ما كان معروفًا أيضًا "فى الموقع الآخر" ـ هكذا كانت تدعى المدينة الكبيرة المتاخمة فى تلك الحالات ـ وهو أن سلطة الدولة، باقتصارها على توجيهها للمتهمين تهمة الإضرار المادى والعبث الفظ فقط وليس إضرام النيران، فضلاً عن تخصيص قاض بمفرده كسلطة قضائية كافية لتولى القضية، قللت من أهميتها بطريقة مفاجئة. الشخصان اللذان كانا على علم بهذه الأمور هما زوجة المدعى العام د. كوجل ـ إيجر، التى كانت قد انتقلت منذ أيام قليلة فقط إلى بيرجلار، بعد أن عثر زوجها مؤخرًا على سكن، وزوجة المحامى د. هيرميس، وهى ابنة تاجر من بيرجلار، كانت قد روت ما عرفته للمراسل الصحفى بريهزل فى مساء اليوم السابق: أنه قد تقرر فى «الموقع الآخر»، عدم تكليف محكمة من قاض ومحلفين ولا ـ وهو ما قد يكون «محالاً» تمامًا ـ محكمة جنايات كبيرة؛ ولأنه من المعروف أنه ما من محام، حتى لو قدر له رؤية أحد حماة الإنسانية من الشيوخ المتهالكين كشتولفوس يدين متهميه، يمكن أن يسلك ذلك المسلك الشاذ، ويجرجره أمام محكمة صغيرة للجنايات، جرجرة «الكلب الأجرب» بريل: تقرر «فى الموقع الآخر» التقليل من شأن قضية جرول؛ رأفة خفية لكن محسوسة أمر ظاهر فيها وفى الوقت

نفسه يتم مناشدة الرأفة؛ ومهما كان مسار الواقعة، فزوجها هيرميس يصر على رفض الأمرين، الرأفة ومناشدة الرأفة، ويتمسك بمحاكمة جديدة، على الأقل أمام محكمة من قاض ومحلفين.

الشخص الثالث الموجود فى مقصورة المشاهدين، من نما إلى علمه هذه الأمور، هو مستشار المحكمة برجنولته، ربما كان عاجزًا عن إدراك هذه النقاط؛ فبوصفه إنسانًا ذا بصيرة عالية، ومعرفة سديدة بنصوص القانون فقد وعى الواقعة حقًّا: أن العدالة المتاحة التى من شأنها إعادة الحق إلى نصابه والمدعومة هنا بالسلطة، كما أطلق عليها أحد الزملاء، "ترددت إلى المنطقة الحمراء"؛ كان عليه أن يصف مفاهيم كرأفة أو حتى مناشدة الرأفة فى هذا السياق بأنها غير جائزة.

بمجرد دخول القاضى والدفاع وتوجههما إلى مكانهما، نهض الحاضرون، وتبين من طريقة وقوفهم والجلوس مرة أخرى ذلك التثاقل المألوف، الشائع فى تجمعات الأديرة فقط، حيث صارت الشعائر إشارات ود بين الخلان. أيضًا عند إدخال المتهمين، لم تشتد الحركة؛ كان كل الحضور تقريبًا يعرفونهم، وكانوا يعلمون أيضًا أنهما خلال الأسابيع العشرة مدة حبسهم على ذمة التحقيق كان يأتيهما طعام الإفطار والغداء والعشاء من أفضل بيت فى المنطقة، من سيدة شابة، إحدى أجمل البنات اللاتى كن قد ترعرعن فى دائرة بيرجلار؛ لم يتم إطعامهما منذ اثنين وعشرين عامًا، منذ

وفاة زوجة وأم كليهما، بمثل هذه الجودة التى أُطعما بها أثناء مدة الحبس على ذمة التحقيق؛ حتى أنه قد دار الهمس، بأنهما قد سمح لهما من وقت لآخر، فى حالة عدم حلول سجناء آخرين فى حينه، يخشى من عدم تكتمهم، بمشاهدة برامج تليفزيونية تحظى بشيوع عارم فى حجرة إقامة شروار كبير حراس هيئة القضاء؛ عارض شروار وزوجته تلك الشائعات لكن ليس بقوة قاطعة.

زوجة المدعى العام وبرجنولته كانا فقط من لا يعرفان المتهمين؛ اعترفت زوجة المدعى العام لزوجها على طعام الغداء بأنها شعرت فى الحال بتعاطف شديد تجاه الاثنين. وصف برجنولته فى المساء الانطباع، الذى اكتسبه، بأنه «إيجابى رغمًا عنى». كان كلاهما مفعمين بالعافية، حسنا الهندام، نظيفين ومتزنين؛ لم يتسما برباطة الجأش فقط، بل بالمرح.

سارت استجوابات الأفراد بشكل سلس إلى حد بعيد؛ وبغض النظر عن أنه تحتم على د. شتولفوس أن يفعل ما كان يجب أن يفعله عادة: مناشدة المتهمين التحدث بصوت مرتفع ومفصل وعدم الانزلاق بشدة إلى اللهجة المحلية، تلك التى تثقل على الألسنة، وبغض النظر عن أنه لزم من وقت لآخر بترجمة تعبيرات دارجة إلى الألمانية الفصحى للمدعى العام الغريب عن الجهة والمنطقة، لم يحدث الكثير مما يجدر ذكره، ولم يتم مناقشة الكثير من المستجدات أيضًا. المتهم جرول الأب، الذى أدلى بأن اسمه يوهان هينريش جرول، وأنه فى الخمسين من العمر، إنسان نحيل، ذو بنية

متوسطة متناسقة، كان رأسه الصلعاء ذات لمعة داكنة، قال، قبل الإدلاء ببيانات موضوعية عن شخصيته، أنه يريد إضافة شيء في هذا المقام، وهو أن يتكرم السيد الرئيس، الذي يعرفه، ويحترمه، بل ويجله بعدم مؤاخذته؛ فكل ما يتحتم عليه قوله الآن هو الحقيقة، الحقيقة الخالصة، ولا شيء غير الحقيقة الخالصة، حتى ولو كانت أقوالاً شخصية خالصة؛ ما يريد قوله: الحق والقانون لا يعنياه في أي شيء ولا حتى بالقدر اليسير، ولن يدلى بأية أقوال هنا، ولو مجرد الإفصاح عن عمره، لو لم ـ وهذه الأقوال، التي لم يفهمها أحد في مقصورة المشاهدين، والتي جاءت مطموسة تقريبًا في نطق جرول الخافت عديم المعالم ـ لو لم تتدخل أسباب شخصية؛ أول هذه الأسباب الشخصية هو تقديره للسيد الرئيس، والثاني هو تقديره للشهود، وخاصة لكيرفل رجل الشرطة، الذي كان صديقًا طيبًا، بل وشديد الطيبة لوالده المزارع جرول مواطن دولبنفايلر؛ أيضا الشاهداتين لويفن، حماته، وفرملزكيرشن، جارته، والشهود هورن، وجريهن، وهال، وكيرفل لا يريد أن يخذلهم هنا أو يجلب لهم متاعب ـ لذلك سيدلى بأقواله، ليس لأنه يتوقع «أن تنجلى ذرة حقيقة من آلات محراب العدالة».

تحدث جرول أثناء الجزء الأكبر من التمهيد للإدلاء بأقواله باللهجة الدارجة، ولم يقاطعه الرئيس ولا الدفاع، حسنا النوايا تجاهه، ولم يطلبا منه التحدث بشكل واضح ولا بألمانية فصحى؛ المدعى العام، الذي كان قد تحادث مرارًا مع جرول وكان لا يحب ولا يفهم اللهجة الدارجة لم يحسن الإصغاء بالمرة؛ أوصم محرر

المحضر لم يسجل من هذه المرحلة شيئًا: أضجره هذا الاستجواب بشكل بالغ. شذرات من هذه المقدمة التى ألقيت باندفاع وبصوت مطموس المعالم فهمها من بين الحاضرين اثنان فقط من زملاء جرول، زوجة د. هيرميس وسيدة أكبر سنًا، فى مرحلة الشيخوخة تقريبًا، هى الآنسة أجنيس هال، التى كانت تعرف جرول جيدًا. ثم أفاد جرول عن مهنته بأنه أسطى نجار، ومحل ميلاده دولبنفايلر، دائرة بيرجلار؛ هناك التحق بالمدرسة الشعبية وتخرج فى عام ١٩٢٩؛ ثم بدأ تعلم المهنة فى بيرجلار "على يد هورن أسطى مهنته المبجل"، والتحق فى العام الثالث من فترة تعلمه بدورات مسائية فى مدرسة الفنون والصنايع للمدينة المتاخمة، واستقل بذاته فى عام ١٩٣٩ وهو فى سن الحادية والعشرين، وتزوج فى سن الثالثة والعشرين فى عام ١٩٣٧، وأدى امتحان الحصول على مرتبة أسطى فى عام ١٩٣٩وهو فى سن الخامسة والعشرين «فى الحد الأدنى للسن المطلوبة»؛ وتم استدعاؤه للخدمة العسكرية فى عام ١٩٤٠، وكان جنديًا حتى عام ١٩٤٥ . هنا قطع رئيس المحكمة لأول مرة أقوال جرول المملة غير المفهومة، التى قال عنها فيما بعد محرر المحضر، إنه اضطر إزاءها بشكل متواصل إلى كتمان نوبة تثاؤب ثقيلة، وسأل المتهم، ما إذا كان قد شارك أثناء الحرب فى عمليات عسكرية أو كان قبل أو أثناء الحرب يشتغل بالسياسة. وبرغم أن د. شتولفوس طلب بحزم من جرول التحدث بوضوح - قال جرول، بصوت مطموس المعالم وغير مفهوم، وهو متكدر تقريبًا - إنه اضطر أن يقول فيما يخص هذه النقطة نفس ما قاله تقريبًا فيما يخص

الحق والقانون؛ فهو لم يشارك فى عمليات عسكرية ولم يشتغل بالسياسة، لكنه كان يريد ـ وهنا ارتفع صوته قليلاً، فقد بدا أنه صار عصبيًا ـ ، أراد أن يؤكد أنه لا البطولة ولا اللا مبالاة كانت السبب فى حدوث هذا: كان هذا "الهراء" بالنسبة له منتهى الغباء.

أما فيما يخص فترة خدمته العسكرية كجندى، فقد كان بصفته نجار موبيليا مشغولاً غالبًا بتأثيث سكن واستراحة الضباط «حسب ذوقهما غير القابل للنقاش»، وفى أساس الأمر قام بالترميم والتعبئة بالشكل اللائق لأثاثات مسروقة ومصادرة لمكاتب إدارات، وقصور ملكية وأحيانًا أيضًا قطع موبيليا من طراز لويس السادس عشر فى فرنسا المحتلة لإرسالها إلى ألمانيا. هنا تدخل المدعى العام، الذى احتج على لفظة «مسروقة»، الذى قد يتسبب فى تعزيز أو إحياء «تصورات جمعية لرعاع الألمان تم تجاوزها»؛ بخلاف ذلك، وهذا معروف قانونا وبالوثائق، أن نقل «ممتلكات فرنسية من فرنسا المحتلة» كان ممنوعًا، ويندرج تحت عقوبة مغلظة. نظر إليه جرول بهدوء ورد بأن، الأمر لا يقتصر على علمه فقط، بل بمقدوره القسم ـ إذا ما طُلب منه قسم ـ بأن الجزء الأكبر من الأثاث كان مسروقًا وعلى الرغم من الحظر، الذى كان يعلم بأمره، فإنه تم نقله إلى ألمانيا، «غالبًا فى طائرات الرفاق الرياضيين حاملى الأوسمة رفيعة الدرجة»؛ وأضاف جرول، أنه لا يعنيه ما إذا كان يردد بذلك رأيًا جمعيًّا أم لا. أما فيما يخص السؤال عن اشتغاله بالسياسة: لم يول أبدًا اهتمامًا خاصًا بالسياسة، «من المؤكد ليس بسبب البلاهة»، التى شاعت فى تلك الآونة؛ فقد كانت زوجته المتوفاة شديدة التدين،

كانت تتحدث عن «المسيخ الدجال»؛ لم يفهم هذا فى حقيقة الأمر، على الرغم من أنه أحب زوجته بشدة، فإنه احترمه و«أجل تقريبًا تحمسها»؛ بديهى أنه كان دائمًا «فى جانب الآخرين»؛ كان هذا الأمر على أية حال، كما أراد أن يؤكد، بديهيًا. بعد الحرب وبمساعدة أصدقاء هولنديين - كان فى أمستردام فى ذلك الوقت - حالفه التوفيق "فى الإفلات من الوقوع فى أى أسر"، وبداية من عام ١٩٤٥، عاش وعمل فى هوسكيرشن كأسطى نجار من جديد. سأله المدعى العام عن مفهومه لكلمة بديهى التى غالى فى التأكيد عليها. أجاب جرول: «هذا لن تفهمه سيادتك.» اعترض المدعى العام، وللمرة الأولى ثارت حفيظته بشكل طفيف بسبب الحكم المتطاول على ذكائه من جانب المتهم. وعندما وبخ د. شتولفوس جرول وطلب منه أن يجيب المدعى العام، قال إن هذا أمر معقد بالنسبة له ورفض الإدلاء بأقواله. سأله المدعى العام الذى بدأ يتحول للغضب، هل سبق له أن اقترف شيئًا ضد القانون، قال جرول، إنه عاش فى السنوات العشر الأخيرة فى خلاف مع القانون، مع قانون الضرائب، إلا أنه لم يتم توقيع أية عقوبة عليه بالمعنى المقصود من سؤال السيد ممثل الإدعاء. جرول، وقد طُلب منه بحزم، أن يترك الحكم على «المعنى الذى يقصده ممثل الإدعاء» لممثل الإدعاء نفسه، قال، إنه فى حقيقة الأمر لم يود أن يكون هكذا ويريد أن يعترف بأنه كان باستمرار مثقلاً بأوامر تنفيذ الحجز والأوامر واجبة التنفيذ؛ وبإمكان السيد هوبرت الإدلاء بقوله فى هذا الشأن؛ هوبرت هو - هذا ما أوضحه جرول، الذى بدأ فى الخروج عن هدوئه، ردًا على

سؤال المدعى العام ـ السيد هوبرت هال منفذ أحكام القضاء، المقيم فى بيرجلار، وهو إضافة إلى ذلك ابن خال والد حماته، إذا ما توخى الدقة. وبسؤال الدفاع له عن أحوال دخله وممتلكاته، ضحك جرول بلطف بالغ وأعرب عن رجائه، السماح بترك الإجابة عن هذا السؤال، المعقد جدًا جدًا، للشاهد هال وللدكتور جريهن خبير الاقتصاد الوطنى.

جيورج جرول، ابنه، له رأس أكبر من رأس الأب، وهو أثقل وزنًا منه أيضًا، يميل للسمنة، أشقر، لا يشبه الأب بالمرة، إنما يشبه إلى حد بعيد والدته المتوفاة، التى كان يعتقد كثير من الحضور «استعادة رؤيتها مباشرة فيه هو». ليز جرول، سليلة عائلة لويفن، ابنة جزار من هوسكيرشين، كانت بشرتها الشقراء وشحوبها مضرب المثل وكذلك ورعها وطلاقة نعومتها، وقد ورد ذكرها فى التراث الشفاهى لسكان القرى المحيطة بأنها "ليز بنت ليفن" مقرونة باستمرار بتعبيرات شاعرية مثل "ملاكنا الذهبى"، و"فيض الطيبة على هذه الأرض"، و"كأنها قديسة"، كان لها هذا الطفل الوحيد. قال جيورج، بغبطة شديدة التكلف شيئًا ما كما أحس الحضور، أنه دخل المدرسة الشعبية فى هوسكيرشن حتى السنة الرابعة، ثم انتقل إلى المدرسة المتوسطة فى بيرجلار، وكان يساعد والده منذ نعومة أظفاره، وبناء على اتفاق مع رابطة النجارين، تزامن مع موعد الامتحان النهائى للمدرسة المتوسطة، بمعنى أدق بعد ذلك بعدة أسابيع، أدى امتحانه كمساعد نجار؛ وعمل بعد ذلك ثلاث سنوات مع والده وتم استدعاؤه لأداء الخدمة العسكرية وهو فى سن العشرين؛ وبخلاف هذا، فهو يؤيد ما قاله والده قبل استجوابه.

ما أحسه الحضور فى الفتى جرول بأنه "غبطة شديدة التكلف شيئًا ما"، وصفه أوصم محرر المحضر عدة مرات، فى جزء خاص أضافه لنفسه كمسودة أدبية، بأنه "غبطة ماجنة"؛ أجاب جرول الابن على بعض أسئلة المدعى العام على هذا النحو. هل أعياه السجن نفسيًا، أو ربما تسبب له فى أضرار؟ قال جرول الابن، لا، سعد بالاجتماع مع والده بعد سنوات الحرب، ولما سُمح لهما بالقيام ببعض الأعمال الصغيرة، تعلم بعض الأشياء؛ أعطاه ولده أيضًا دروسًا فى الفرنسية، ومن الناحية "المادية" لم يفتقرا لشىء.

رغم إلمام الحاضرين بكل شىء، بل أكثر مما أفصح عنه الأب والابن جرول هنا دون انفعال تقريبًا، بدا أنهم ينصتون لهذه التفصيلات بترقب بالغ؛ حتى مطالعة قرار الاتهام، الذى لم يأت لهم بجديد، سمعوه بشغف.

فى أحد أيام شهر يونيو من عام ١٩٦٥ وعلى أحد الطرق الزراعية، الواقع على نفس المسافة من قرى دولبنفايلر، وهوسكيرشين، وكيريسكيرشن، أى على بعد اثنين كيلومتر تقريبًا، تم اكتشاف الأب والابن جرول (هنا تدارك د. شتولفوس مدير المحكمة الابتدائية ورئيس الجلسة وجعلها تم ضبط)، وهما جالسان يدخنان على أحد الأحجار المعينة للحدود، وقد أضرموا النيران فى إحدى عربات الجيب الخاصة بقوات الدفاع الألمانية، تبين فيما بعد أن سائقها هو جرول الابن؛ كانا يشاهدان الحريق عن كثب ليس فقط "بضمير مرتاح، بل برضى واضح"، كما أورد كيرفل

الشرطى مواطن بيرجلار فى المحضر. تم فى أول الأمر إحداث ثقوب فى خزان وقود الجيب، كما أكد فى تقرير كتابى البروفيسور كالبورج خبير الحرائق، الذى يعد واحدًا من أهم فنيى الحرائق، وقد تم أخذ أقواله بالنيابة، "يشىء صلب مدبب"، وعندئذ اكتمل ما كان يجب أن يحدث فى موضع الجريمة، أيضًا تم "سكب وقود بشكل كاف على السيارة الجيب، بل إغراقها تقريبًا"، لأن مجرد حرق الخزان عن آخره لا يمكن أن يحدث مثل هذا التدمير، الذى تم إثباته. وفيما يخص عملية إحداث الثقوب هذه التى تمت بشكل متعمد، كتب البروفيسور كالبورج، أمكن اعتبار حدوث انفجار أمرًا مستبعدًا تقريبًا. "النيران المتصاعدة" جذبت فى وقت وجيز للغاية جمعًا من الناس، فلاحين وعمال زراعيين من الحقول المحيطة، برغم أن المكان الذى اختاراه بحذر جرول الأب والابن، كما جاء فى اعترافاتهما، يبعد عن القرى المحيطة بمسافة اثنين كيلومتر المذكورة هذه، ويقع فى «منطقة منعزلة نسبيًا». تواجد أطفال مدارس، قادمين من هوسكيرشن فى طريق العودة إلى الكفور المحيطة دولبنهوفن، ودولبكيرشن، وتواجد بشكل خاص سائقون، لمحوا الحريق غيرالمألوف، من الطريق الزراعى، وهو أحد الطرق الألمانية ذات الدرجة الثانية، فتوقفوا، لتقديم المساعدة، أو لإرضاء فضولهم أو للاستمتاع بشكل "النيران المتصاعدة".

باستجواب المتهمين فى الأمر، أفادا بأن الوصف ينطبق حرفيًا، وليست لديهما أقوال أخرى؛ وأن بعض المعلومات المهمة بالنسبة لهما ستتبين تباعًا من أقوال الشهود. طلب منهما الرئيس أن يقولا

الآن، ما رفضا قوله سواء فى المعاينة المبدئية، أو فى عمليات التحقيق أو إجراءات البحث البينية: قال كل منهما بشكل مستقل عن الآخر، لتفسير الفعلة المتعذر تفسيرها، إن محاميه سيتناول هذا فى دفاعه. هل لا يعترضان على الأقل على عبارتى «بضمير مرتاح»، و«برضى واضح» ذاتى الوقع الثقيل بشكل بالغ أو يريدا التقليل من وقعهما؟ لا، فقد قام كيرفل الشرطى بمعاينة هذا بدقة متناهية ووصفه بشكل صحيح. هل يقران بجرمهما بما يتفق مع بيان الاتهام. أجاب كلاهما، «نعم، بما يتفق مع بيان الاتهام». سأل الرئيس، الذى أظهر الآن على غير عادته بعض الضيق، هل عليه أن يفهم عبارة «بما يتفق مع بيان الاتهام» هذه بشكل أكيد، أيد المتهمان هذا وبرراه بما أوردا من تفسير قبل الإدلاء بأقوالهما.

وعلى سؤال الرئيس، هل أحسا بندم، أجاب كلاهما بدون تردد وبدون توكيد بـ«لا».

بناء على طلب المدعى العام، التحدث عن إحداث ثقوب فى الخزان، من منهما، وهذا ما لا يتم الإفصاح عنه دائمًا، من قام بإحداث الثقوب وكيف، أجاب جرول الأب بأن خبير الحرائق أثبت، أن إحداث الثقوب تم بشىء صلب مدبب، وليس عنده ما يضيفه إلى ذلك. وعن السؤال، هل الصفيحتان، اللتان تم العثور عليهما فى موضع الجريمة، كانتا ملكًا لقوات الدفاع الألمانية، أجاب جرول الابن، نعم، كانتا ملكًا لقوات الدفاع الألمانية، كانت إحداهما من ملحقات الجيب، والثانية حصل عليها بشكل إضافى، لأنه كان

بصدد البدء «فى مأمورية طويلة إلى حد ما». هل بدأ فى أداء المأمورية؟ نعم، بدأها، إلا أنه قطعها فى بلدته، و«لم يستأنفها».
سأل الدفاع، لا المدعى العام، جرول الابن عن نوعية المأمورية، وهنا اعترض ممثل الادعاء بقوله، غير مسموح بإلقاء سؤال كهذا علنًا؛ طلب أيضًا، إما عدم السماح بالسؤال أو إقصاء الحضور. قال الرئيس، إنه يرجو السماح بإلقاء هذا السؤال على المتهم جرول الابن فى حضور رئيسه فى ذلك الوقت الملازم أول هايموللر الذى تم استدعاؤه للشهادة؛ هل يوافق الدفاع والمدعى العام على ذلك؛ أومأ كلاهما بانحناءة موافقان.

عند سماع شهادة الشهود كان أول من أدلى بأقواله هو هويزر مفوض مرور الدائرة، الذى تقدم بالرجاء، السماح له بأن يكون أول من يدلى بأقواله، لأن عليه أن يحافظ على موعد مهم حدده خلال الليل، عُلقت عليه مصالح مصيرية للدائرة. هويزر، إنسان بدين إلى حد ما، يرتدى ملابس صارخة الألوان، شعره فاتح مجعد، أفاد بأنه فى التاسعة والعشرين من العمر، ويعمل بمهنة أخصائى اجتماعى بقطاع المرور، قال، "بعد ربع ساعة من الوقت المفترض على وجه التقريب لإضرام النيران"، أى حوالى الواحدة إلا الربع صباحًا، تواجد جمع من الناس يزيد على مائة شخص فى موضع الجريمة؛ يكون فى اتجاه السير إلى الجنوب طابور قوامه خمس وعشرون من الدراجات البخارية الواقفة، وفى اتجاه السير إلى الشمال مثله من أربعين دراجة بخارية. وحقيقة أن الطابور المتوقف فى اتجاه السير إلى الشمال كان أطول بحوالى خمس عشرة دراجة عن ذلك المتوقف

فى الطريق باتجاه الجنوب، تطابق، كما عبر هويزر بصياغة متكلفة وتنم عن خيلاء، «تمامًا الخبرة بأحوال المرور، التى قمنا بجمعها فى دائرة بيرجلار والمعروفة لدى الرأى العام بشكل شائع بأنها أزمة مرور دائرتنا»، لأنها تجلب معها تهالكًا متباينًا لسطح الطرق. ثم تناول هويزر بعد ذلك قضية، بدا بشكل واضح أنها تشغله إلى حد بعيد: تلك التى يفسر بها زيادة المارة من الشمال إلى الجنوب والتى تم تسجيلها منذ سنوات على هذا الطريق الاتحادى[1]، وهى زيادة، بلغت بشكل ثابت قيمة الستين بالمائة المسجلة أثناء واقعة جرول؛ أطلق هويزر على السيارات التى تندر فى طريق العودة من الجنوب إلى الشمال «المنشقة أو المزوغة»، وأيضًا «الداورين» (وهو ماله وقع مثل الغجريين)، ويرجع هذا الاختلاف المستحوذ عليه بشكل واضح إلى حقيقة أنه قد نشأ عند شمال هوسكيرشن بالضبط «بسبب ظروف يمكن تفهمها بسهولة من الناحية الاجتماعية نقطة تمركز استيطانية لمرتادى الرحلات، وأن مرتادى الرحلات هؤلاء، فى الاتجاه الشمالى للطريق الاتحادى، فى طريق عودتهم يستخدمون بشكل واضح طرقًا جانبية». أغفل إشارة يد الرئيس، الذى أراد أن يقاطعه هنا، وصاح فى القاعة، رافعًا أصابع القسم الثلاثة ليده اليمنى ضد شىء غير محدد مهددًا: «لكنى سأواصل البحث؛ سأكشف حقيقة هذا الأمر.» سعى لتسجيل أرقام سيارات «السادة المقصودين» وبدأ فى التحرى عن الطريقة والكيفية، وأيضًا دوافع الانشقاق والتزويغ أو الدوران، لأن الاستخدام وحيد الاتجاه للطريق

(١) أى طريق داخل ألمانيا الاتحادية

الاتحادى سيكون على المدى غير جائز مطلقًا»؛ هذا التهالك فى اتجاه واحد يُعَسر التفاوض مع الاتحاد والولايات، التى حاولت أن تنحو باللائمة على طبيعة المكان. فى هذه المحاضرة التى تناولت نظريته توقف أخيرًا برهة للراحة، انتهزها الرئيس على الفور، ليلقى عليه سؤالاً بسيطًا، تركز الاهتمام حقيقة على إجابته: هل أعاقت فعلة المتهمين حركة المرور. أجاب هويزر على هذا السؤال دون لف ودوران بـ"نعم بالفعل، بقدر بالغ". وقعت حادثتان فى موضع الجريمة؛ اصطدمت سيارة صغيرة بسيارة مرسيدس إس إل ٣٠٠ كانت واقفة، أدت إلى تشابك بالأيدى بين قائدى السيارتين، ووقع سباب مهين، تحدث قائد المرسيدس عن «سيارة قفص للأرانب»، وقائد السيارة الصغيرة عن ـ «بدون مؤاخذة، سيدى الرئيس» ـ «سيارة الناس القرف». لاحظ فى موضع الجريمة بخلاف ذلك أن سائقى شاحنة أسمنت أقاما صداقة مع سائقى سيارة زجاجات بيرة، بحيث وصل الأمر «فى الموضع والمكان» لعملية مقايضة، «أريد القول»، للمواد الطبيعية؛ هل كان يتم مقايضة البيرة إذا فى مقابل الأسمنت أم الأسمنت مقابل البيرة، لم يكن يريد التحديد فى هذه النقطة؛ فقط رأى تباع عربة نقل زجاجات البيرة، وهو بالتحديد هومبرت من كفر دولبنهوفن، بعد ذلك بيومين يرمم مدخل منزله بأسمنت تلك الشركة؛ أما سائقا شاحنة الأسمنت «فقد استمتعا بالبيرة فى الموضع» وانحرفا فى مواصلتهما لرحلتهما على بعد ثلاثة كيلومترات من موضع الجريمة عن الطريق الزراعى ودخلا فى حفرة لتخزين اللفت. حادثة أخرى وقعت بين شاحنة مواسير

فخارية وسيارة أوبل، سبع مواسير فخارية ـ إلا أنه هنا نظر فجأة إلى ساعة يده، أملى فى المحضر عبارة الفزع «سترك يارب، نواب مجلس الولاية منتظرين» ورجا بصوت متسرع السماح له بالانصراف. نظر الرئيس إلى الدفاع والمدعى العام مستطلعًا ـ كلاهما هز رأسه مذعنًا، وغادر هويزر القاعة، متمتمًا أثناء الانصراف بـ«أزمة مرور». لم يأسف أحد، ولا حتى زوجته، التى كانت تجلس فى قاعة المشاهدين، على انصراف هويزر.

كانت أقوال كيرفل رجل الشرطة واضحة وسديدة. قال، موضع الجريمة معروف لدى جميع قاطنى المنطقة على أوسع مدى باسم «شجرة كيوبر»؛ وعلى الرغم من استحالة رؤية شجرة هناك لا من بعيد ولا من قريب، وهو أمر استحال أيضًا فيما مضى ـ فلم ير هناك أبدًا فى طفولته أية شجرة ـ ، فإنه اختار هذا الوصف لأنه مدون هكذا على خريطة المسطحات. وقد فسر هرمز مواطن هوسكيرشن المدرس المعروف بأنه باحث فى تاريخ المنطقة الاسم على هذا النحو: منذ عدة أجيال ربما كانت هناك شجرة، انتحر أو شنق نفسه عليها شخص يدعى كيوبر. ما عرضه هويزر بتكلف، أكده هو فى عبارات قليلة: تعطل المرور، كلتا الحادثتين، التشابك بالأيدى، تبادل الشتائم؛ دعوتا سب مرفوعتان بالفعل، بخلاف دعوات تعويض لفلاحى الجوار بسبب خسائر فى المحاصيل؛ عند الاصطدام بين شاحنة المواسير الفخارية والسيارة الأوبل لم يصب لحسن الحظ أى شخص بأضرار، نشأت فقط اضطرابات متزايدة فى أخذ الأقوال، لأنه لفرط الامتعاض أن طارة العجلة الخلفية

لأحد قائدى الدرجات المارين، وهو المزارع الفونس مرتنز، أطاحت بشظية فخار صغيرة، «بالطبع عن غير عمد»، فاصطدمت بسيارة ستروين زرقاء ميتالك بحالة الفابريقة، وأحدثت بطلاء رفرفها «خدشًا، حقيقة يجب أن أقول، سخيفًا جدًا». أقر كيرفل أيضًا بحادثة حفرة تخزين اللفت، إلا أنه أكد على ثبوت استبعاد القيادة فى حالة سكر؛ وقد ثبت أن سبب الحادثة ورقة لفت متعفنة، كانت ملقاة على الطريق بعد فتح حفرة التخزين. استخدم كيرفل عدة مرات الاسم الدارج محليًا لحفرة تخزين اللفت وهى «باتشكول»، التى لزم ترجمتها للمدعى العام، الموظف الوافد حديثًا من بافاريا.

كيرفل، رجل شرطة شعره يميل بشدة للون الرمادى، أشاع وسط مجموعة من خاصة أصدقائه بأنه أمر «مرير، إلا أنه حتمى»، إثقاله بالإدلاء بشهادته أمام المحكمة بالذات على ابن وحفيد جرول صديقه القديم، قبل فترة وجيزة من تقاعده وربما لآخر مرة؛ كيرفل، الذى لا يزال يحمل سمات رجل شرطة ريف من الطراز القديم، استرسل قائلاً، كانت السيارة الجيب فى هذه الأثناء تقريبًا قد احترقت عن آخرها، كان الدخان يتصاعد منها وكانت «ترسل بشرارات منها»، جعلته، يقصى أطفال المدارس أبعد وأبعد. أعاد شنيكينز وتيرفل رقيبا الشرطة الموجودان فى موضع الجريمة فى هذه الأثناء طابورى السيارات مرة أخرى للسير بصعوبة؛ ولإتمام أخذ الأقوال الضرورية بقى فى موضع الجريمة فقط: سائقو المرسيدس والسيارة الصغيرة والأوبل والستروين وشاحنة المواسير الفخارية والمزارع الفريد مرتنز، الذى سرعان ما تركه يرحل، لأنه

كان يعرف بياناته الشخصية. أشد ما أدهش كيرفل العجوز، «بل حتى أثار حفيظته»، هو حقيقة أن الأب والابن جرول لم يحاولا أبدًا، التظاهر بأنها حادثة، بل اعترفا دون لف ودوران بإضرام النيران عمدًا فى السيارة الجيب. هنا تدخل للمرة الأولى الدفاع، د. هيرميس المحامى الشاب مواطن بيرجلار؛ طرح على كيرفل السؤال، كيف له وهو الشرطى المحنك أن يتوقع الحقيقة الأرجح فى كذبة أو حيلة، وهل هو، الدفاع، عليه أن يستخلص منها إلى استنتاجه، الذى قد يجديه فيما هو قادم من حياته كمحام: الكذب أمر مألوف فى مثل هذه الحالات، وربما كان اعتراف موكليه المتسرع كذبة. قبل أن يتمكن كيرفل المندهش، وهو الذى يعرف هيرميس منذ سنوات الطفولة بالطبع وعلق فيما بعد فى مجالس الأصدقاء الخاصة على هذا السؤال بأنه "مخادع، إلا أنه ذكى - سيكون يومًا ما محاميًا بارعًا»، قبل أن يتمكن كيرفل، الذى اعترى تركيزه البطء فى هذه المرحلة المتقدمة من العمر، من الإجابة، كان د. كوجل - إيجر قد اتخذ موقف العداء، وأعلن بنبرة حادة، أنه يعترض على محاولة التشنيع على أحد الموظفين، ترقى نزاهته ويرقى ماضيه السياسى الناصع عن أية شبهة. ويمكنه بسهولة مفرطة تفسير سخط الشاهد: الاعتراف الصريح بفعلة مشينة، بل مدمرة كهذه، دون إبداء الندم أو محاولة التملص، يجب أن يثير سخط قويم الشعور العام. هو، المدعى العام، وهو سيعودان لتناول هذا بالتفصيل، يشعر بأن هذا «الاعتراف الصريح» صادمًا بشكل بيّن، لأنه يُظهر الضمير العابث للمتهمين فى أوضح صورة. أجاب الدفاع، قويم الشعور العام

لم يدرك فعلة جرول الأب والابن بشكل صادم أو إجرامى بأية حال ـ بل بالأحرى ـ «شىء من المزاح المفرط»، وبالطبع لا يقع عليه، أى على الدفاع، أدنى مسئولية فى التشنيع على كيرفل، الذى يقدره ويرى فيه مثالاً للموظف القدوة. فقد أراد على الأقل أن يستفيد قليلاً من خبرة كيرفل المكتسبة على مدى سنوات طويلة فى الأحوال النفسية لشخوص تم الإيقاع بهم فى واقعة حديثة العهد.

هنا تحتم رفع الجلسة بسبب حدوث صخب طفيف. قام المتهم جرول الأب بشكل فج، وخلسة، لأنه «لم يكن يجرؤ أحد على التطلع إلى عينيه»، كما سجل محضر اوصم الخاص، بإشعال غليونه وـ كما سجل المحضر بعد ذلك ـ أخذ فى التدخين «فى نشوة عابثة»؛ حاجب المحكمة شروار، من أراد تلافى الإثارة، حاول أن يأخذ من يد جرول الغليون؛ أبدى جرول مقاومة، انتزع الغليون لأعلى بالفطرة لا عن سوء قصد، مما أدى إلى تطاير شظية متوهجة على فتحة صدر امرأة فى مقصورة المشاهدين؛ المرأة هى السيدة شورف ـ كريدل، الزوجة الشابة لقائد السيارة المرسيدس ـ ٣٠٠، التى أتت فقط لكى تسجل فى المحضر، إذا ما أتيحت الفرصة، أن زوجها منذ هذا «السباب الشيوعى» يعانى من اضطراب عصبى ألزمه الفراش، ويمكن للطبيب المعالج، البروفيسور فولبروك تحرير شهادة بذلك؛ ولما كان زوجها بالذات، المعروف عنه على أوسع مدى معتقده الاشتراكى التقدمى، ويخشاه اليمينيون واليساريون، قد أصيب فى الصميم من توجيه السباب له من فتى هوسكيرشن هذا، المعروف عنه انتماؤه أيضًا، كانت السيدة شورف ـ كريدل تصيح بعصبية،

وهو ما تسبب بالتالى فى فزع جرول والإتيان بحركة، أطاح على آثرها ببعض الشظايا المتوهجة على حجر سيدة أخرى، وبذلك نشأ ثقب محترق فى فستانها الحريرى حديث الشراء؛ صرخت هذه السيدة أيضًا؛ باختصار: نشأ صخب طفيف، ولزم رفع الجلسة؛ أحد الحاضرين يرتدى ملابس أيام الأحد، أمكن التعرف عليه فيما بعد أنه معلم الجزارة لويفن مواطن هوسكرشن، نسيب من الدرجة الأولى للمتهم جرول، صاح فى وجه المتهمين وهو يغادر القاعة بالعبارة المألوفة فى مشاجرات القرية "هايل، تماسكا يا يوهان وشورش[١]، تماسكا"!

بعد الفترة القصيرة لتوقف المداولة، التى استغلها الرئيس فى الاتصال بزوجته تليفونيًا وسحب بعض الأنفاس من سيجارة، لم يتخلص من السخط؛ وبمجرد انعقاد المحكمة وتناول الدعوة مرة أخرى، نهضت السيدة ذات الفستان الحريرى الذى ناله الضرر دون أن يطلب أحد منها وسألت الرئيس، الذى كانت تخاطبه دون تكلف بـ«أنت» وبـ«ألواز»، من المُلزم الآن بالتعويض؛ جرول المتهم، شروار خفير دار القضاء، المحكمة، هى نفسها أم التأمين. ما أثار حفيظة الرئيس بشكل خاص، هو أنها، دون طوية سيئة، كما خمن من مخاطبتها له باسمه الأول، قد أفشت علنًا بسر تم تكتمه بحذر لسنوات طويلة فى بيرجلار، لأنه كان معروفًا باسم لويس لدى جميع من يخاطبونه باسمه الأول؛ حتى زوجته لم تتذكر ولو لمرة واحدة

(١) جيورج. (المترجم)

اسمه الأول الحقيقى، الذى كان يخجل منه إلى أبعد حد. هذه السيدة، أجنيس هال، ابنة خالته من الدرجة الأولى، احتفظ وجهها البناتى الرقيق بجمال ناعم، لم يتوافر غالبًا لزوجات فى سنها، كانت تحضر منذ عشرين عامًا مضت كل المحاكمات العلنية التى يرأسها؛ يعرفها الجميع بأنها «أجنيس أثاث المحكمة»؛ من الناحية المادية كانت تشغل أكثر من وظيفة حرة، وكانت تقيم فى بيت راق، ولدت فيه والدة شتولفوس، إحدى سيدات هال، كثر تردد شتولفوس عليه فى شبابه، وهو لا يزال قاضيًا معاونًا، بل كثر دخوله وخروجه، غالبًا أيضًا، لاصطحاب أجنيس للرقص أو لأخذها إلى أغراض ترفيهية أخرى. أخطأ شتولفوس تمامًا فى تفسير حقيقة تحويلها للوم الصامت على عدم زواجه منها إلى انفلات واضح فى السلوك؛ رأى ذلك بمثابة مكر فج مباغت، بينما هى، من علمت منه بالتليفون فى الصباح أن تقاعده أوشك أخيرًا ـ ولأنها قد لا تلتقى به بعد ذلك، أرادت أن تودعه، على الأقل أن تخاطبه مرة أخرى بألواز، وهى سعادة، لا يدرك معناها، من لا يعى أشكال الوجود الأفلاطونى. شتولفوس، الذى شعر على أية حال بتوتر متزايد، تصرف بحنق غير متوقع: بكلمات قاسية أبلغ أجنيس، التى خاطبها ـ لأول مرة فى حياته وحياتها ـ بـ«الآنسة هال»، بأنه لم يتم استدعاؤها للتحدث أمام المحكمة؛ وأن الأمر هنا يدور حول إعادة الحق إلى نصابه لا حول استفسارات تافهة وثانوية عن التأمينات. بإدراكها أن هذا صفع وجهها، رسمت ازدراء لطيفًا على وجهها، ثم، حين بدا أن هذا لم يسفر عن نتيجة، لأن شتولفوس، الذى اتخذ

النهج الرسمى بشكل مغال فيه، أكثر مما اتخذه فيما سبق، تحدث، استرسل فى تعاليمه الجافة والمتشددة، أظهرت الآنسة هال بوادر العناد: تقلصًا فى الكتفين ينم عن تكدير، شفتين ممطوطتين للأمام بشكل متذمر، وأشار لها شتولفوس بمغادرة القاعة، فغادرتها فى زهو، مرفوعة الهامة؛ ساد صمت مطبق، عندما غادرت هذه السيدة المسنة الجميلة القاعة بأسلوب، يمكن أن يوصف بأنه «عاصف» فحسب؛ تابعها شتولفوس بالنظر: اعتراه الاضطراب فى أول الأمر، ثم الخزى ـ بعد ذلك تنحنح ورجا كيرفل العجوز أن يمثل فى منصة الشهود من جديد. طلب منه، بحدة أشد مما يستحق، أن يستبعد بشكل نهائى كل ما هو جانبى ـ تعطل المرور، تبعاته، المخالفات القانونية المرتبطة به، الدعاوى القضائية الخاصة التى نتجت عن ذلك والنِزاعات التأمينية المتوقعة. كيرفل، الذى أثارت واقعة السيدة هال قلقه، أدلى فى المحضر بصوت منخفض، أنه أراد التوجه فى الحال بعد تنظيم كل «التعطلات» إلى المتهمين، إلا أن فرقة المطافىء ظهرت وقتئذ فى موضع الجريمة، وتمكن بعد لأى وعناء بالغ من إعاقة هؤلاء، من كانوا قد وضعوا مضخاتهم على نهر الدور الواقع بالقرب من موضع الجيب التى كانت تتوهج ببطء تحت «اندفاع المياه» وبذلك تتلف الآثار والدلائل المحتملة؛ انسحبت فرقة المطافىء، «المتكدرة كعادتها فى مثل هذه الأحوال»، وأتيح له الوقت أخيرًا، للاقتراب من المتهمين. صاح فيهما من على مسافة حوالى ستة أمتار: «يا إلهى، كيف حدث هذا؟» أجاب جرول الابن على ذلك: «أحرقنا البتاعة.» قال هو وهو مندهش إلى حد ما: «لكن

لماذا؟» جرول الأب: «شعرنا بصقيع بعض الشىء وأردنا التدفئة بحدث.» هو: «هنشن[1] - أبوه كان أحد أخلص أصدقائى، أعرف المتهم من سنوات طفولته وأخاطبه دون تكلف - ، أتعرف، ماذا ستقول هناك؟» جرول الأب: «أعرف ما سأقول، كان هبيننج[2].» هو لجرول الابن: «شورش - هل حرق هنشن سيارة جيب؟» جرول الابن: «لا، هنيس، سيادة الرئيس اسمى الأول هينريش - ، لم يكن بهذا التعقل منذ وقت طويل.» أضاف كيرفل، هذا الحوار بأكمله دار باللهجة الدارجة. قال كيرفل بعد ذلك، إن هذه وهى آخر شهادة يدلى بها أمام المحكمة هى «الخمسمائة تقريبًا فى محاكمة يديرها شتولفوس»، وأنه، وهذا ما لاحظه، يصعب عليه وأيضًا على شتولفوس، الاقتصار على الموضوعية الخالصة، لأن كلاهما، شتولفوس وهو، كان عليهما فى «السعى غير المجدى غالبًا، إضفاء شىء من النظام على هذا العالم المجنون»، لذلك كافحا مرارًا، ضد بعضهما بشأن الأفراد، وجنبًا إلى جنب بشأن الواقعة. قال كيرفل، كم لزم أن يسجل وحده فى المحضر الملاحظة التالية: إن اسمه الأول هينريش، والمتهم فى كل مرة يخاطبه بهنيس؛ أدلى فى المحضر بهذه العبارة فقط مائتى مرة.

تقدم الدفاع بالرجاء، السماح له بتوجيه بعض الأسئلة للشاهد

(١) تدليل ليوهان. (المترجم)

(٢) المقصود كلمة Happening الإنجليزية، ووردت فى الأصل كما ينطقها الألمان (Happening= Heppening) ويلزم التنبيه على وضع التخريج الصوتى للكلمة فى الاعتبار، وسنضعها فيما يلى بترجمتها الصوتية «هبيننج» كلما لزم الأمر. (المترجم)

كيرفل؛ عندما تم كفل هذا له، قال، قبل طرح الأسئلة، يريد أن يؤكد على أن مقصده ليس نصب مصيدة لكيرفل، الذى يحترمه ويقدره كرجل شرطة أهلاً للثقة وشاهد لا غبار عليه، أو التشكيك فى مستوى تعليمه أو السخرية منه؛ انفعل هيرميس وارتبك قليلاً، عندما أضاف، أن السؤال هو، على الرغم من أنه قد يبدو جانبيًا، فإنه بالنسبة لموكليه بالغ الأهمية. ثم رجا الشاهد كيرفل، أن يفسر له ولهيئة المحكمة، كيف فهم هو، أى كيرفل، لفظة هبيننج؟. كيرفل، الذى أحنى رأسه فى الحال مذعنًا، بنية التعبير عن عدم شعوره بأن هذا السؤال مخادع، ثم هز رأسه وقال، إنه لم يفهم اللفظة بالشكل الواجب، ولم يعيرها أى اهتمام. فيما بعد تمعن فيها وفسرها لنفسه بالتقريب كما يلى: كان من المعروف، أن جرول كان دائمًا رجل النكات وبدون تحصيل نقود؛ ولأنه كان دائمًا مطاردًا من المحضرين، فقد أكد حقيقة فى كل مناسبة، أنه لا يملك بفينيكا[1] ، أى بنينج باللهجة الدارجة، وقد فسر لنفسه كلمة هبيننج بأنها صياغة مبتورة لعبارة «ما حلتيش بفينيكا»، رغم أن هذا أيضًا لم يكشف له أوجه الارتباط؛ هكذا اعتبرها صياغة عابرة لـ«أغنية جرول القديمة» عن افتقاره للمال. ولم يتمكن من ربطها بالواقعة. ولما سأله الدفاع، كيف يكتب كلمة حدث أو كيف كتبها فى المحضر، هل بحركة مفتوحة أم مكسورة[2]، أجاب كيرفل، أنه لم يذكر الكلمة بالمرة فى محضره الأول، أما لو لزم كتابتها، فمن البديهى أنه سيكتبها بحركة

(١) ما يعادل مليمًا، مارك ألماني واحد = ١٠٠ بفينيكا. (المترجم)
(٢) Happening أم Happening. (المترجم)

مكسورة[١]، لأنها من الواضح لم تكن مفتوحة، بل مكسورة أو هكذا نطق بها جرول. تابع الرئيس، الذى رحب بهذا الشرود بعد الحادث المؤسف مع ابنة خاله، الحوار بين هيرميس وكيرفل بحواجب مرفوعة تنم عن الاهتمام. بعد أن أجاب كيرفل على السؤال عن طريقة كتابة كلمة هبيننج بأنها بحركة مكسورة، سأل الرئيس الدفاع، لماذا إصراره على تحرى الدقة فى إثبات هذه الدقائق الصوتية؛ أجاب هيرميس بالإشارة المتوعدة، أن مغزى أسئلته ليس التشكيك فى مصداقية الشاهد كيرفل، وليس بمقدوره فى هذه المرحلة من القضية الإفصاح عن المزيد.

تابع المدعى العام هذا الجدل حول حركة الفتح والكسر بابتسامة متعالية، وتمتم قائلاً شيئًا من «السفسطة، تناول هراء أهل منطقة الراين هنا»، لن يجدى أحد بشىء. بدا له، وللرئيس أيضًا، كما لو كان هذا جدلاً عابثًا، لا يخرج عن نمنمات معقدة حول لفظة دارجة، تبدو له، أى للمدعى العام، هامشية بشكل مضحك. اكتشف فى هذه اللهجة الغريبة عليه والتى تبدو أنها ثقيلة على اللسان كثيرًا من التشابه فى الوقع الصوتى مع الإنجليزية، ولفظة هبيننج تذكره بالوقع الصوتى للفظة نصف بنس[٢]. وعندما تقدم الدفاع بالرجاء، بتسجيل هذا الجدل حول حركة الفتح والكسر فى المحضر، وهو ما كفله له الرئيس بابتسامة، ضحك المدعى العام، ثم عاد لجديته ثانية فى الحال، بتوجيه السؤال للمتهم جرول، هل كان جاد المقصد،

---

(١) Happening(المترجم).
(٢)Half penny. (المترجم)

عندما قال فى موضع الجريمة، شعرت بصقيع أو برد، فقد كان حقيقة أحد أيام شهر يونيو شديدة الحرارة وكانت درجة الحرارة ٢٩,٩ درجة فى الظل. أجاب جرول، أنه يشعر دائمًا ببرودة شديدة، حتى فى الحر.

السؤال الثانى للدفاع وضع كيرفل، كما كان غير خاف، فى ارتباك شديد مع أنه لم يتم تسجيله فى المحضر؛ هل حقًا، كان المتهمان جرول يغنيان ويقرعان غليونيهما أحدهما فى الآخر، وهل هو، أى كيرفل، سمع فى "هذه المرحلة من الحريق" أصوات القرقعة، الذى أخبر عنها شهود آخرون. كيرفل، من كان يستصعب الكذب بشكل واضح، تحول بوجهه، واحمر، ونظر لشتولفوس طالبًا العون، الذى بدوره، نظر إلى هيرميس ـ راجيًا بأى شكل الترفق بكيرفل. قال هيرميس، وهو عاقد العزم بوضوح، على الاستجابة لكيرفل، إجابة هذا السؤال مهمة للغاية بالنسبة لموكليه، أى «لصالحهما»، فهى ترتبط بسؤاله عن طريقة كتابة لفظة هبيننج، وإذا كان يعنيه، أى كيرفل، أمر الترفق بالمتهمين، بعدم ذكره شيئًا عن هذه التفصيلات، فباستطاعته، أى هيرميس، أن يؤكد له، أن واقع الحال هو العكس: أقواله يمكن أن تفيد المتهمين. هنا طلب جرول الأب السماح له بالتحدث، فقال له وقال لكيرفل، الذى يخاطبه دون تكلف بـ«ياعمى هنيس»، بأن بألا يثقل على نفسه ولا يحمل نفسه وطأة الإحساس بالضيق؛ عليه بعد مدة خدمة طويلة ناصعة أن يحقق لنفسه خروجًا مشرفًا ويتكلم «بصراحة». كيرفل، الذى وصف فيما بعد هذا المشهد بأنه «موجع للغاية»، قال بشكل متقطع، باحثًا عن

الكلمات، نعم، إنه لاحظ، كيف كان المتهمان يقرعان غليونيهما أحدهما فى الآخر، وسمع، أنهما كانا يغنيان. وبسؤاله، هل كان قرع الغليونين أحدهما فى الآخر يتم بشكل إيقاعى، قال كيرفل، وقد تحرر الآن بعض الشىء، نعم، كان بشكل إيقاعى ـ فهو كان، كما هو معروف، منذ أربعين عامًا أحد أعضاء فريق الإنشاد الكنسى ويعرف أغانى الطقوس الدينية ـ ، القرع كان يتم بإيقاع ادع لنا[١]، وبشكل متكرر يكفى ليمكنه من التعرف عليه بدقة أثناء اقترابه من جرول الأب والابن؛ انتهى فقط، عندما وجه للثنائى جرول سؤاله الأول ـ وأضاف كيرفل، الذى عاد الآن أكثر ارتباكًا: فقط جرول الابن هو من كان يغنى ـ بصوت منخفض، وغير واضح تقريبًا، وأضاف كيرفل أيضًا، أنه تعرف على صلاة القديسين، ولابد أنهما قد تجاوزا بذلك حدهما شيئًا ما؛ عندما اقترب منهما كانا عند القديسة اجاتا والقديسة لوتشيا؛ «لم يتحقق»، أى كيرفل، من المزيد من أصوات القرع؛ رآهما وأبلغ عنهما أول من وصل إلى موقع الجريمة من المشاهدين، إربل مندوب المبيعات من فوللرزهوفن القريبة من هوسكيرشن، والتلميذان كريشيل وبوديم من دولبنهوفن. شكر هيرميس كيرفل بحرارة مفرطة. سؤال وحيد فقط وجهه المدعى العام لكيرفل، هل «كل هذا الهراء»، الذى صعب بشكل مبرر عليه، أى على كيرفل، وهو رجل متعقل أن يدلى بشهادته فيه، قد تم تسجيله فى المحضر؟ قال كيرفل، تم أخذ أقوال التلميذين كريشيل

(١) باللاتينية فى الأصل (Ora pro nobis). (المترجم)

وبوديم، ومبلغ علمه أنه سيتم إضافة إلى ذلك استجواب الشاهد إربل بخصوص هذا الأمر.

بلباقة وبصوت منخفض، لكن بإلحاح قام المدعى العام بتذكير الرئيس بأنه، أى السيد الرئيس، ربما نسى التوبيخ المستحق لجرول بسبب التدخين على مقعد المتهمين. تقبل د. شتولفوس إشارة التذكير هذه ممتنًا، وطلب من جرول الأب أن يتقدم إلى القضبان، وطلب منه بصرامة أبوية، أن يفسر، ما دار بباله حقيقة، عندما أشعل بمثل هذه اللا مبالاة غليونه؛ فهو حقيقة - مهما كان ما يمكن إثباته ضده - إنسان لا يفتقر للأدب ولا أهوج. قال جرول، الذى التزم بالجدية والوقار، الرجاء قبول عذره عن هذه الواقعة؛ لم يخطر بباله شئ، على العكس، فقد حدث هذا فى حالة من التبلد الفكرى الخالص، بل، الشرود الذهنى؛ لم يكن فى نيته، إظهار ازدراء للمحكمة، كان يفكر بعمل صغير، تم السماح له بأدائه أثناء الحبس الاحتياطى - دهان وتصليح علبة مجوهرات صغيرة لمكتب الإدارة مصنوعة من خشب الورد، ينقصها الأقفال والمفصلات، التى، من الواضح أنها كانت من الذهب، تم نزعها، وبتدخل يفتقر للذوق استبدلت فى بداية القرن بنحاس؛ فجأة اضطر للتفكير فى عمله، ودائمًا، عندما يفكر فى عمله، يقبض على غليونه، يحشوه ويشعله. بسؤاله، هل يمكنه متابعة المحاكمة المهمة جدًا له وهو فى حالة تبلد فكرى وشرود ذهنى؟ قال جرول، كان متبلد الفكر، أما شارد الذهن فربما لم يكن التعبير الصحيح؛ يمكنه أن يكون متبلد الفكر وفى نفس الوقت حاضر الذهن، فقد حدث له، كما يمكن أن يشهد بذلك

القس كولب ابن قريته هوسكيرشن الذى تم استدعاؤه كشاهد، أنه شرع فى التدخين فى الكنيسة. بعد ذلك استدار جرول وهلة تجاه الحاضرين ورجا السيدتين اللتين نالهما الضرر من جراء إهماله قبول اعتذاره وأعلن استعداده، التعويض عن الخسائر، بالعمل، إذا تأزمت الأمور، فى حالة افتقاره للمال؛ فقد عمل عدة مرات للسيدة شورف - كريدل وللآنسة هال. كان جرول يتحدث بصوت منخفض وبموضوعية، ومع ذلك دون أى خنوع، حتى قاطعه المدعى العام، بشكل أشد حدة هذه المرة، وقال، إنه يرى فى الطريقة، التى يقدم بها المتهم خدماته هنا، ويمارس بها، مع توخى التواضع المتدبر فى الوصف، نوعًا من الدعاية العملية، دليلاً جديدًا على «النشوة العابثة واللا مبالاة، يجب باسم الدولة، التى تعنى هنا بإعادة الحق إلى نصابه، أن أصر بتشدد بالغ على عقابها على الأقل بلفت النظر الصارم». بصوت ينم عن عدم اقتناع تام وجه د. شتولفوس لومًا صارمًا لجرول الأب، تقبله بانحناءة رأس مذعنة. توجه جرول عائدًا إلى مقعد المتهمين، وأمكن مشاهدة تسليمه الغليون، وعبوة التبغ، وأيضًا الثقاب لشروار حاجب المحكمة الجالس إلى جواره، الذى تلقى الأشياء الثلاثة بانحناءة رأس مستحسنًا.

أمكن الآن إنهاء سماع شهادة كيرفل. قال، إنه ألقى القبض على الثنائى جرول فى الحال، وتعجب، أنهما سارا معه ليس فقط دون معارضة، بل مبتهجين تقريبًا؛ تردد لبعض لحظات، إلا أن جرول الأب صاح فيه، أنهما كانا ينويان الفرار إلى باريس أو أمستردام، عندئذ ستكون هناك شبهة محاولة الفرار؛ بعد ذلك أيضًا تردد فى

القبض على جرول الابن فى زيه العسكرى، فالوضع القانونى لم يكن واضحًا له تمامًا؛ ولما لم يبد جرول الابن أية مقاومة، شعر بأنه له الحق فى أن يقوم بعمل الشرطة العسكرية إلى أن يتضح الوضع القانونى. عبارة الإعجاب: «أحسنت التصرف»، التى أطلقها المدعى العام، أربكت كيرفل بشكل واضح. وجه الرئيس توبيخًا للمدعى العام على العبارات البينية غير المسموح بها وغير الموضوعية؛ قال الرئيس، هنا ليس بمكان لممارسة التطييب العلنى. اعتذر المدعى العام، ورجا تفهم، أنه نظرًا للطيش الكامن، الذى رآه فى المتهمين، أبدى استحسانه للأسلوب المتعقل، الملتزم لرجل الشرطة الكفء.

بناء على طلب الدفاع تم توضيح الوضع القانونى للمتهم جرول الابن بالتفصيل مرة أخرى. تم استدعاء المتهم جرول الابن صباح ليلة اعتقاله من قِبل وحدته العسكرية، وهناك تم إيداعه الحجز، وقام رئيسه باستجوابه، لكنه أطلق سراحه بعد ظهر نفس اليوم، وقام أفراد الشرطة العسكرية بنقله فى زى مدنى إلى سجن بيرجلار. طالب بالإجابة على سؤال، ما إذا كان لوحدة جرول العسكرية الحق فى أن تَدَع أفراد الشرطة العسكرية ينقلون سجينًا رهن التحقيق تم تصنيفه مدنيًا بشكل قاطع إلى بيرجلار؛ إلا أن ما يعنيه الآن هو معرفة، ما إذا كان جرول الابن هنا يتم محاكمته بشكل نهائى كشخص مدنى أم أن عليه أن يتوقع محاكمة أخرى؟ قال الرئيس، الوضع القانونى لم يكن واضحًا تمامًا فى أول الأمر، فى البداية تم اعتبار فعلة جرول الابن جريمة أثناء أداء الخدمة، ثم، عندما برز السؤال، ألم يجرم أيضًا جرول الأب بحق قوات

الدفاع الألمانية، تبين فى مكتب السرية العسكرية لوحدة جرول، أن جرول فى حقيقة الأمر كان ينتظر تصريحًا قبل وقوع الجريمة بثلاثة أيام بسبب خطأ فى الحساب أو بالأحرى فى تسجيل تصاريح الغياب؛ كان فى وقت الجريمة، ربما بصفته الشخصية، لكن ليس بصفته الوضعية أحد أفراد قوات الدفاع الألمانية، وبالتالى كان له الحق، بصفته الشخصية، وليس بصفته الوضعية، فى قيادة الجيب؛ وعلى جرول تقدير هذا الأمر بأنه صنيع كبير، لأنه إذا ما تم تناول الجريمة كجريمة تخريب، ستعقد له محاكمة خطيرة الشأن؛ لكن هنا لن تدخل قوات الدفاع الألمانية كمتضرر ثان من خسائر مادية، وستعتبر جرول الأب على أية حال الفاعل الأساسى، فقوات الدفاع، كما قال د. شتولفوس بابتسامة خبيثة، «سترتع فى جنان البراءة». ستظهر لا كمتضرر ثان، ستكون ممثلة كـ «شاهد» ببعض أفرادها فقط. بخلاف ذلك فإدانة هذا الأمر تأتى فى إطار مأمورية جرول المذكورة آنفًا، سيتم مناقشة الجانب القانونى العسكرى للواقعة، بمجرد أن يدلى الشاهد الملازم أول هايموللر بأقواله وإقصاء جمهور الحضور. وشىء وحيد يمكن تأكيده للدفاع، هو ما من محاكمة أخرى تنتظر جرول؛ وفيما يخص الأضرار المادية، تتقدم قوات الدفاع الألمانى عن طريق محكمة بيرجلار الابتدائية بالمطالبة بها من الاثنين جرول بصفتهما المدنية. وقد ورد لهيئة المحكمة خطاب بهذا الشأن من العقيد فون جريبلوته قائد الفوج العسكرى. قال جرول الابن، الذى طلب أن يتكلم وسُمح له، إنه لا يعنيه تلقى أى منة من قوات الدفاع الألمانية، حتى ولو كانت

محاكمة مدنية. خاطبه المدعى العام بصرامة، دون أن ينتظر طويلاً السماح له، وصاح فيه، بأنه أخرق جاحد للفضل؛ رد جرول الابن صائحًا، بأنه لا يسمح بأن يقال عليه أخرق، فهو إنسان ناضج، وأن القرار يرجع له هو فى قبول أو رفض المن عليه بأى شىء؛ ويؤكد على أنه لن يقبل أبدًا محاكمة مدنية له على سبيل المنة. طُلب من المدعى العام سحب لفظة أخرق، والتنبيه على جرول بتجنب العناد؛ اعتذر كلاهما، لا لبعضهما، للرئيس فقط.

أدلى ألبرت إربل مندوب المبيعات من فوللرزهوفن القريبة من هوسكيرشن بدائرة بيرجلار بأن عمره واحد وثلاثون سنة؛ متزوج، وعنده طفلان و«كلبان»، كما أضاف مازحًا؛ منعه الرئيس تكرار مثل هذا المزاح دون داع. قال إربل، الذى تقدم برجاء الاعتذار، حاضر، وأضاف أنه مر فى اليوم موضع النقاش بسيارته حوالى الساعة ١٢,٣٥ظهرًا بالموضع المعنى، لمح النيران، توقف، لف ـ وهو ما وضعه فيما بعد فى مشاكل متزايدة، عندما اضطر أن يواصل السير فى اتجاه معاكس، على أية حال، كان قد قطع مسافة «حوالى خمسين مترًا» باتجاه السيارة المشتعلة، رأى المتهمين، من كانا يقارعان غليونيهما فى بعضهما البعض ـ «أتعلم سيادتك، كما يتم مقارعة أكواب البيرة فى بعضها فى مجالس الشراب» ـ ويغنيان أيضًا؛ أما ماذا كانا يغنيان، فهذا ما لم يستطع فهمه، بالفعل، ربما كان باللغة اللاتينية، «فلم يكن بالألمانية على أية حال، ولا أيضًا باللهجة الدارجة، فأنا أعرفها». وبسؤاله عن أصوات القرع، قال إربل، نعم، كانت ترن بشكل ملحوظ جدًا، «يمكن أن يقال جميل»، بالأحرى

كصوت الطبل أو الخشخشة أيضًا، على أية حال كانت صوت أشياء صغيرة تتحرك بعنف داخل جسم صفيحى مغلق؛ كان له، إذا ما أمعنت النظر جيدًا، نوع معين من إيقاعات الرومبا. حسنًا، سأل المتهمين، هل باستطاعته عمل أى شىء لهما؛ قالا لا، من شأنهما هما، أن يعملا شيئًا له، عليه «أن يتفرج ويسمع»، ألا يروقه؛ كإجابة أشار بالإصبع إلى الجبهة وأدرك بشكل واضح الانطباع بأن الاثنين معتوهان أو أن الأمر يدور حول «مزاح وإن كان باهظ الثمن من ممولى ضرائب»، ثم عاد إلى سيارته. سأله الدفاع، هل أحس بأن المتهمين معتوهان أم كأنهما معتوهان، فكر إربل لثوان قليلة وقال، كأنهما معتوهان؛ سأل هيرميس بعد ذلك، هل أحس بانطباع، أنه كان شاهدًا لحدث وقع مصادفة، أم لحادث عارض أم لشىء معد؛ إربل: اعتبر مصادفة أو حادثًا عارضًا أمرًا مستبعدًا، وكلمة شىء معد لا تبدو لى فى هذا السياق مناسبة تمامًا، لكن «بالتقريب إلى حد ما»، على أية حال ـ وهو ما تبين له ـ كان شيئًا مدبرًا. عندما قام المدعى العام بتنبيهه لشهادته أثناء التحقيقات الأولية، تلك التى كانت أشمل بقدر كبير، ضرب إربل على جبهته، وطلب التماس العذر له وقال، نعم، خطر شىء بباله الآن: سأله جرول الابن، ماذا يروج أو لدى أى شركة يعمل؛ قال، لشركة معروفة، تنتج إسبراى للحمام؛ فرجاه جرول أن يعطيه زجاجة أو أنبوبة كعينة دعاية، لكنه رفض؛ فقال جرول، إنه يريد شراء زجاجة من المنتج، فلا بد أيضًا من إعطاء السيارة حمامًا.

أقر المتهمان صحة أقوال إربل بـ «الحرف». وصف إربل أيضًا، أية صعوبات واجهته، للدوران بسيارته والدخول ثانية فى مساره الأصلى؛ فى تلك الأثناء كانت حوالى عشر سيارات واقفة: قدم له الرقيب شنيكينز العون، بتوجيهه للعودة بظهره إلى مجرى الطريق.

أخطأ المدعى العام، الغريب عن المنطقة، المعين فى بيرجلار منذ أسبوعين خطأ فادحًا فى محاولة تشويه معالم شخصية جرول الأب. قبل بدء المحاكمة بدقائق قليلة اقترح الرئيس على المدعى العام بإلحاح التنازل عن استجواب الشاهدة سانى زايفرت؛ إلا أنه، متشمم رائحة فساد فى المنطقة، أصر على السماح له باستجواب الشاهدة زايفرت عن شخصية المتهم. فى حقيقة الأمر كان د. كوجل - إيجر، باستدعائه للشاهدة زايفرت للشهادة، قد استجاب لهمس محرر اشتراكى ديمقراطى من جريدة «راينيشى تاجبلات»، لم يُحرم بسبب هذا الهمس من مدح حزبه له فقط، بل تم توبيخه بحدة، وطرده تقريبًا. فالسيدة زايفرت، كما أكد المحرر، ستشهد فى أى وقت، أن جرول الأب حاول اغتصابها فى مرات متكررة.

بمجرد أن تم النداء على الشاهدة «السيدة سانى زايفرت»، خرج شروار حاجب المحكمة إلى الرواق وصاح دون أى شكليات، بشكل مسموع بوضوح لكل الموجودين فى القاعة: «تعالى يا سانيونتى، حانت ساعتك»، وأشاع بين غالبية الحاضرين نوعًا من الشماتة، أضيفت بلا شك إلى أعباء المدعى العام. ظهور من نودى عليها، سيدة جميلة، لم تعد فى باكورة سنوات شبابها، أنيقة الملبس، تتزين

بشعر مستعار داكن اللون وبوع قصير من الجلد الأحمر، أربك الرئيس. تعامل فيما سبق عدة مرات فى أمور لها صلة بجرائم إخفاء مسروقات، ودعارة، وقوادة، وغواية شباب قصر مع السيدة زايفرت، التى تحفل جعبتها بترسانة كاملة من التعبيرات الدارجة لتلك العملية، التى تسمى بشكل عام «اتصال جنسى»، تدفع أحيانًا بحمرة الخجل إلى وجنات المتخصصين المتمرسين. أيضًا قام باستجواب السيدة زايفرت مرتين فى أمور لها صلة بشبهة التجسس، ثبت أنها غير قائمة على أدلة؛ كان للسيدة زايفرت علاقات حميمة جدًا مع الضابط الأمريكى، الذى أخفى الرءوس النووية فى المطار الواقع بالقرب من بيرجلار بوصفها أقرب مدينة كبيرة وكان معروفًا فى المنطقة باسم إميل النووى؛ أيضًا تعاملت السيدة زايفرت بشكل مفرط فى الود مع رائد بلجيكى، كان مطلعًا على أسرار خطيرة، لكن كلتا المرتين تبرهنان على أنها لم يكن لها أغراض أخرى غير تلك المعتادة فى مهنتها. بعينيها الزرقاوين، التى كان يزداد صفاؤهما وحدتهما باستمرار أثناء ظهورها الوجيز، مما أثبت، أنه يتم هنا النظر فى عينى شخص أشقر للغاية بطبيعته وله مزاج معين، كانت تنظر بتحد متعال إلى كل الرجال الموجودين، باستثناء المتهمين والمدعى العام. كتم الرئيس أية ابتسامة، عندما أدلت بأن مهنتها مديرة مطعم وأن عمرها «الثامن والعشرون». المدعى العام، الذى عرف لحظة دخولها خطأه، لعن همس المحرر الاشتراكى الديمقراطى وقرر عدم انتخاب حزبه فى الانتخابات القادمة، سأل السيدة زايفرت بصوت يفتقر للثبات، هل سبق أن

تعرضت للتحرش من المتهم جرول، أو هل حاول حقًا اغتصابها. هب الدفاع فى الحال واقفًا وطلب، لا ـ كما أكد بشدة ـ لصالح موكله جرول الأب، الذى ليس ثمة ما يخشاه من أقوال الشاهدة، بل لصالح الآداب العامة والأخلاق، التى يقع واجب حمايتها حقيقة لا عليه، بل على المدعى العام ـ يطلب، استبعاد الجمهور فقط، بل أيضًا موكله الشاب جرول الابن؛ انفعاله كان فى محله، عندما صاح، أنه يجد محاولة السيد ممثل أخلاق الدولة، الحط من قدر أب فى نظر ابنه، أمرًا مهولاً للغاية. وقبل أن يتمكن المدعى العام من اتخاذ قراره بالإجابة، قالت السيدة زايفرت بصوت ناعم يثير الدهشة، مهنتها هى أن تكون عرضة لتحرش الرجال، وأنها ـ قاطعها الرئيس بحزم منوهًا بأنه مطلوب منها الإجابة فقط عندما يتم توجيه السؤال إليها، وهو ما عقبت عليه بصوت مرتفع عما سبق، أنه قد تم توجيه السؤال لها بالفعل، وقد أجابت ولا أكثر. نظر المدعى العام فى هذه الأثناء إلى زوجته فى مقصورة المشاهدين، سيدة سمراء نحيلة، زوجة الدفاع فقط هى من تعرف أنها وزوجة المدعى العام؛ بنظرة أشارت عليه زوجته بأن لا يصر على استجواب السيدة زايفرت، وعندما سأله الرئيس، هل يصر على استجواب الشاهدة زايفرت، أعلن بصوت خافت، أنه لا حاجة له ببقية أقوالها. لم يوجه الرئيس نظره إلى السيدة زايفرت، عندما أشار فى كياسة، بانصرافها. وردت السيدة زايفرت على ذلك بنعومة باهتة، قالت، حتى لا تترك جرول الأب موضع شبهة فى غير محلها، ألا يجوز لها أن تجيب على الأقل أيضًا على الجزء الثانى من السؤال؛ بإيماءة

رأس مترددة من الرئيس طالبًا منها ذلك، قالت، لم يحاول جرول الأب أبدًا، التحرش بها، ولا حاول أبدًا اغتصابها؛ كل ما هنالك أنه أدى لها عملاً، قام بالتأثيث الخشبى لبارها من طراز نهاية القرن التاسع عشر(١) ـ أحسنت نطقها ـ ، ومن يعمل لديها من حرفيين، سرعان ما تحوم حولهم شبهة أنهم كانوا على علاقة عمل بها مختلفة عن العلاقة الحقيقية؛ بخلاف ذلك أدى جرول الابن أيضًا لها عملاً، وقد أسعدها، إعدادها الطعام لهذين الرجلين «اليتيمين». قبل أن تغادر القاعة بناء على الطلب الموجه لها، بدا صوتها تقريبًا وكأنه فى تلك الحالة، التى تسمى عادة «مختنق بالدمع». علا نوع من صيحات الاستحسان فى مقصورة المشاهدين، صوت إزاحة كراس، وأيضًا بضعة أصوات غير واضحة المخارج، إلا أنه يمكن تبين أنها أصوات استحسان، منعها رئيس المحكمة. ظهور السيدة زايفرت، التى أمكن مشاهدتها بعد ذلك بقليل تصعد داخل سيارتها الحمراء المكشوفة الواقفة فيما كان سابقًا فناء المدرسة وسماعها تنطلق، آل فى النهاية إلى صمت مقبض، لم تَخف حدة كآبته، عندما توجه أوصم محرر المحضر إلى الرئيس وسأله هامسًا، هل عليه أن يسجل هذه الواقعة البينية تحت مسمى «صخب»؛ هز الرئيس رأسه فى غضب، لأن الهمس كان يمكن فهمه بوضوح فى القاعة بأكملها.

---

(١) فى الأصل بالفرنسية Fin ـ de ـ siecle. (المترجم)

صوت طرق شديد الحياء على الباب أزعج شروار الذى هب، وركض باتجاه الباب، ثم نادى من هناك مخاطبًا الرئيس بأن الشاهد شمولك مفتش المباحث وصل لتوه ومستعد للإدلاء بشهادته. سمح له الرئيس التفضل بالدخول. شمولك، فى ملابس مدنية، هيئة شبابية، «مرن ومتعمق» للغاية، وصف، بناء على الطلب الموجه له، بعض تفصيلات للجريمة، لم تكن معروفة إلى الآن: الفاعل - لم يكن من الممكن فى استجوابات كثيرة معرفة ما إذا كان هو جرول الابن أم الأب - ألقى «من مسافة تؤمنه جسمًا متفجرًا شائعًا تداوله فى متاجر بلادنا فى أوقات الاحتفالات"، بعد إشعاله، على السيارة التى تم إغراقها تمامًا بالبنزين، وأحدث على الفور الأثر المرغوب؛ نية الحرق شملت أيضًا الإطارات، إلا أن إطارين قد قاوما الحرق، انفجرا على أية حال بفعل الحرارة الشديدة؛ كفلا آثارا للجريمة بخلاف حطام السيارة المحترقة البقايا المحترقة للأجسام التى على شكل شظايا المفرقعات فى خزان وقود السيارة وفى صهريجى الوقود الاحتياطيين؛ على الأقل تم - على بعد حوالى أربعة أمتار من حطام السيارة فى حقل اللفت المجاور - العثور على العلبة الكرتون للجسم المتفجر، صنف معروف فى السوق باسم «دانة المدفع». لم يتخذ المتهمان فى الاستجواب صفة العناد بالمرة، إلا أنهما كانا أيضًا شحيحى الكلام للغاية؛ أصرا على أنهما نفذا الجريمة «معًا»، مع أن واحدًا فقط كان بمقدوره إشعال الجسم المتفجر، واحدًا فقط كان بمقدوره إلقاؤه على السيارة. طالبت قوات الدفاع الألمانية بأحقيتها فى ملكية حطام السيارة، بعد مسحه

بمعرفة المختصين بحثًا عن آثار، وتم جره مقطورًا؛ على أية حال قام قبل ذلك شباب سكان كفور دولبنفايلر القريبة بنزع كل الأجزاء التى يمكن فكها، وهو أمر ما كان يمكن تلافيه؛ بلغت قراءة عداد الكيلومترات ٤٩٩٢كيلومترا. وعلى سؤال الرئيس، هل كان لتفقد موضع الجريمة أى أهمية، أجاب شمولك، لا، أمر كهذا لم يكن له أدنى أهمية؛ فقد كان يجد بجوار حجارة رصيف الحقول فى أواخر فصل الصيف آثار عيدان ثقاب وعلب تبغ صفيح صناعة أمريكية، كالتى تعرف عليها بأنها للمتهمين، لكن محصول اللفت الناشىء، الذى يتم تصديره بناقلات ثقيلة، قد «ضرب بجذوره حول وفى أرجاء» المنطقة المحيطة مباشرة، ولم يعد يمكن رؤية أى شىء. نظر إلى ساعة يده وتوجه بأسلوب مهذب وسديد بالرجاء السماح له بالانصراف، فسيتم أخذ أقواله كشاهد فى الساعات الأولى من فترة ما بعد الظهر فى المدينة الكبيرة القريبة فى القضية الموجهة ضد شيفين سفاح الأطفال، الذى كان يعمل هو الآخر «لحسن الحظ دون توفيق» فى دائرة بيرجلار. لم يكن للمدعى العام ولا للدفاع أى اعتراض لى انصراف شمولك.

طلبت المحكمة والدفاع طبيبين نفسيين كخبيرين، أحدهما كان مؤهلاً بدرجة الأستاذية الأكاديمية، والثانى كفاءة غير مؤهلة بدرجة الأستاذية؛ توازن آخر، من شأنه استبعاد الجدل والجور فى الحكم على المتهمين، تحقق من خلال حقيقة أن البروفيسور الذى طلبه الدفاع ينتمى إلى مدرسة، هى نفسها التى ينتمى إليها غير المؤهل بدرجة أستاذية الذى طلبته المحكمة. تحقيق هذا الترتيب غير

المعتاد، المقترن بجهود هائلة، من شأنه أن يجلب رفيع الثناء للرئيس «فى الموقع الآخر»، ويلقى فيما بعد بوصفه «نموذج شتولفوس» الزهو ويكون أهلاً للنصح به فى دوائر متخصصة، وبهذه الطريقة، كان يحق أيضًا لبيرجلار، موضع أول تطبيق له بنجاح، وأيضًا للاثنين جرول دخول تاريخ القانون. ولما كانت الفرصة قد أتيحت بشكل كاف للخبراء بلقاء المتهمين أثناء الحبس على ذمة التحقيق، خول لهم الرئيس ـ بسبب المسافة البعيدة لمحال إقامة الخبراء (ميونخ، برلين، هامبورج) ـ بالاتفاق مع الدفاع وممثل الادعاء، أمر الظهور بشخصيهما أمام المحكمة واستدعاء قاض لأخذ أقوالهما. قال الرئيس، مضمون التقارير الفنية معروف لجميع الأطراف، فهى فيما يخص سير حياة المتهمين، لا تتضمن شيئًا لم يسبق قوله، ويمكنه أن يوفر على نفسه مطالعة النص كله، ويقتصر على تحديد، أن الخبراء الأربعة جميعهم، بشكل مستقل عن بعضهم وعلى الرغم من انتمائهم لمدارس متعارضة، فإنهم توصلوا بالإجماع إلى نتيجة أن المتهمين يتمتعان بدرجة ذكاء فوق المتوسط، وهما مسئولان تمامًا عن فعلتهما، ولم يثبت لديهما علل نفسية ولا عقلية، وجريمتهما لا تقوم على ـ وهو الأمر غير المألوف ـ دوافع انفعالية، بل دوافع صادرة عن اللاوعى، ولا يستبعد أن يكون الحال هنا هو، حتى لو كان مدانًا أيضًا على مستوى قانون الدولة، ما يمكن وصفه بأنه من شأن الإنسان العابث[1]، بما يمكن أن يطابق طبيعة المتهمين، وهما

---

(١) فى الأصل باللاتينية Homo Ludens. (المترجم)

شخصان يتمتعان بحس فنى بشكل ملحوظ. أحد الخبراء فقط، البروفيسور هيربن، أثبت أن جرول الأب لديه ـ قال الرئيس إنه يستشهد هنا بالحرف ـ «جرح معين فى الوعى الاجتماعى، لا أريد أن أقول طفيفًا، إلا أنه أيضًا ليس بالغًا، وهو مرهون بالانفعال، ربما نشأ على أثر الوفاة المبكرة لزوجته الحبيبة». رفض الخبراء الأربعة بالإجماع ودون قيود السؤال، هل هوس إشعال الحرائق يمكن أن يكون سبب الجريمة؟ واسترسل الرئيس قائلاً، أيضًا يمكن أن يتضح من التقارير الفنية الأربعة، أن الأمر يدور فيما يخص الجريمة حول فعل إرادى؛ الدوافع ليست واردة من العقل الباطن أو اللا وعى، وهذه الحقيقة تتضح، عندما يتم تدبر أمر أن المتهمين ارتكبا الجريمة معًا، على الرغم من أنهما مختلفان تمامًا فى طبيعتهما وصفاتهما. فإنه عندما سأل الرئيس، هل هناك أسئلة أخرى تتعلق بجزئية «تقارير الأطباء النفسيين»، قال ممثل الإدعاء، إنه لا حاجة له بتقرير إضافى، يكفيه تأكيد المسئولية الكاملة، وأيضًا وصف الفعل الإرادى للجريمة، وما يهمه فقط، هو فهم تعبير «صفة مهذبة»، الذى ورد عدة مرات فى التقارير، بوصفه تعبيرًا طبيًا، لا قانونيًّا. وتقدم الدفاع برجاء السماح له بقراءة تلك الفقرة، التى يدور فيها الأمر حول «الميل الفنى لكلا المتهمين». وعندما سمح الرئيس بذلك، قرأ عليه الدفاع، ما ورد فى التقارير الأربعة، كما أكد، بشكل متطابق تقريبًا: «قدرة عجيبة»، تم اكتشافها لدى جرول الأب، «على التعرف على الطراز الفنى، واستيعابه واستنساخه، أما جرول الابن فعلى العكس، موهبة فطرية أكبر بكثير من متطلبات

مهنته، تجلت بالفعل فى بعض أعمال الحفر على الخشب والرسومات ذات الطبيعة غير المجسدة». بأسلوب مهذب، وودود وجه الرئيس للدفاع السؤال، هل يعنيه طلب تقرير فنى آخر، لكى لا يحرم المتهمين تمامًا فيما يخص الجريمة غير المفهومة من فرصة ضعف القوى العقلية؟. بعد مشاورة قصيرة، دارت همسًا، مع موكليه، رفض الدفاع بلباقة هذا العرض.

نسى د. شتولفوس فى نوبة سخطه الحاد (فهو أيضًا يعرف جرول الأب من سنوات الطفولة المبكرة، وكان دائمًا يشعر بتعاطف معه، بل استدعاه قبل الجريمة بأسابيع قليلة لترميم كمودينو إمبراطورى نفيس، آلت إليه ملكيته فى نهاية الأمر بعد خلافات طويلة على الإرث مع ابنة خاله ليزبت، إحدى أخوات أجنيس هال، وتعهد لا بأوراق، بل بالفعل، بتحمل أجر جرول، ولأنه كان على علم بأنه واقع تحت وابل ثقيل من أحكام الحجز، فقد «غمزه» بالأجر)، نسى فى نوبة سخطه الحاد، الإعلان عن موعد راحة الظهيرة فى الموعد المحدد، وأمر فى حوالى الساعة الواحدة ظهرًا باستدعاء الشاهد إرفن هورن رئيس رابطة النجارين. كان هورن رجلاً مسنًا، ملبسه يوحى بالنظافة والوقار، أبيض الشعر ويتحلى بروح المرح تلك، التى تضفى حمرة على الوجه، والتى أمكنه بها أن ينجح بيسر وقناعة كأسقف متقاعد. أدلى بأن عمره اثنان وسبعون عامًا، ومحل إقامته بيرجلار، وقال إنه يعرف المتهم، الذى تتلمذ مهنيًّا على يديه منذ حوالى خمس وثلاثين سنة؛ وهو، أى هورن، كان فى اللجنة، عندما أدى جرول إمتحان نجار مساعد ونجح بدرجة جيد جدًا؛

وعندما أدى جرول إمتحان أسطى نجار، لم يكن لأسباب سياسية أحد أعضاء اللجنة. أدلى هورن، الذى لم يكن طلق اللسان، إلا أنه قد تحلى بشكل واضح باندفاع الشباب الهادر، أدلى بشهادته بصوت رنان، مبتهج. قال، كان جرول دائمًا فتى رزينًا، وأيضًا رجلاً رزينًا، تعاطف معه سياسيًّا، وقدم له العون باستمرار أثناء الحرب، عندما وضعته هذه «الغربان الدنيئة» بشكل متزايد تحت حصار اقتصادى. فكان مثلاً يحضر له من فرنسا الزبد ودهن الخنزير والبيض والتبغ، وكانت ليز زوجة جرول تمده أيضًا باللبن والبطاطس - باختصار، لم يخف جرول أبدًا تعاطفه معه علانية، لكنه لم يتحول أبدًا لناشط سياسى. فيما يخص النشاط المهنى لجرول فقد أفاض عليه هورن بالثناء؛ فهو يحاول أن يكون نجار موبيليا من نفس عياره، ينتمى بمهاراته لفصيلة منقرضة من الحرفيين، هو ببساطة يمثل ندرة. لم يقو هورن على السكوت عن الإشارة إلى أنه على مدار الخمس وأربعين سنة الماضية من التاريخ الألمانى تم ترقية نجارين مرات عديدة لأعلى مراتب وظيفية بالدولة، بل صار أحدهم رئيسًا للدولة. وعندما سأله الرئيس، من يقصد، فمبلغ علمه أن إيبرت[1] كان صانع سروج وهتلر نقاشًا، ارتبك هورن، وحاول أن يتجاوز ارتباكه بسفسطة نحوية، بقوله إنه أراد أن يقول، صار وليس كان رئيسًا للدولة، وبخلاف هذا - لم يقصد بذلك الحط من قدر مهنة النقاشين بالمرة، لأن هتلر حقيقة لم يكن ذات يوم نقاشًا بالمعنى

(١) المقصود فريدريش إيبرت (١٨٧١ - ١٩٢٥) تولى منصب الرئاسة فى الإمبراطورية الألمانية من ١٩١٩حتى وفاته. (المترجم)

الصحيح، فهو لم يلتق أيضًا بأى زميل من هذه الرابطة ـ بالإضافة إلى أنه من غير الجائز ببساطة أن هتلر كان نجارًا. تدخل المدعى العام هنا وقال، قبل أن يسترسل الشاهد فى أناشيد المدح وقبل أن يكون بمقدوره التمويه على هول ما قاله الآن، بالبرم والتدوير غير الجائز فى حقائق تاريخية، يريد، أى المدعى العام، أن يعترض ببالغ، بالغ الحدة على أنه، تم السماح بالحديث «هنا فى إحدى قاعات المحاكم الألمانية دون معارضة عن المنطقة السوفيتية بوصفها دولة»؛ ما من محكمة ألمانية تتهاون فى هذا الأمر، وطلب، لفت نظر الشاهد هورن، والتنبيه عليه من جديد باحترام المتهم جرول الأب، الذى ارتسمت على وجهه مرة أخرى «نشوة عابثة»، أمام المحكمة؛ ما يحدث هنا، لا يمكن أن يُعقل فى الحقيقة. فلتت صيحة «آه ها» من الرئيس، الذى أدرك الآن فقط، أى رئيس دولة كان المقصود؛ اعترف، أنه لم يكن على علم، أن «سيادته»[1] نجار، أو كان نجارًا، وجه إلى الشاهد هورن لفت النظر المطلوب بصوت باهت الطلاقة بشكل واضح وطلب من جرول الأب، الكف عن «نوبات نشوته العابثة». وبسؤاله عن الأحوال المالية للمتهم، أجاب هورن، بأنها «كارثة مزمنة» عمرها عشر سنوات، إلا أنه عليه أن يشدد فى التأكيد على أن المسئولية فى هذا لا تقع على جرول وحده، الذى لم يكن بمقدوره أبدًا الحساب بشكل لائق وربما كان أيضًا يتعامل مع المال باستهتار، المسئولية تقع أيضًا على «سياسة قاتلة للطبقة

(١) المقصود هو فالتر أولبريشت (١٨٩٣ ـ ١٩٧٣) وهو رئيس جمهورية ألمانيا الديمقراطية بداية من عام ١٩٦٠ (المترجم).

الوسطى». مرة أخرى قاطع هنا المدعى العام، الذى منع كممثل للدولة، إساءة استخدام المحاكمة كوسيلة للدعاية ضد سياسة الحكومة فى جباية الضرائب، لكن الرئيس أشار عليه بصوت هادىء بأنه مسموح دون أية قيود إثبات الموقف الذاتى للمتهم إزاء أى منطلق موضوعى، حتى لو كان هذا المنطلق أيضًا ينطق بما هو شائع. برضى واضح استرسل هورن فى وصف التفصيلات؛ ليس بمقدوره هنا كشف كافة، كافة الأوجه، فهذا من شأن خبير مالى؛ لأن جرول لم يحسن التعامل مع التسديدات المتعددة ـ ضريبة حجم التعاملات، وضريبة العمل، وضريبة الدخل، ورابطة عمال المهنة، والتأمين الصحى ـ وقع جرول فى حالة تراكم ضريبى؛ وبسبب الرهونات تفاقمت هذه الحالة، بل، تضاعفت تقريبًا؛ وبعد الرهونات تتابعت المزادات الإجبارية؛ تم البيع بالمزاد أولاً لبيت أسرة جرول فى دولبنفايلر، ثم فدانين ومرعى، كانت أمه فى العماد فى كيريسكيرشن قد أوصت له بهما، وفى النهاية نصيبه فى مطعم «دورق الجعة» فى بيرجلار، وهو جزء من حصته فى ميراث أمه؛ فى نفس الوقت سُرق منه كل ما يمكن رهنه من أثاث بيته، وهو يتضمن بعض قطع الأثاث عالية القيمة، ظهر منها اثنتان فقط فى المتحف الوطنى ثانية. محاولة المدعى العام، الاعتراض على لفظة «سُرق» لوصف إجراء مشروع بمعرفة الدولة، تجاوزها الرئيس بحركة من يده. بمقدوره، هكذا استرسل هورن، أن يوفر على نفسه تفصيلات إضافية، ويكتفى بحقيقة أن، الموقف المالى للمتهم مضطرب كما كان مضطربًا ـ ويُنَحى بذلك أمر على من تقع المسئولية جانبًا، ويصف

الحالة فقط ـ . وفى النهاية وصل الأمر إلى رهن ما فى حافظة نقود المدين؛ وفقد جرول فى نهاية الأمر تطلعه للأعمال الكبيرة، وفقد أيضًا أفضل زبائنه، ممن تعللوا بالتخوف من المشكلات. كان جرول يتكسب قوت يومه من العمل فى السر، وفى النهاية ـ «وقد تواجد فى الوضع الطبيعى للدفاع عن النفس» ـ عمل فى مقابل أشياء، يتعذر رهنها. اعترض المدعى العام بشدة، وبشكل غير لائق تقريبًا على تعبيرى «طبيعى» و«دفاع عن النفس» ـ فالأمر ببساطة لا يحتمل التغاضى عن استخدام تعبيرى «طبيعى» و«دفاع عن النفس» لوصف المسلك المذكور للمتهم؛ فهو يشعر بأن تعبير دفاع عن النفس هدام بشكل بالغ، بل وشائن، فما من مواطن يلتزم بالقانون يمكن أن يكون فى حالة دفاع عن النفس ضد الدولة. الرئيس، الذى بدا هدوءه يثير المدعى العام بشكل متزايد، لفت نظره لاعتبار، كم من المواطنين فى الماضى وفى الحاضر، عَرَّضوا أنفسهم للعقوبة، لا بالتزامهم بالقانون، بل بعدم التزامهم بالقانون، وبذلك كانوا فى وضع فعلى للدفاع عن النفس، وهو المسلك الإنسانى الوحيد؛ إن تعبير دفاع عن النفس فى نظام ديمقراطى ما «ينطوى على قدر من المغالاة» بالطبع، وناشد هورن بالتفضل بتحاشى هذا التعبير. أما الانتقاد الموجه لتعبير «طبيعى» فليس بمقدوره البت فيه؛ فاتخاذ موقف إزاءه يتطلب تعريفًا وافيًا لما يمكن وصفه بأنه طبيعة للإنسان؛ ولا يمكن بأى حال من الأحوال لأى مواطن فى أية دولة فى العالم أن يشعر بأن سن قوانين الضرائب وما يترتب عليها أمر «طبيعى»؛ ويجدر حقيقة لإنسان فى خبرة الشاهد هورن، المعروف

عنه فصاحته، التى تحمل بسببها السخرية والملاحقة، أن يصف مسلك المتهم بأنه «طبيعى» . الحق والقانون يتوجهان حقًا فى مقصدهما ضد طبيعة الإنسان المزعومة، ولا يمكن توقع أن كل مواطن يشعر أو يعتبر أن كل الإجراءات المتخذة ضده أمر «طبيعى». هنا تنبه شتولفوس، من كان ينذر بالوقوع فى إلقاء خطبة وعظية تبعث على النوم إلى حد ما، على أثر نوبة نحنة شديدة من الدفاع. كان كلاهما قد اتفقا فيما بينهما على تلك الإشارة فى حالات كهذه. تدخل شتولفوس مقاطعًا فى منتصف العبارة وسأل هورن، هل لا يستطيع رجل فى قدرات جرول إذاً فى كسب مورده بشكل جيد وفى رضى، دون الوقوع فى مشكلات. أقر هورن، بالتأكيد، من الممكن، لكن هذا يشترط تقريبًا - كما هو حال الأمور ببساطة اليوم - وأكد على كلمة تقريبًا، خلفية علمية فى الاقتصاد القومى، وعيًا كهذا على الأقل؛ هذا التثقيف فى الاقتصاد القومى، أى تربية الوعى تربية اقتصادية قومية والتوعية بكل الحيل الممكنة، ليس المسعى الوحيد للرابطة، فهى تتيحه لأعضائها فى دورات دراسية ونشرات دورية؛ لكن جرول لم يشارك مطلقًا فى هذه الدورات الدراسية والمحاضرات ولم يقرأ أبدًا النشرات الدورية؛ فقد دس رأسه فى الرمال - وهذا أمر مفهوم، لأنه كان من النوعية التى ترى ضآلة جدوى التعليم -، وبدأ فى عدم تسجيل عائدات، عائدات عالية، وهو ما تبين فى نوبات المراجعة المختلفة لنشاطه المهنى، ونتيجة لذلك استحق عقوبات ضريبية عالية. فى حالات كهذه - وهى كثيرة، أكثر مما يُعتقد، أيضًا فى تخصصات مهنية أخرى - لا يبقى للمعنِى بهذا

أى شىء آخر سوى «الانكباب على العمل والغرق فى الرهن حتى آخر رمق»، وأيضًا «الانكباب على العمل» هذه رفضها جرول؛ ورفض حتى وظيفة بمرتب مجز كرئيس ورشة نجارة لمصنع معروف ملمحًا بأنه رجل حر ويريد أن يبقى رجلاً حرًا. وبسؤاله، ألم يكن من الممكن تحاشى الكارثة، قال هورن: «يمكن تلافيها بالفعل، يا سيادة رئيس المحكمة، إلا أنه لو تورطتم سيادتكم فيها على طريقة يوهان جرول، فلن تعود لهذه المعرفة أية جدوى لكم. فببساطة لن يعود ثمة سبيل للخلاص منها، إذا ما وضعتم فى اعتباركم وجوه الإنفاق التى تنشأ عن الرهن، بسبب الأرباح والأجور والرسوم المكتبية ـ أمر يؤدى ببساطة بسيادتكم.» بأسلوب لائق منع الرئيس، بابتسامة خافتة، مخاطبته بـ"سيادتكم" فى هذا السياق.

دون التجرد من السخرية اللاذعة والتجريح، قال المدعى العام، إنه يرجو «بذلك التواضع، المشار عليه به هنا كممثل للدولة»، السماح له بمقاطعة الشاهد هورن فى الوصف المؤثر لسيرة استشهاد المتهم جرول وتوجيه بعض الأسئلة له. يريد التنازل عن وصف «كل الحيل الممكنة»، التى تم بها التشنيع على قوانين الضرائب، بل، والتردى بها لمستوى تعليمات ألعاب الحواة، وهو يتنازل عن تسجيل هذا الوصف كموضع توبيخ، ويريد فقط سؤال الشاهد هورن، هل كان يعلم بأمر الانتهاكات المحاسبية للمتهم جرول قبل اكتشافها. اعترف هورن بلا تردد، نعم، كان على علم بذلك، فقد كان جرول يثق فيه بشكل بالغ ويحكى له كل شىء. إذاً لماذا هو، أى الشاهد هورن، لم يسع، لإبلاغ السلطات بذلك. قال

هورن، الذى نجح فى كتم حنقه، إنه بصفته رئيسًا للرابطة ليس جاسوسًا لمصلحة الضرائب، هو ليس بجاسوس لا لمصلحة الضرائب فقط، بل «ليس جاسوسًا بأية حال»؛ على سيادة المدعى العام التفضل، إذا جاز، بأن يشار إليه بتفهم أن لفظة رابطة تعنى مصالح مشتركة لمجموعة من الزملاء. وقد نبه على جرول، بل ونصحه، بتسوية أموره، وكان قد أوشك بالفعل أن يتوصل لاتفاق إلغاء مع مصلحة الضرائب، بحيث يمكن لزميله جرول أن يقف على قدميه من جديد وأن يستعيد شغفه بالعمل، وقد بدا الأمر وكأنه بمجرد أن أبدت مصلحة الضرائب استجابتها، تفاقم فى الحال وضع جرول بسبب استدعاء ابنه لأداء الخدمة العسكرية، وهو من كان بمثابة الدعامة المجدية الوحيدة. عمل جرول كثيرًا جدًّا، فقد كان هذا أمرًا ضروريًّا، للحفاظ على بيته فى هوسكيرشن من البيع بالمزاد الإجبارى، وللتمكن من دفع فاتورة الكهرباء والاحتياجات الضرورية. منذ ذلك الوقت تَكَون لديه انطباع انهزامى عن جرول، ويريد أن يؤكد بتشديد مرة أخرى على شىء وحيد: أنه ليس جاسوسًا، ولم يولد ليكون جاسوسًا. رفض هورن طلب الرئيس، سحب كلمة جاسوس فى سياق السؤال الذى وجهه المدعى العام؛ فقد سمع بوضوح الطلب بالتجسس على أحد الزملاء. تم التنبيه عليه مرة أخرى، ومطالبته بشكل ودى، بعدم إقحام نفسه فى مشكلات وسحب الكلمة، فقال هورن، لا، فقد شارك على مدار حياته - قبل ٣٣ وبعد ٣٣ وبعد ٤٥ - فى مجمل ما يزيد على خمس وثلاثين محاكمة، وهو يرفض سحب كلمة جاسوس. تم الحكم

عليه فى الحال بغرامة قدرها خمسون ماركًا لصالح الخزانة العامة، وسؤاله، هل يقبل الحكم، فأجاب، إذا كان قول الحقيقة أمرًا باهظًا باهظ الثمن، فهو يريد دفع المبلغ بنفس راضية، ويسره على أية حال، السماح له بدفعه لصالح رخاء العمال. زادت حدة شتولفوس، عندما طالب هورن، بسحب هذه الإهانة المجددة لهيئة المحكمة. ولما رفض هورن بهزة رأس عنيدة، تم الحكم عليه بغرامة ثانية قدرها خمسون ماركًا لصالح الخزانة العامة. لم يتم سؤاله، هل يقبل الحكم، وأعلن الرئيس عن راحة الظهيرة لمدة ساعة ونصف الساعة وقال، الشاهد هورن ينصرف.

الفصل الثانى

قبل إعلان الرئيس عن راحة الظهيرة بعشر دقائق، كان برجنولته، ذلك الرجل النحيل بشكل غير لافت للنظر، البالغ من العمر منتصفه ومع ذلك حسن الهندام، من كان يجلس فى القاعة كمشاهد صامت، قد غادر القاعة دون أن يشعر أحد. وبمجرد أن حل بفناء المدرسة، أسرع من خطاه، وبعد أن نظر إلى ساعة معصمه عجل فى سيره وانتظم، حتى وصوله إلى أقرب كابينة تليفون عمومية عند المحراب الشرقى لأبراشية بيرجلار، فى مشية مسرعة بشكل يثير الدهشة، تفصح عن أنه ممارس لألعاب القوى فى وقت الفراغ. وقام فى كابينة التليفون، بأنفاس غير لاهثة، بل مسرعًا، وبلا تردد بقلب حافظة نقوده السوداء على النضد الصغير، ارتدت بعض قطع النقود من على دليل التليفون، وتدحرجت على الأرض، فالتقطها. وقرر بعد التردد لوهلة، أن يلقى فى أول الأمر بقطع الجروشن[1]، والإبقاء على قطع النقود كبيرة القيمة؛ دس السبع

(١) قطعة عملة معدنية صغيرة القيمة؛ في اللغة الدارجة فيما مضي ١٠جروشن = مارك. (المترجم)

قطع جروشن، التى انتقاها، واحدة بعد الأخرى، فى الفتحة المخصصة لقطع النقود من هذه القيمة، ولاحظ بأسى موجع، كيف تجمعت قطع نقوده واحدة تلو الأخرى فى المجرى البينى المائل للجهاز الداخلى؛ ذكرته هذه الواقعة بواقعة مماثلة فى ماكينات القمار تلك، التى كان يطلق عليها اسم «باجازو» والتى لعب عليها مرات عديدة فى شبابه (خارقًا للحظر، لأنها كان يغلب وجودها فى حانات، كان ارتيادها محظورًا عليه)؛ ألقى قطعتى جروشن، سقطتا ـ ابتسم عندما تذكر كلمة سقوط ـ، ثم عاود بإلقاء قطعة، لاقت توفيقًا هذه المرة، أدار أربعة أرقام كود، ثم ستة أرقام أخرى، وجمع، أثناء انتظاره لصوت سكرتيرة جرلبر، قطع العملة الأكبر بيده اليمنى، وأعادها إلى حافظة نقوده الموضوعة أمامه مفتوحة، وفعل نفس الشىء بقطع النقود فئة الخمسة بفينيكات، وبدأ فى تكويم قطع النقود المتبقية التى يمكن استخدامها، ماركا وخمسون بفينيكا، عندما أجاب فى النهاية الصوت المنتظر لفتاة شابة «هاللو»، فقال باندفاع، وبسرعة المتآمرين، «أنا برجنولته»؛ انسد فم الفتاة، بحيث صارت كلمة «لحظة» صوتًا مؤلمًا، يمكن فقط سماع «لح» منها، صدرت لبرجنولته مبتورة؛ أعلن صوت رجالى عن اسم جرلبر وأزال الشكل الرسمى النكد بمجرد أن ذكر برجنولته اسمه مرة ثانية.

«اتفضل اتكلم!»

قال برجنولته: «حسنًا، الأمور تسير ببطء إلى حد ما، لكن بشكل جيد، أقصد بذلك، بمفهومك.»

«وهو بلا شك أيضًا، كما آمل، مفهومك.»

«أمر مسلم به. ولا جريدة، الصبغة المحلية المعتادة، التى تجلب لشتولفوس الطيب البهجة والقلق على السواء؛ بشكل إجمالى: لا خطورة!»

«والشخص الجديد؟»

«متحمس بعض الشىء، ومضطرب أيضًا، لأنه غريب عن المكان - تصرف من وقت لآخر بحمق -، واستطاع أيضًا لفترات قصيرة التحلى برزانة لائقة. لا بسبب خطئه فى أمور موضوعية، بل لأنه، وهو ما كان يجب تلافيه، أقحم فى الأمر عوامل سياسية كثيرة، أقصد : قانونية دستورية.»

«وهيرميس؟»

«ممتاز. يخفى ديماجوجية المحامين الحتمية بمهارة وراء لكنته الخاصة بمنطقة الراين ووراء توقير لا ينقطع لشتولفوس والشهود. وينجرف من وقت لآخر فى سفسطة. الاختلاف بين حركتى الفتح والكسر لن ينقذ موكليه على أية حال."

«ماذا تقصد بذلك؟»

«أمر معقد. سأشرحه لك فى المساء.»

«ماذا ترى، هل أدفع شتولفوس...؟»

«تقصد تدفعه قليلاً للتعجيل - توخى الحرص. هو رائع فى

حقيقة الأمر ـ لكن إذا ما ترك الأحد عشر شاهدًا الباقين يسهبون فى الحديث هكذا، سيحتاج لأربعة أيام.»

«حسنًا ـ أرجو أن يطول بقاؤك مساء اليوم.»

«كيف تسير قضية شيفين؟»

«آه، لا جديد ـ يعترف بتلذذ، مثل الاثنين جرول.»

«اعترافهما لا ينطوى على تلذذ.»

«على ماذا إذاً؟»

«آه، على لا مبالة مثيرة فى الحقيقة.»

«جميل ـ أحكى مساء اليوم ـ إلى اللقاء.»

«إلى اللقاء.»

جرف برجنولته بقية عملاته المعدنية من فوق حافة النضد لإعادتها إلى حافظة نقوده، تملكه الفزع، عندما صدر صوت مرتفع لقعقعة قطعتين من السبعة جروشات فى طريق عودتهما من المجرى المائل إلى قلابة العملات لحظة وضعه للسماعة، أخذ هاتين القطعتين، غادر الكابينة، ومشى ببطء حول الكنيسة فى اتجاه الشارع الرئيسى لبيرجلار، حيث اكتشف بعد بحث لم يطل أفضل محل نصحه البعض به فى هذا المكان، مطعم شرفات نهر الدور. أحس بشهية قوية، زاد من شدتها فرصة الأكل على الحساب، التى نادرًا ما تتاح له. كان قد تم ترك بعض الموائد البيضاء منتصبة فى

الشرفة بالخارج على نهر الدور على أمل أن يكون الخريف مشمسًا؛ كانت الموائد مغطاة بباكورة أوراق الخريف، ألصقتها أمطار لزجة. كان برجنولته أول نزلاء وقت الظهيرة؛ انتشر فى قاعة المطعم الهادئة، ذات الأرضية المغطاة بألواح خشبية داكنة، دفء مريح لمدفئة من طراز قديم، بدا له كعلامة على الضيافة الواعية بالتقاليد. من بين حوالى العشرين مائدة كانت خمس عشرة معدة لطعام الغداء؛ على كل مائدة وردة يانعة فى زهرية نحيلة. سار برجنولته، بعد أن خلع المعطف والقبعة والتلفيحة، يفرك يديه متجهًا إلى مائدة مجاورة لشباك، تتيح إطلالة على نهر الدور، وهو نهر صغير، تسميته جدولاً تعد إهانة، كان ينساب بين المراعى المخضرة، المنهكة بفعل الخريف حتى محطة توليد كهرباء أبعد؛ كان نهر الدور يدفع بمياه الفيضان؛ هنا، فى السهل، تهدأ ضراوته، ويكون عريضًا وأصفر اللون. داعب برجنولته قطة يميل لونها للاحمرار، كانت تنام على كرسى صغير بجوار المدفأة، والتقط إحدى قطع خشب الزان، التى كانت فى كومة بجانب المدفأة، وراح يتشممها. فوجىء بصاحب المطعم وهو فى هذا الوضع، رجل بدين فى الخمسين، رفع أثناء دخوله معطفه فوق كتفه بالإمعان فى شده من عند موضع طية السترة بعزم. قرر برجنولته، المفزوع تقريبًا، أن يظل محتفظ بقطعة الخشب فى يده بشجاعة، ولم يعد لتشممها الآن مغزى مقنع. قال صاحب المطعم، الذى عقد أزرار معطفه الآن وتناول سيجارة من جديد «نعم، إنها الطبيعة.» قال برجنولته، الذى سُرَ، لاستطاعته إلقاء قطعة الخشب ثانية، ليتوجه فى النهاية إلى مائدته، «نعم.»

تبعه صاحب المطعم على الفور بقائمة الطعام، طلب برجنولته كوبًا من الجعة، وأخرج مفكرته ودون «مهمة إلى بيرجلار: رحلة عودة (د. أ.)[١] ٦,٦٠سـيـارة أجـرة مـحـسك. ـ مـحك[٢]. ٢,٣٠. مـارك ـ تليفون...» تردد هنا، مسرورًا ومندهشًا على السواء من الشيطان الداخلى، الذى كان يوسوس له، أن يكتب بدلاً من ٠,٠٥ ـ ١,٣٠؛ عند تدوين تكلفة السيارة الأجرة وسوس له هذا الشيطان الداخلى، أن يكتب بدلاً من ٢,٣٠ ـ ٣,٢٠ ومع ذلك فى الوقت نفسه شككه نفس هذا القرين الداخلى، أن أجر السيارة الأجرة من الممكن حسابها بسهولة بالغة، لأن المسافة من محطة السكة الحديد إلى المحكمة الرسمية ثابتة إلى حد ما (فى الصباح، عندما قدم له سائق السيارة الأجرة، الذى رجاه أن يحرر له فاتورة، خمسة، ستة ماركات، إذا ما أراد كتابة ثمانية ماركات، احمر وجه برجنولته ورجاه كتابة بيانات صحيحة، بما فى ذلك البقشيش، الذى قدره بجروشن واحد)؛ همس له ذلك القرين الخفى المستقر فى نفسه بأن رسوم التليفون يتعذر حسابها تمامًا، لأنه من غير المقبول أبدًا، أن الآنسة كونراتس، سكرتيرة جرلبر، حسبت مدة المكالمة بساعة لقياس الوقت. كتب المبلغ الحقيقى ٠,٥٠. مارك، وهو يهز رأسه، متأثرًا من الضعف الإنسانى قدر تعجبه منه، ثم كتب بعد ذلك البنود «غداء»، «بقشيشات»، و«نثريات أخرى» تحت بعضها. انتهت دراسة قائمة الطعام، كما كان يعلم مسبقًا، لصالح لذلك المتواكل

(١) درجة أولى. (المترجم).

(٢) من محطة السكة الحديد إلى المحكمة. (المترجم).

المستعصى خلاصه، الكامن أيضًا بداخله، القرين الآخر المستقر فى نفسه، الذى احتفى دائمًا فى غبطة بظهوره. ولأنه كان يتم تقديم آيس كريم الشوكولاتة بالكريمة الطازجة كحلو لأغنى وجبة هذه - كان تقديم الأربعة بسعر بين ٤,٦٠ (لحم منطقة الراين المحمر المنقوع فى الخل) ٨,٥٠ (أقراص البتلو بالهليون، والأناناس، والبطاطس المحمر) - إحدى أكلاته المحببة، فقد استسلم متنهدًا لوساوس هذا المتواكل بداخله. استرق السمع، عندما طرق أذنيه من وراء الطاولة اسما «هنشن» و«شورش»، تنطق بهما سيدة شابة، بدت له عيناها الكبيرتان الحالمتان الرماديتان تلفتان الانتباه كيديها النحيلتين، اللتين كانت تمسح بهما بنعومة على ناقلة للطعام كبيرة، ذات أربعة أدوار، أمكن استخدامها أيضًا كناقلة للفطائر. قال صاحب الحانة مباشرة للسيدة الشابة، لا بتجهم فى الحقيقة، ولا حتى فى استياء، لكن بأثر للامتعاض فى الصوت بنصف ألمانية مخلوطة بلهجة المنطقة ثقيلة النطق: «كم مرة يلزم أن أقول لك، إن هنشن لا يشرب لبنًا فى القهوة - شورش فقط، لكن أنت لا تفكرين إلا فى شورش.» من الواضح أنه كان يلمح بذلك إلى محتوى ترموس جميل، ذى نقوش لونها أحمر فى أسود. نظر فيه، تشممه فى عجلة، قبل أن يحكم إغلاقه. قال، «ها هو»، مد يده تحت الطاولة وأخرج سيجارًا رفيعًا، يوحى بأنه غال، من علبة متوارية، بدت أنها موضوعة هناك للاستخدام الخاص، لأن السيجار الآخر كان موجودًا فى وفرة وتنوع فى الفاترينة الزجاجية. وقال، «أعطه لهنشن.» لف السيجار بعناية فى منشفة ورقية، ودفعه فى علبة

صفيح، ودفع هذه العلبة فى جيب معطف الفتاة وقال: «أعيدى العلبة معك ثانية.»

بشكل لا إرادى نظر برجنولته إلى أثاث المطعم، الذى تبين له الآن فقط جماله المثير للدهشة. بطانات بانوهات الجدار كانت مصنوعة بشكل متقن من الخشب، وتتميز عن بعضها البعض بتنويعات من التحريق الرقيقة؛ على أحد أجزاء الحائط، لا يكاد يمثل واحدًا على عشرين من المساحة الكلية، كان مرسومًا حول لوحة كبيرة، منحوتة على شكل مشهد للحصاد، أشجار الشاى، والبن، والكاكاو فى مراحل مختلفة من الإزهار والنضج - فى مساحة أخرى البابونج والنعناع، ونبات الألفية وزهور الزيزفون. بين البانوهات خزانات نحيلة من خشب أشجار الكريز، مسطحة، لونها بنى فاتح ذو لمعة. أحضر صاحب المطعم الجعة، وضعها أمام برجنولته، وتتبع نظرته، زم شفتيه ممتنًا وقال: «نعم، تحرص متاحف كثيرة على اقتنائه.» عندما سأل برجنولته: «لكنه ليس شغلاً قديمًا، بل حديثًا - من عساه لا يزال يصنع شيئًا كهذا حتى اليوم؟»، أجاب صاحب المطعم مكفهرًا: «فى الحقيقة، الكثيرون تفوت عليهم أمور فى مسألة العنوان هذه.» ثم سأل برجنولته، هل يرغب فى حساء اللحم أم حساء زبدة الهليون، طلب برجنولته حساء اللحم وفكر، أثناء تناوله جرعة وافية من الجعة، هل ربما كان لسؤاله وقع فظ. (قال صاحب المطعم فى المطبخ فيما بعد لزوجته، التى خرجت عن شعورها بسبب القول المفاجىء لابنتها، أنها «استسلمت» لجرول

الابن «وهو رحب بذلك»: «أعرف المدان فى المحاكم من رائحته.»)

كان الجو العام فى حجرة الشهود فى الساعة الأولى مثيرًا بالفعل؛ قام رقيب وعريف قوات الدفاع الألمانية، بالرغم من التنبيه عليهما بحزم بهزة رأس شديدة من رئيسهما، بالاقتراب فى الحال من السيدة زايفرت، وهيئا لها كرسيًا، واستهلا معها حديثًا عن الرقصات الشائعة الآن كموضة؛ وعندما تبين، أن السيدة زايفرت ليست شديدة الولع بالرقص، تحول الرقيب، يسانده فى ذلك العريف، إلى الشرب كموضوع للحوار؛ قال العريف، إنه يفضل كوكتيل بلادى مارى وعليه جرعة فودكا على كل المشروبات الأخرى؛ بضيق، بسبب اضطراب نومها فى ساعة الصباح المبكرة، بذلت السيدة زايفرت جهدًا، للفت نظر الرقيب بصوت خافت، شديد الحزم، إلى أنها تكره من الرجال، من يزاحمونها أو يجذبونها من ملابسها فى وقت مبكر من الصباح، هى لا تحب بالمرة الرجال المتطفلين، وعندما همس لها الرقيب، لم تبد على هذا الحال مطلقًا، وقالت، لكن بصوت لم يعد خافتًا: «الخباز لا يحب الخبز أبدًا، حتى لو كان هدية»، وهو ما لم يفهمه الرقيب، مع أن العريف فهمه، الذى شعر بشكل لا يخلو من الرضا، أن السيدة زايفرت تميل له ـ ولو بشكل نسبى، لأنها استمرت فى إظهار ضيقها له أيضًا. تظاهر بسعة الأفق، التى لاءمته، وأخذ يتحدث عن كوكتيل الجن ـ فيز، والمنهاتن، بينما انحاز الرقيب فى فحولة فظة للجعة وويسكى الذرة، وهو ما جلب له ازدراء السيدة زايفرت، التى تمتمت بأن

النبيذ هو المشروب الأثير الحقيقى. كان العريف رجلاً قليل الحجم، نحيفًا يرتدى نظارة، إلا أنه كان متحدثًا مفوهًا وذا أنف مميز المعالم، الرقيب، رجل ذو أنف قصير، وذقن ضعيف، حاول بلا جدوى، أن يدفعه بنظرته لأن يترك له السيدة زايفرت، وهو ما رفضه العريف بهزة رأس غير مكشوفة وزم متعال لشفتيه. ضمن هذه المجموعة من أفراد قوات الدفاع الألمانية كان الضابط الشاب، رئيس كليهما، رجلاً صغير السن زاد صلعه من بهائه الرجالى ـ كان بشكل جلى مصدر تكدير للسيدة زايفرت؛ امتعض امتعاضًا شديدًا، عندما تم التفوه بكلمة «فودكا». لم يرقه من وقت طويل أن الفودكا بدت وأنها المشروب الموضة؛ تراءى له ـ كما عرض ذلك فى خطاب بهذا الشأن لإحدى قنوات الدعاية التليفزيونية ـ أن خلف موضة الفودكا هذه ودعاية الفودكا يتسلل عدم تفهم وتقليل من خطورة الروس، هؤلاء من يجعلونه يرتاب حتى فى قبعات الفراء الوافدة مع هذه الموضة.

كان كولب القس الكهل مواطن هوسكيرشن يتحدث بصوت خافت مع ابنتيه المباركتين، الصغرى، وهى الأرملة فيرملزكيرشن، والكبرى، حماة جرول، الأرملة لويفن سليلة عائلة لويفن؛ كان ثلاثتهم يتحدثون بصوت خافت عن موضوع، لا يمكن أن يكون فى حقيقة الأمر مثارًا لاهتمام أحد الموجودين غيرهم: أى كلب فى هوسكيرشن كان ينبح فى الليلة الماضية؛ قالت السيدة فيرملزكيرشن، يمكن أن يكون «بلو» لا غيره، كلب الحراسة الخاص بجرابل صاحب المطعم،

فى حين أن السيدة لويفن راهنت على أنه «نورا» الكلب الأجرد لبرجهاوزن، أما القس فافترض بإصرار، أنه كان «بيت» الكلب الكولى الخاص بلويفن صانع العربات؛ أشار بسماحة إلى أنه فى سنه المتقدمة يقضى ليالى كثيرة بلا نوم، ويعرف كل كلاب هوسكيرشن من نباحها، والكلب الكولى الخاص بلويفن صانع العربات كلب رقيق جداً، وذكى، ونشيط، ينبح لأقل صوت؛ ينطلق فى النباح، عندما يفتح، أى القس أحيانًا فى ساعة متأخرة من الليل النافذة، لإطلاق دخان الغليون، على عكس «بلو» كلب الحراسة الخاص بجرابل لا يستيقظ أبدًا، عندما، وهو ما يتكرر حدوثه، يتمشى ليلاً، لتنسم الهواء العليل، فى «قريته النائمة» من سكن القساوسة حتى شجرة الزيزفون ونفس الطريق مرة أخرى ذهابًا وعودة؛ أما فيما يخص كلب برجهاوزن، فهذا ببساطة يخاف أن ينبح، حتى وهو يقظ. الأجمل فى الحقيقة دائمًا هو أصوات الأبقار فى الليل: تنفسها، سعالها، تثاؤبها، وحتى تلك الأصوات، التى يعتبرها إنسان ما بذيئة، قد يكون وقعها وديعًا عند الأبقار، بينما الدجاج...، يمكن فى الحقيقة تحمل الدجاج لأنه يضع بيضًا؛ ومن الأمور الجميلة أيضًا، الاصطدام ليلاً بعصافير نائمة؛ إنها تقبع على شجرة التفاح، خلف شونة جرابل، لا جرابل صاحب المطعم، بل جرابل المزارع، وعلى الأخص الحمام، وهو لا يحبه بالمرة. قالت السيدة فيرملزكيرشن، أصغر كلتا السيدتين، وهى إنسانة قوية ذات عينين سوداوين، إنها لم تكن تعرف أبدًا أن القس يتمشى ليلاً، وهل هى، أى السيدة لويفن كانت تعرف. قالت السيدة لويفن، لا، هى لم

تكن تعرف بذلك؛ فى الحقيقة الناس يعرفون القليل عن بعضهم، وهذه من الأمور المؤسفة، ينبغى أن يعرف الناس أكثر عن بعضهم، أمور الخير أيضًا، لا أمور الشر فقط، وعندئذ احمرت السيدة فيرملزكيرشن الشابة خجلاً؛ فقد كانت تتمتع حقيقة ببعض التعاطف فى القرية، إلا أنها لم تكن تحظى بسمعة طيبة جدًا؛ أدركت إشارة السيدة لويفن هذه، كشىء لم تكن تعنيه بالمرة: كتلميح. قال القس، إنه يعرف الكثير من الأمور الطيبة عن الناس، برغم أنه يتمشى فى القرية فى معظم أوقات الليل، وأيضًا فى أوقات، عادة من يسير فيها أمامه هم الناس الأقل طيبة؛ اشتد احمرار السيدة فيرملزكيرشن خجلاً: فكرة أن القس يكمن أو كان بمقدوره أن يكمن فى القرية ليلاً - بملابسه السوداء كقطة سوداء محتجبة عينياها الممكن رؤيتها من على البعد - لم تبد لها مريحة إلى حد بعيد، لكن أيضًا لم يكن المقصود بملاحظة القس تلميحًا؛ قالت السيدة فيرملزكيرشن، أن قسًا لا يسمع تقريبًا على كرسى الاعتراف سوى الشر، وأنها مندهشة، أنه حَسن الظن بالناس هكذا، وما يسمعه قس على كرسى الاعتراف من شر، يكون عادة مغاليًا فى تقديره؛ «لكن التجول ليلاً هكذا فى القرية، عندما يكون كل شىء هادئا، فقط الحيوانات هائجة قليلاً، حسنًا، هو ببساطة يحب هذا الأمر، وهو متعاطف مع الناس، سواء كانوا طيبين أم أشرارًا؛ ولكى يهدىء السيدة فيرملزكيرشن، وهى التى طفحت حمرة الخجل على أذنيها ووجنتيها الشاحبتين، وضع إحدى يديه على ذراعها وقال، إنه فى الحقيقة ليس هو العنيد، بل إنه الكلب الكولى الخاص بلويفن؛

أذعنت السيدة فيرملزكيرشن باحتمال ذلك. على الرغم من الإشارة على القس، التفضل بعدم التدخين علنية، سحب غليونه من جيب المعطف، وقام بحشوه بتمعن من علبة صفيح مطلية بطلاء أخضر، بها بعض الخدوش، مكتوب عليها، "أقراص شوكولاتة النعناع"، دخن بثبات الغليون المحشى، وفزع، عندما قفز الضابط الشاب، من بدا له أن الفرصة سانحة، للانضمام لإحدى المجموعات الموجودة فى مناقشة، ـ باندفاعة شديدة إلى الموضع بعود ثقاب مشتعل، أمسك به، مثل كل من لا يدخنون، فى موضع قريب جدًا من أنف القس؛ وهو، مذعور، ومنزعج إلى حد ما من هذه الحمية وهذا الاقتراب الخطير لعود الثقاب، نظر حوله مفزوعًا، ونفخ فى عود الثقاب، ونظر إلى الضابط الشاب وقال: «معذرة، أعتقد، قبل قدومك، كنا قد اتفقنا على عدم التدخين.» علت فى الحال تمتمة فى شكل اعتراض ودى، انضمت إليه السيدة لويفن بصوت مرتفع بشكل ملحوظ، وأيضًا هورن الذى كان لا يزال موجودًا حتى هذا الوقت؛ تمتمة، سُمع منها بوضوح، أنه، أى القس، يعتبر استثناءً، أولاً بصفته قسًا، ثانيًا بصفته أكبر الموجودين سنًا فى الحجرة على الإطلاق. اقتنع القس شريطة التناوب فى التدخين من الآن حسب السن، وأحنى رأسه ممتنًا، عندما قام الملازم أول، مبتهجًا، بعدم صده فى هذه المرة، بإشعال عود ثقاب ثان. متثاقلاً، وبإلحاح المتثاقل ذى الأثر المفاجىء غالبًا بدأ الآن الملازم أول، الذى أدخله القس بإشارة يتعذر محاكاتها، أداها بالغليون، فى دائرة نقاش مواطنى هوسكيرشن، بدأ حوارًا بصوت أجش مفاجىء عن مفهوم «اللغة الشعبية»، الذى بدا

له مثيرًا للدهشة بشكل ملحوظ فى أحدث تقارير المجامع الكنسية. ألا يمكن أن يترتب على ذلك ابتذال للغة لها قدسيتها؛ كلتا السيدتين، من كانتا حتى هذه اللحظة تصغيان بدافع اللياقة، نظرتا بترقب إلى قسهما، من كان فكره الثاقب موضع زهوهما، وإن كان دائمًا يتعذر عليهما فهمه أو حسن تقديره؛ قال القس، هل سمع سيادة الضابط مصطلح فولجاتا[1]؛ أحقًا؟ حسنًا، إذاً فهو يعرف، أنها الصياغة واسعة الشيوع، وهو ما يمكن تفسيره بالمبتذل[2]؛ هو، أى القس، يرى بأن، اللغة الشعبية لا يمكن أبدًا أن تكون مبتذلة إلى هذا الحد، وقد بدأ بالفعل، فى ترجمة أناجيل الأحد الشهيرة إلى لهجة هوسكيرشن، التى تختلف اختلافًا جذريًا عن لهجة كيريسكيرشن. نظرت السيدتان إلى بعضهما بزهو. انتصار ثقابة فكر قسهما ملأهما بالفخر. بدا للضابط أن تفسير القس هذا ليس شافيًا بحق، وقال، إنه فكر مليًا فى ألمانية تراتيلية صارمة خاصة لشتيفان جيورجه، بل، فى ألمانية الصفوة، ولم يخجل من التفوه بالكلمة. عند هذه النقطة تلاشى شغف السيدتين بهذا الموضوع، وتراخت لياقتهما، فدستا رأسيهما معًا خلف ظهر القس، الذى، تقدم بعض الشىء للأمام ليزلل لهما هذا، وأخذتا تتحدثان عن حديقتى زهورهما، سألت السيدة لويفن السيدة فيرملزكيرشن، التى كانت معروفة بأنها بستانية ماهرة، هل ينبغى اجتثاث زهور الداليا

(١) Vulgata اسم الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس، واللفظة فى لغتها الأصلية تعنى «الشائع انتشاره».

(٢) اللفظة الواردة فى الأصل Vulgar، ويلاحظ التشابه فى الشكل والمعنى مع Vulga-ta.(المترجم)

الآن أم بعد ذلك من الأرض؛ قالت اجتثاثها الآن يعد مبكرًا، وبعد ذلك ستكون بوادر الصقيع وشيكة. قالت السيدة لويفن إنها لم تفهم هذا، رغم أنها تمتلك الحديقة منذ خمسين عامًا. سألت السيدة لويفن، كيف لها أن تقوم دائمًا بالحفاظ على زهورها يانعة لوقت طويل، فأجابت السيدة فيرملزكيرشن على ذلك بأنها هى نفسها لا تعرف، لا تعرف حقيقة، فهى لا تفعل شيئًا بعينه من أجل ذلك، وهو ما رفضته السيدة لويفن بابتسامة مصطنعة وغمزة عين على أنه «تواضع شديد جدًا»، وقالت إنه سر، وإنها تعى جيدًا أن السيدة فيرملزكيرشن لن تبوح بالسر، وهى نفسها لا تعرف، هل لو كانت تعرف سرًا كهذا، أكانت تبوح به؛ لم تكن ماهرة أبدًا فى الزهور. كان كلا السيدين الآن يتناولان موضوع الدين واللاهوت، وهما ما وصفهما القس بأنهما مجالان مختلفان تمامًا عن بعضهما، وأثار بذلك اعتراض الضابط. فى هذه اللحظة تم توجيه النداء للسيدة زايفرت بالمثول على منصة الشهود كالتالى: «تعالى يا سانيونتى، حانت ساعتك». الآن زمجر الرقيب، الذى كان مسلكه الرجالى منذ وقت قليل مع السيدة زايفرت، كما وصفته هى بالحرف الواحد، «مثيرًا لامتعاضى»، فى وجه العريف بشكل مسموع؛ وهذا ترجل، بقدر ما سمحت الخطوات الثلاث، التى استطاع أن يخطوها، منتقلاً إلى مجموعة الحوار الثالثة، التى كونها جريهن المحاسب القانونى وحامل دبلومة الاقتصاد الوطنى، وهال منفذ أحكام القضاء، وكيرفل مفتش أول المالية (بن الشرطى)، وهورن رئيس الرابطة الذى كان حتى هذه اللحظة لا يزال موجودًا، وإربل مندوب

المبيعات. خمستهم، من كانوا يتحدثون بشكل واضح عن جرول، كانوا بصدد موضوع، تحددت معالمه بتعبير «هيكلة الحرفة من جديد» لجريهن، المتحدث للمجموعة فى هذه اللحظة. أعلن القس، أنه دخن غليونه عن آخره «فى سرعة لا تغتفر بسبب الإمساك عن التدخين لمدة طويلة»، والتالى هو هورن، إلا أنه ليس بمدخن الآن، فبذلك تقع قرعة التدخين حسب معرفته المتواضعة بأعمار الموجودين على هال، لأن التالية فى تقدم العمر بعد هورن، السيدة لويفن، لا تدخن أيضًا. تقبل هال القرعة مبتهجًا، ودس سيجارة فى فمه. نهضت السيدتان، تهامستا عند الباب مع شترك خفير المحكمة، ثم اختفيتا تكتمان قهقهتهما فى أغوار الرواق، الذى كان لا يزال حاضرًا فى ذاكرة أكبر الشهود الموجودين سنًا ـ هال، وكيرفل، وهورن ـ منذ سنوات المدرسة. غير هؤلاء الثلاثة الموضوع بشكل مفاجىء، وبذلك استبعدوا بشكل مؤقت جريهن وإربل، من كانا حديثى السن وغريبين عن المكان، حتى تطرقوا متجاوزين ذكريات المدرسة لموضوع، أتاحته أيضًا مداخلة جريهن: أزمة العشرينيات الاقتصادية.

عندما تم النداء على إربل وهورن بعد ذلك بوقت قصير، سأل العريف، الذى رأى فى جريهن خبيرًا، هل قروض المشروعات الصغيرة والمتوسطة فى دائرة بيرجلار تشهد أيضًا عدم استقرار كبير كما هو الحال فى موطنه؛ فهو من منطقة برجش، ووالده يعمل هناك فى مصرف. تقبل جريهن الموضوع بترحاب، بينما فضل هال

وكيرفل، فى نهاية الأمر، بعد أن تم استدعاء هورن، أن يكون بمقدورهما توحيد «مضمون» شهادتهم عن جرول. نظرا بضيق لا سبيل لإخفائه إلى العريف، الذى كان يتفوه بكلمات مثل عامل التأرجح وسياسة القروض الدوارة بمثل هذه السلاسة كأمر"بلادى مارى" و"منهاتن"، منذ وقت قليل أمام السيدة زايفرت، وانفصلا بعد ذلك عن الاثنين وكونا بذلك مجموعتين كل بذاتها، بأن وقفا عند النافذة واتفقا متهامسين، «على ألا يدفعان لا بيوهان ولا ببيرجلار إلى الأوحال».

عندما تم استدعاء إربل وهورن بعد السيدة زايفرت بوقت قليل، انطلقت تنهيدة الراحة من المجموعات المختلفة، وتنفس الصعداء بشكل خاص الرقيب، من تم توجيه الطلب إليه من رئيسه بنظرات ملحة، بالوقوف عند حلق النافذة. الآراء الأخلاقية للملازم أول، الذى كان يسمى فى السرية بروبرت الورع، كانت غير مستساغة له فى حقيقة الأمر. ثم بعد أن تبين أن استجواب هورن ممتد، كان السؤال الموجه إلى خفير المحكمة شترك، هل يمكن إلغاء ترتيب النداء على الشهود، حيث بمجرد معرفة ذلك، يمكن تناول قهوة على سبيل التغيير، تمت الإجابة على هذا السؤال من شترك بالرفض، لأن عدم الإعلان عن الترتيب من شأنه إعاقة الترتيبات، فاقترح جريهن، الذى كان قد اكتسب فى «اتحاد علماء الاقتصاد الأكاديميين» سمعة كمتحدث، لعبة عروستى، وإذا تعذر الأمر لعبة الرهن؛ قال مبتسمًا ابتسامة ساخرة، إنه حتى على استعداد،

واستسمح عذر كل أصحاب التنشئة غير الدينية الموجودين، طلب مناظرة القس حول كتاب تعليم العقائد شفهيًّا[1]، وهو ما كان رد القس عليه، أنه لا يحفظ هذا الكتاب أبدًا، وأيضًا لم «يجد سبيلاً إلى» داخل رأسه مطلقًا؛ وصفت السيدة لويفن المسنة اقتراح اللعب هذا بأنه «متجاوز للحد»؛ وآزرها الملازم بإيماءة رأس قوية. تجمع الشهود من جديد بعد فترة التوقف القصيرة، التى اتسمت بالفوضى: بدأ الرقيب، والعريف، وهال منفذ الأحكام القضائية بلعب الورق على الحافة الخشبية للنافذة؛ وأخذ جرهين يشاهد: أما الملازم أول، من كان لا يروقه لعب الورق أساسًا، ولا يريد بالمرة فى فرصة كهذه وعلنية عدم إظهار سلطته أمام رؤسائه، انضم من جديد للقس، الذى أراد أن يجرى مع كيرفل، من عمل فى أبرشيته فى وظيفة محاسب شرفى، حوارًا عن وضع أبرشيته المالى؛ خاصة عن العبء الذى تحمله للأموال المستخدمة فى غير أغراضها، التى تم جمعها لجرس، وتم استخدام الجزء الأكبر منها لتمويل انتقال سيدة تدعى فينا شورتس من سكنها، نزحت قبل ست سنوات إلى المدينة الكبيرة المجاورة، وتزوجت هناك من شورتس هذا، الذى هجرها بعد إنجاب الطفل الرابع؛ السيدة فينا شورتس هذه، سليلة عائلة كيرفل، استجابت بعد ذلك لعرق طيش متأصل فيها، ظهر، عندما بدأت فى تَكسُب بعض المال كمضيفة فى ملهى ليلى، لتجنيب أطفالها غائلة الفاقة؛ باختصار: كان لا بد من إعادتها إلى منزل

(١) der Katechismus فى الأصل. (المترجم).

أسرتها فى هوسكيرشن، لأن من عملت عنده، وهو رجل طائش اسمه كللر قد أغواها على «أداء عروض لا تخلو من تعرية جسدها»، فى الملهى، الذى تعمل فيه مضيفة؛ القس، من كان يتحدث هنا بشكل شديد الخصوصية، أحس باقتراب الملازم أول كأمر «لا ينطوى على فضول بالمرة»، كما اعترف فيما بعد، «إلا أن هذا الفتى له أسلوب عجيب فى الفضول». على أية حال: كان القس قد استخدم أموال الجرس إذاً فى غير غرضها، لتمكين السيدة شورتس من الانتقال للإقامة فى موطنها هوسكيرشن (بلا جدوى، كما بدأ الآن فى التحقق، إلا أنه لم يعد مستعداً للاعتراف، لأن السيدة شورتس، بعد اطمئنانها على وجود أطفالها فى رعاية والدتها، كانت تسافر كل مساء بالقطار السريع إلى المدينة الكبيرة المجاورة، لكى، كما تبين، «لا تتعرى»). نشأ هنا سوء فهم صغير، يكاد يكون مضحكًا بسبب التدخل قبل الأوان للملازم أول، ولا يُعفى كيرفل أيضًا من مسئولية التسبب فيه. فهو، أى الملازم أول، كما يقول هو عن نفسه، «رجل استخبارات مفعم بالحماس»، كان يعرف معنى الفعل «تتعرى»[1]، كصياغة لغوية مختلفة لمفهوم شد الأسلاك، وهو تعبير مألوف عند أى جندى استخبارات؛ يعرفه أيضًا كيرفل الثانى حسن الطوية بنفس المعنى وبهذا المعنى فقط، وكلاهما،

(١) فى الأصل فعل strippen فى الألمانية وهو يستخدم بمعنى يؤدى أو تؤدى عروضًا راقصة مع التجرد التدريجى من الملابس، ولكن هينريش بل يربط بين هذا الفعل الذى يعود فى أصله إلى فعل Strip فى اللغة الإنجليزية وكلمة Strippe الألمانية بمعنى حبل أو شريط وفى نفس الوقت تحمل معنى جانبيًا ساخرًا وهو سلك أو وصلة التليفون، ويمكن من نفس الكلمة اشتقاق فعل يؤدى معنى آخر غير الرقص المقصود. (المترجم).

كيرفل والملازم أول، كانا مصرين لوهلة على تصور أن السيدة شورتس كانت تعمل فى وردية ليلية على سويتش فى شركة تليفونات خاصة: تصور غريب، خاصة أن العمل الليلى غير واضح لهما فى الموضوع. لاح للملازم أول فى الحال شبهة، عمل استخبارى لـ«سلطة أجنبية"، احتدمت الأفكار فى رأس كيرفل من كل جانب، فى أساس الأمر بسبب شهادته الوشيكة فى موضوع جرول، وأيضًا لأن القس وضع نفسه باستخدام أموال الجرس فى غير غرضها فى ورطة، هو نفسه لا يعرف حجمها حتى الآن؛ وفى النهاية صار الأمر بالنسبة للقس العجوز، الذى لم يدرك، سبب إصرار الرجلين على الحديث عن التليفون، بالغ الغباء وقال: «لكنها ليست فتاة تليفون[١] أيها السادة، إنها ترقص مع خلع ملابسها فقط.» وأضاف بذلك التهكم، الذى جعله ضيفًا محببًا فى كل محال إقامة القساوسة: «أتوقع لها بالفعل، أن تقوم مع مرور الوقت بالأمرين: ترقص مع خلع ملابسها وتبيع الهوى بالتليفون.» فى اضطراب بالغ نظر كيرفل الثانى والملازم أول إلى القس؛ بدأ نوع من الميل بين كليهما يتخذ طريقه، لأنهما اعتبرا كلمة «بائعة هوى بالتليفون» المنطوقة بجمود مشاعر من فم قس غريبة حقًا، ولم يتبين كلاهما حتى الآن بشكل واف المغزى العميق الذى يؤديه فعل « ترقص مع خلع ملابسها» فى سياق لا أخلاقى واضح. القس، الذى فقد صوته كل فكاهة، قال للملازم أول، إنه يرى أنه من الضرورى معرفة ألفاظ مبتذلة؛ أضاف بخلاف

---

(١) Callgirl بائعة هوى لها رقم تليفون لاستدعائها. (المترجم)

هـذا، أنه عـرف فـى ذلك الـوقت أن الـسـيـدة شـورتس، من تـأثـر جدًا بمستقبلها الأخلاقى، تسعى فى المدينة الكبيرة المجاورة وراء هذه المهنة اللعينة فى ملهى ليلى «يعج بأفراد من قوات الدفاع الألمانية ونواب من الحزبين المسيحى الديمقراطى والمسيحى الاشتراكى»، ممن لا يتورعون عن «التشدق فى أماكن أخرى بأنهم حماة الأخلاق المسيحية.» بانفعال ظاهر أجاب الملازم أول، لا يمكن ولا يجوز تعميم «ملاحظات فردية» كهذه. الجزء الأكبر من ضباط قوات الدفاع الألمانية بخير ويسعون لنشر الفضيلة، للأسف ـ مشيرًا بنظرة إلى الكرسى، الذى كانت تجلس عليه السيدة زايفرت، وتجلس عليه الآن الأرملة فيرملزكيرشن ـ للأسف دون إدراك النجاح دائمًا، لأن الأخلاق ليست من الأمور محل أو الواقعة فى نطاق الأوامر العسكرية. رمقه القس بنظرة جادة وقال: «من أخشابكم يتم فى أماكن أخرى نحت أفضل الشيوعيين»، وهى ملاحظة، بدت أنها حثت الملازم أول، لا على المعارضة، كما كان متوقعًا، بل على التفكير العميق.

كان يتحدث عن واقعة شورتس، بهمس أكثر خفوتًا من الرجال الثلاثة، أيضًا السيدة فيرملزكيرشن والسيدة لويفن، حيث كانت مما يثير الدهشة السيدة الشابة فيرملزكيرشن متشددة للغاية فى رأيها عن السيدة شورتس أكثر من السيدة لويفن المسنة، التى أنحت باللائمة أساسًا على السيد شورتس، من هجرها، فى حين أن السيدة فيرملزكيرشن، معترفة، بأنها هى نفسها «إنسانة شهوانية

وطائشة أحيانًا»، كانت ترى الفُجر الفاضح للسيدة شورتس فى «فعل شىء من هذا القبيل لأجل المال». اعترضت السيدة لويفن على ذلك، وقالت، النسوة، اللواتى «يفعلن شيئًا من هذا القبيل لأجل المال»، هن فى حقيقة الأمر أقل خطرًا، لأنهن «يقدمن الخدمة» للرجال لا أكثر، بينما النسوة، اللواتى لا يتقاضين أجرًا، فهن أشد خطرًا، لأنهن «يوقعن الرجال فى حبائلهن»؛ قالت السيدة فيرملزكيرشن، من أخذت الأمر برمته بمحمل شخصى، إنها للآن لم توقع برجل فى حبائلها ـ فقد تركت كل لحال سبيله. إلا أنه عند هذه النقطة، حيث تصاعد التوتر فى المجموعات الثلاث مقتربًا من نقطة الاشتعال ـ أيضًا فى مجموعة لعب الورق، حيث كان العريف يطرقع على الحافة الخشبية للنافذة فى سلسلة من ضربات الحظ ولدًا بعد الآخر، فى حين أن الرقيب انكسر إزاء ذلك، لدرجة أنه لم يتحصل إلا على صفر ـ ، عند هذه النقطة فتح شترك خفير المحكمة الباب باندفاع، وأعلن راحة الظهيرة لمدة نصف ساعة.

قبل أن يتوجه إلى طعام الغداء فى منزله، طلب شتولفوس المدعى العام والدفاع لمناقشة موجزة فى الدور العلوى من المبنى، حيث دعاهما فى الرواق لاجتماع فى فترة التوقف لمناقشة أمور تقنية فى إدارة الجلسة بسبب الشهود الجدد المتواجدين إلى الآن. قال، هل ثمة أمل، فى استجواب الشهود بشكل أسرع، والكف عن توجيه أسئلة غير موضوعية، لتعجيل سير الجلسة وسماع شهادة كل الجدد بقدر الإمكان فى فترة ما بعد الظهيرة، أو هل من المناسب

صرف البعض - القس المسن كولب على سبيل المثال والسيدة التى فى نفس عمره تقريباً لويفن - فى فترة ما بعد الظهيرة، واستدعائهما نهار الغد. قال الدفاع بعد فترة تردد قصيرة، إنه بمقدوره قصر استجواب العريف، والرقيب، والسيدة لويفن المسنة، والقس، فيما يعنيه، على عشر دقائق لكل، أما بالنسبة للملازم أول مع ذلك، حيث إن شهادته تمس ركنًا أساسيًّا فى المحاكمة - فهو ربما يحتاج لنصف ساعة بمفرده، بينما يمكن على عكس ذلك إنهاء جريهن وكيرفل الثانى تقريبًا فى ثلث ساعة لكل، لأن شهادتهما مجرد أخذ رأى. وبهذا يمكن، فيما يخصه، إنهاء جلسة المحاكمة لليوم، وربما الدفاع غدًا - وهو على أية حال لا يغفل الوقت الذى ستحتاجه الشاهدة فيرملزكيرشن، التى استدعاها زميله. قال المدعى العام، فى غير اندفاع وحدة بالمرة، كعادته فى الظهور أحيانًا فى قاعة المحاكمة، بل بمرح، إنه يحتاج السيدة فيرملزكيرشن لعشر دقائق على الأكثر، وسأل هل ليس بمقدور الزميل المبجل الإيجاز فى استجواب الملازم أول، لأن استجوابه يعنى فى حقيقة الأمر تسييسًا غير ضرورى للواقعة، التى تعتبر فى الواقع منتهية، وهو ما رد عليه الدفاع، بأنه، ليس هو، بل الزميل الموقر هو من يسيس الواقعة، التى لا يتجاوز «مضمونها الفكرى فى الأساس عقلية المهرب أو المنتهك»، حيث استرعى انتباهه بالإضافة لذلك، أنه استدعى لبعد الظهيرة شاهدًا آخر، تاجر قطع فنية يسمى موتريك من المدينة الكبيرة المجاورة. تم أيضًا استدعاء بورين أستاذ الفنون كخبير للحضور فى وقت متأخر بعد الظهيرة. قال الرئيس فى تعجل، «حسنًا إذاً، لن

نصرف أحدًا، إلا أننا سنراعى السادة المسنين شيئًا ما، إذا سمحتم سيادتكم، باستقبالهم أولاً.» ساعده كل من المحامين الصغيرين فى ارتداء المعطف، الذى كان معلقًا فى الرواق فى ذلك المشجب عتيق الطراز، الذى كان يعلق عليه فيما مضى أفراد الطبقة الراقية قباعاتهم - أخذ كل واحد منهما كتفًا، لمساعدة الرجل المتقدم فى العمر فى ارتداء المعطف، وعلق المحامى رداء القاضى على المشجب الذى صار فارغًا.

قسم الشهود والحاضرون أنفسهم الآن طبقًا لوضعهم الاجتماعى على مطاعم بيرجلار المتاحة. فى حين أرجأ السادة بالدور الأعلى جلسة مشاوراتهم القصيرة، وقامت السيدة هيرميس بالتعرف على السيدة كوجل - إيجر، واقترحت عليها، أن تتوجه معها إلى مطعم «شرفات نهر الدور»؛ كانت السيدة كوجل - إيجر الخجولة مولودة فى بيرجلار، ولم تستجب فقط لأمنية زوجها فى الانتقال، بل أيضًا حثته عليه بسبب عم ثرى مسن يدعى شورف، أرادها هى «حبيبة قلبه» إلى جواره. كانت السيدة هيرميس تعرف خلفيات نقل آل كوجل - إيجر، وتحققت أيضًا من الخجل، التى بدأت «جرابلز مارليز» - هذا هو اسمها قبل الزواج - تتحرك به فى مسقط رأسها؛ وبالإضافة إلى تحدثها بلكنة بافارية، كانت تتحدث بصوت منخفض عن المدينة البافارية الصغيرة الكائنة هناك بعيدًا خلف الغابات، التى كان اسمها فى لغة الزوجين كوجل - إيجر «هذا العش شرق نورنبرج». بمودة بالغة ألقت كما يقال السيدة هيرميس بنفسها على

السيدة كوجل - إيجر وتأبطتها بعد خمسين خطوة، وعرفت بعد ستين خطوة أن السيد كوجل- إيجر كان كاثوليكيًّا أيضًا (فقد كان يوجد فى بافاريا إذا صدق حدسها أحزاب بروتستانتية!) وبدأت فى التحدث بطلاقة لسان أهل منطقة الراين عن مخططاتها لحفل نيكولاوس الراقص لرابطة الأكاديميين الكاثوليك، التى عقدت عزمها فيه على «تحقيق انطلاقة سريعة نحو الحداثة»، وبشكل خاص، من جهة أخرى بالنسبة للرقصات التى يعتبر أداؤها هناك ممكنًا. وهى تخطط أيضًا لـ«ندوة مفتوحة عن مشاكل جنسية، يندرج فيها موضوع الحبوب». لم يكد يتم قطع طريق العودة بكامله إلى مطعم «شرفات نهر الدور» الذى يستغرق بالكاد خمس دقائق، حتى عرفت، كم مترًا مربعًا مساحة مسطح المسكن الذى انتقل إليه آل كوجل-إيجر فى هوسكيرشن؛ وأنهم وقد وقعوا «بالطبع» فى أيدى أغلى نقاشى الدائرة، دفعوا إيجارًا باهظًا جدًا، لذلك سعوا - وهو وما بدا لها أمر قاطع - للحاق بأطيب قس يمكن أن يكون فى المحافظة بأكملها؛ وبالطبع - اتضح هذا الموضوع بسرعة، عندما ذكر آل كوجل - إيجر، مدى الصعوبة التى يلاقيها أطفالهما بسبب لكنتهم البافارية -، ويمكن بالطبع الحديث لساعات بطولها، وأيام بطولها عن مآثر ومثالب الراهبات فى رياض الأطفال. السيدة كوجل-إيجر الأقل حجمًا، والأصغر عمرًا بسنوات قليلة، شعرت كما اعترف زوجها فيما بعد بأنها "فوجئت من ناحية، وانبهرت من ناحية أخرى بهذه السرعة"، التى تم بها جذبها إلى داخل حياة الأكاديميين الكاثوليك بدائرة بيرجلار. وصلوا إلى مطعم شرفات

نهر الدور، فوجدوا برجنولته، الذى كان لتوه يتناول آيس كريم الشوكولاتة بدفع الملعقة لفمه بأسلوب ممعن فى الكهولة بشكل مثير للدهشة ـ عندئذ قالت السيدة هيرميس، هناك «فى بيرجلار عفانة كثيرة تحتاج للتهوية» ونسمات حرية يجب السماح بهبوبها «على زيجات كاثوليكية بعينها».

طلبت السيدة هيرميس لمشروبى مارتينى بالثلج أضفى بعض الهدوء على السيدة كوجل ـ إيجر، فقد كانت تخشى من مشروب أشد لزوعة، رغم أنها شعرت فى الوقت نفسه بالتناقض الملحوظ بين اندفاع السيدة هيرميس الباعث للارتياح مع قسمات وجهها الأشقر الصبوح المستدير، التى بحثت فيه، كما أكدت، بلا جدوى عن مكر؛ ولاحظت أيضًا بأسارير منفرجة أنه لم يتم استغلال المارتينى، فى سرعة رفع التكلف فى مخاطبتها؛ جعلت السيدة هيرميس الأمر لا يتجاوز سيادتك ومارليز، بأن رفعت الكوب، وقالت «نخب عودة سيادتك بالسلامة، يا مارليز»! ككلمة ترحيب. دار ببال السيدة كوجل ـ إيجر، وهى تطالع قائمة الطعام دون قراءتها حقيقة، أليست السيدة هيرميس هى ذلك الشىء الأشقر سيىء السمعة بشكل مفعم بالحيوية، ذلك الشىء، الذى كان فى الصف الرابع، عندما التحقت بالصف الثانى بمدرسة بيرجلار: بنت شقراء لا ينقطع ضحكها، بدينة، مرحة، حفظتها فى الذاكرة على أنها «بشكل ما تقضم باستمرار فى تفاحة». كان والدها ـ ماذا كان اسمه أيضًا؟ ـ يدير تجارة رائجة فى السماد، والفحم، والتقاوى ليست باستمرار

مشروعة تمامًا. قد تلم بكل هذا الآن ربما فى ربع ساعة على الأقل.

وصل بعد ذلك بوقت وجيز من وصفتهم السيدة هيرميس بصوت غير خافت تمامًا بجماعة «التقدميين بشكل ليبرالى»: د. جريهن، والسيدة شورف ـ كريدل، وأوصم محرر المحضر؛ غمزة خاطفة من السيدة شورف ـ كريدل، انحناءتان تلميحًا من جريهن وأوصم، اللذين جلسا إلى المائدة بجوار برجنولته، شاخصان بنظرتهما إلى التدفق المخلوط بالطمى لنهر الدور، الذى وصفته السيدة هيرميس لا كنهر، بل كعصيدة متدفقة.

بعد نكتة صارخة انطلقت توًا دخلت كوجل ـ إيجر وهيرميس متأبطتين بعضهما فى نوبة ضحك مدوٍّ إلى المطعم؛ قدم السيد هيرميس نفسه للسيدة كوجل ـ إيجر «على أنه أحد أبناء خالتها من بعيد»، ينحدر عن طريق جدته لأمه من نسل هال بمنطقة أعالى بيرجلار، التى كانت خالة لشورف عمها الثرى، أى خال كوجل ـ إيجر، وعن طريقه أيضًا تصادف أن تكون على صلة قرابة بتلك السيدة الجالسة هناك، التى ـ كما أكد هيرميس بضحكة مكتومة لا تخلو تمامًا من الخبث ـ من الواجب أو اللائق معانقتها حالاً بصفتها «مارجوت ابنة خالتها الحبيبة»، وصعوبة الأمر فى جملته يكمن فى كيفية تحقيق انسجام مع سيدة راقية، معانتها الوحيدة هى تحقيق الملل والإفضاء غالبًا بشكل غير موفق أو بلا حذق عن عذاب ضميرها من جراء ذلك. سيل الكلام الصادر من هيرميس، الذى لا يقل مستوى عن زوجته، كان له وقع «فرنسى تقريبًا» على

السيدة كوجل - إيجر. قال هيرميس إنه فى حقيقة الأمر لم يتبق له شىء بالمرة، ولا حتى أقل القليل من خصائص أهل مسقط رأسه، ولكن بمقدوره أن ينصح بكباب حلة أهل منطقة الراين بالخل؛ كل ما سيرد هنا على المائدة سيكون رائعًا؛ فالتوفيق يحالف صاحبة المطعم، السيدة شميتس حقيقة فى إعداد وجبة بسيطة كبيوريه البطاطس، ويسمونه هنا تارت البطاطس، حقيقة، حتى أثقل أنواع اليخنى برعت فى جعله أشهى وجبة (بهذا التكهن أوقع هيرميس نفسه فى مطب؛ فى هذا اليوم، اليوم الأول، مع أنه ليس اليوم الوحيد، فقد تخلى التوفيق عن السيدة شميتس فى كل شىء، بقدر ما الأمر الذى باحت به ابنتها إيفا - أنها توجهت لجرول الابن وقد قام باستقبالها - قد أصابها فى طبيعتها، وأخلاقياتها، وكيانها، حيث سبب لها أشد الفزع تصور ميلاد أول أحفادها فى السجن؛ التكهن الخاطىء أكسب هيرميس عند السيدة كوجل - إيجر سمعة أزلية ولصيقة بأنه منجم دجال أو - وهو ما أحسه هيرميس أشد إيلامًا - متواضع المعرفة بفن الطهى). هنا حالف التوفيق السيدة كوجل - إيجر فى أول اقتحام لتيار الكلام المتدفق اللطيف لآل هيرميس، بمداخلتها بالقول، إعداد يخنى جيد طيب المذاق ليس بالأمر الهين، وتارت البطاطس، شىء بالغ الرقة، حاولت تناوله - متذكرة بعاطفة رقيقة أمتع مواقف مسقط رأسها - بلا جدوى فى مطعم «عش شرق نورنبرج». واسترسلت مستغلة الثغرة قائلة إنها تود أن تعرف، هل هيرميس متكفل فعلاً بقضية جرول الغريبة هذه، كما يباشرها؛ فهى فى الحقيقة زوجة لرجل يشغل وظيفة فى سلك

القضاء، ليس لديه طموح دخول مضمار العمل الحر، لكن... إلا أن هيرميس احتل ثانية الثغرة وحكى لها عن تقاليد عائلته: كيف أن هيرميس جده الأعلى، الذى كان يضجره إرجاع الفضل له فى كل شىء، والذى شارك فى غرس شجرة الحرية فى بيرجلار، لم يكن فى حقيقة الأمر يحب نابليون، ويقدر أقل البروسيين، من لم يستحدثوا سوى عساكر الشرطة، والقوانين، والضرائب.

فى هذه الأثناء وجهت السيدة هيرميس إلى السيد كوجل - إيجر عبارة - «لا يمكننى السكوت على هذا» - تعليقًا على إخفاقه مع السيدة زايفرت وتنبأت له بنفس الشىء مع السيدة فيرملزكيرشن؛ ضحك كوجل - إيجر، توقف عن الضحك، بُهت من أمر السيدة زايفرت وأضاف، لم تكن المفاجأة بالنسبة له هى إقامة السيدة زايفرت فى مدينة صغيرة مثل بيرجلار، بل قدرتها على الصمود، يقصد ماديًّا، حيث الفرص كثيرة ومستورة فى المدينة الكبيرة الواقعة على مقربة بالنسبة لشخوص من مهنتها وروادها المتوقعين. قالت السيدة هيرميس، لابد وأنه على علم من تاريخ القضاء بحد المقصلة؛ وهو يطابق حد العهر، الذى هو بدوره حد عقائدى أيضًا، وحد المقصلة، من وجهة النظر التاريخية القضائية حد مدونة نابليون القانونية، وهو أحدث من «حد الهوى» الأشد قدمًا، الذى يمعن فى التأكيد بشكل مباشر على التقنية الحرفية كتأكيد الآخر بشكل غير مباشر على التحريض والهمجية. لكن ما بدا لها أكثر أهمية فى هذه اللحظة: بمقدوره، إذا أراد، تناول هذا كمحاولة

لممارسة تأثير لصالح موكلى زوجها - لكن لم يكن هذا هو الأمر: بمقدوره أن يجنب نفسه تعرية السيدة فيرملزكيرشن، ويستجوبها على أية حال لا فى أمور تمس شخصها، بل تخص قضية جرول فحسب. وعندما سأل كوجل - إيجر هل السيدة فيرملزكيرشن «واحدة منهم أيضًا»، قالت السيدة هيرميس، لا، هى ليست «واحدة منهم» بالضبط، ليست عاهرة، بل آثمة، «بمعنى أنها واحدة، ممن كان يتم ملاحقتهن كمشعوذة منذ ثلاث مائة عام»، وإنه أمر يسترعى الانتباه حقيقة فى السيدة فيرملزكيرشن، من تبقى زهور حديقتها غالبًا فى أوج ازدهارها متجاوزة حدود الزمان، إنها فى الحقيقة شخصية مستنيرة، لكن تظهر فى السيدة فيرملزكيرشن أمور غموضها، تقريبًا كما لو كانت عبادة الكلتيين لكبيرتهم تعاود الظهور فيها من جديد. قالت السيدة كوجل - إيجر لكنها ليست جميلة بالمرة، وهو ما أضحك السيدة هيرميس وقالت فى أيامنا هذه ثلاثًا وتسعين هن الجميلات من بين مائة امرأة وفتاة - والأمر لا يتوقف على هذا، فهو، أى المدعى العام، عليه أن يرى مرة عينى وكفى السيدة فيرملزكيرشن، فسيعرف عندئذ، ما هى الإلهة؛ قالت، وهى تتناول الآن بشهية مفتوحة حساء نبات الهليون، لا، عليه أن يترك أصابع السيدة فيرملزكيرشن، بالطبع كانت على علاقة مع جرول الأب - لكن إلى ماذا سيتوصل، إذا ما تبين ذلك؟

فى عنايته بجروح رقبتها البسيطة، بدا الشاب أوصم محرر المحضر للسيدة شورف - كريدل، «شبقًا تقريبًا» لأنه بالفعل متطفل

إلى حد ما، كما روت فيما بعد، (نهض عدة مرات، ووقف أمامها وشاهد وهو يهز رأسه البثرة الحمراء الصغيرة، التى لم تكن تسبب أى ألم للسيدة شورف ـ كريدل) ـ حولت السيدة شورف ـ كريدل دفة الحديث إلى واقعة جرول، التى كانت تعتبره «مخيفًا». قال أوصم، حقًا، تافه مخيف، وأنه فى مثل هذه الحالات ـ التى يعترف فيها المتهمون ولا يتمسكون بإجراء محاكمة ـ يشرع فى محاكمات سريعة؛ فى الحقيقة مغزى الفعل ليس إجراميًا، بل اجتماعيًا، وهو ما يعتبره شخصيًا أخطر للغاية من الفعل «الإجرامى بشكل خالص». قال جريهن، إنه ليس بمقدوره بالطبع توقع أقواله، لكن «هذا الجرول» ـ هو واحد يكاد يثير إعجابه؛ عقلية مهولة تتوارى خلفه. قال أوصم إنه لا يفهم، لماذا لم يرسل على الأقل هولفيج مراسل صحفى، ليحرر مقالاً صحفيًا عن هذه القضية الغريبة، التى يعتبرها بمثابة حفل وداع جميل لشتولفوس الموقر وكيرفل الموقر أيضًا. قال، «إنه فى الأساس حفل عمل»، ثم نهض مرة أخرى مضطربًا، ليشاهد بقرقعة مبهمة من لسانه البقعة الحمراء، الصغيرة بحجم رأس عود الكبريت الموجودة على الرقبة الجميلة للسيدة شورف ـ كريدل، التى قال عنها،إنها ستذكرها وستذكر كل عشاقها بقضية جرول. تسببت مجموعة من موظفى وسكرتيرات إدارة الدائرة، ممن يتناولون طعام غدائهم فى مطعم شرفات نهر الدور على شكل شرائح وظيفية، فى اضطراب تسبب فى ضرورة خفض الصوت. فكر برجنولته مليًا وأمامه فنجان قهوة فيما إذا كانت لفظة «بقشيش»، من منظور مصروفات القضاء الجانبية، ذات

مدلول عائم أم موضوعى؛ ظن بالطبع أنه موضوعى - وما عليه أن يعترف به هو: أنه لم يكن على دراية واضحة باللوائح وثيقة الصلة بالموضوع؛ وبتناول الأمر بشكل نظرى مجرد، فإن اهتمامه انصب على قضية ما إذا كان بمقدور الدولة إجازة «السخاء» فى أمر البقشيش؛ ربما كان هذا الأمر، كما اعتقد وهو يتنهد، مسألة درجات، ومن الطبيعى جاز لرئيس منح بقشيش أكثر من مجلس محكمة رسمية: وربما تبين فى تفصيلات كهذه بقايا من المفهوم القديم للفظة رأفة، التى أمكن فهمها بمعناها الشائع فى اقترانها بالمقدرة: كلما زادت المقدرة، زادت الرأفة، وزاد السخاء.

بلا جدوى حاول الرقيب بيهلاو، اقتحام الملهى الليلى للسيدة زايفرت، الذى اكتشفه باسم «المصباح الأحمر» فى شارع جانبى؛ بعد أن سيطر على ارتباكه المعتاد أمام الباب، وضغط على الجرس، فُتحت نافذة بالدور الأول، ظهر فيها شخص يوحى إلى حد ما بالفظاظة، يعرى شعر صدره الأسود بشكل غير لائق، هدده، إن لم يختف فورًا سيقيم ضده دعوى بانتهاك أمن منزل؛ من صوت الشخص كان يمكن بوضوح تبين أنه أجنبى، ربما كان أمريكيًا؛ وواضح أيضًا فى الخلفية صوت السيدة زايفرت، التى كانت تتحدث عن «زبون الست الوضيع هذا». أذعن بيهلاو مهزومًا وعاد إلى محل سمعته أقل سوءًا، وأيضًا أرخص، شاهد العريف كوتكا يدخله. كان اسم المحل «دورق الجعة»، لم يكن يقدم وجبة طعام الغداء بشكل معتاد، بل طعام يعد على عجل، دسم ويسكت الجوع: حساء مسبك

من لحم البتلو المتبل، سلطة بطاطس، سجق، عصيدة لحم، وهامبورجر؛ إنه بمثابة حانة لسائقى الشاحنات والعمال، كانت ماكينة الموسيقى والألعاب تقدم فيها تسلية، طالما تطلع إليها رواد شرفات نهر الدور بلا جدوى. هناك وجد بيهلاو على البار العريف فى حوار ساخن مع سائقى شاحنات؛ كانا منبهرين ويغمرهما أيضًا ارتياب شديد، لأنه كان على دراية مفصلة بأنواع السيارات، ومسافات دفع الفرامل، ومواعيد التشحيم، وحِمل دولاب العجلات، ومواعيد الفحص؛ ود الرقيب ألا يكون قريبًا من العريف طيلة النهار بسبب محاولات فاشلة متعددة فى الصباح كان هو المتسبب فيها، جلس على مقعد بار فى الركن المقابل، وطلب لنفسه ثلاث قطع خبز بلحم الخنزير المفرى المتبل مع البصل إلى جانب ـ وهو ما كان مفاجأة له ولصاحب الحانة، الذى تعرف عليه على الفور كزبون جعة ـ ربع نبيذ؛ جاره على البار، مندوب مبيعات فى منتصف العمر نظرته شاردة بشكل كئيب، كان يدير دورق الجعة فى تراخ بإحدى يديه، ويدفع بالأخرى على صلعته حزينًا، سأله، هل لا يزال الوضع فى الجيش على حاله كأيامه، أى أيام مندوب المبيعات؛ قال الرقيب دون أن يتردد طويلاً: «ربما على حاله»، واستهل حديثًا فى موضوعه الأثير: تفاوت المرتبات داخل صفوف قوات حلف شمال الأطلنطى؛ هذا يثير شعوًرا بالمرارة، خاصة فى أمور النساء، بل تفاقم الأمر إلى حد أنه: عند الحلول بمكان ما، يكون الفراش مشغولاً بأحد الأمريكان، إلا أنهم لحسن الحظ فى الغالب متزوجون وعلى خلق، والحال ألعن مع الخنازير البائسة، البلجيك والفرنسيين أكثر منه مع

الألمان؛ وردًا على سؤال المندوب، كيف يتم مكافأة الهولنديين والدنماركيين، قال بيهلاو، لا، لا يعرف هذا الأمر، ما يعرفه فقط هو أن أشد الخنازير بؤسًا هم الإيطاليون، لكنهم أيضًا لم يكونوا فى أى موضع ـ مبلغ علمه ـ فى مواجهة مستمرة مع حَمَلة الدولار هؤلاء، مثلهم، يقصد مثل الألمان والبلجيك والفرنسيين البائسين.

فكر القس كولب، أليس بمقدوره أن يدعو نفسه فى جمعيته الدينية فى بيرجلار على الغداء وعلى قهوة فاخرة؛ كان رده على هذا السؤال بالإيجاب النظرى، إلا أنه قرر بعد ذلك، عدم الإذعان لهذا الرأى النظرى: القس المقيم حديث التعيين، الذى سبق أن رآه فقط فى مؤتمر للعمداء ووجده ودودًا إلى حد ما، كان قد تم تعيينه، كما نما إلى علمه «فى الموقع الآخر» ، لفحص فى وقت عاجل الغش فى ذهب نواقيسه، أى نواقيس كولب، وزيارة له ربما يمكن اعتبارها ببساطة شديدة التماسًا بالترفق ويترتب عليها تبعات مهينة. انضم إلى ابنى أبراشيته، من قصدا محلاً، يعرفه فقط قاطن المنطقة، المطلع على الخبايا: مخبز فروهن، حيث فى حجرته الخلفية، حجرة معيشة أسرة فروهن التى تم تجهيزها كمقهى بأقل المستطاع، يتم تقديم قهوة فاخرة وجاتوه عال الجودة، وحسب الطلب أيضًا سلطانية أو طبق من حساء اليوم بسعر مغر، مضاف لها بطلب خاص: كشطة كبيرة من دهن الخنزير أو من لحم الخنزير المفرى المهروس. ما جذب كولب بخلاف ذلك: إمكانية إجراء حديث جيد، لا بشكل علنى كالذى فى حجرة الشهود، مع السيدة فيرملزكيرشن،

من أراد بشكل ملح أن يهدىء من روعها بإبلاغها أنه لا هو ولا أحد آخر فى القرية كان يتلصص عليها أثناء تجواله الليلى. وقد ندم منذ وقت طويل، ووبخ نفسه على الخطأ الجسيم، على التسرع بالحديث للنساء عن تجواله الليلى؛ وهو فى حقيقة الأمر لا يكثر أبدًا من القيام بهذا التجوال الليلى، كما يتردد الآن فى الحديث المتداول، بل ربما مرة، مرتين، ثلاثا على الأكثر فى الشهر، عندما يثقل عليه الإعياء من اضطراب النوم ويمل من القراءة والصلاة؛ حقيقة شاهد ذات مرة فى حوالى الساعة الثالثة أو الرابعة صباحًا رجلاً يخرج من منزل السيدة فيرملزكيرشن، وقد تعرف على هذا الرجل، لكنه لن يتذكر الاسم مطلقًا، بصرف النظر عن أنه قد سبق أن ذكره، وحتى عندما يقابل هذا الإنسان ـ فهناك غالبًا ثمة ما يربطه به، فى كل مرة لا يتذكر أبدًا مغامرته الليلية المستورة. كان مخبز فروهن يقع بعيدًا جدًا عن الشارع الرئيسى لبيرجلار المزود بوسائل المدنية فى منطقة لا تزال قروية وقذرة. عول كولب ـ لم يكن فى احتياج لأية نبوءة لكى يتوقع مسبقًا ـ أن أسرة فروهن سترجو السيدة لويفن دخول المطبخ والجلوس إلى مائدة الأسرة، بينما لن تنال السيدة فيرملزكيرشن هذا الشرف بسبب سمعتها السيئة، ولن يقدم له، هو بصفته قس، المطبخ، لأن ذلك كان قدرًا شديد التواضع له. تأكد صحة تكهنه جزئيًا: تم قيادة السيدة لويفن على الفور إلى المطبخ، وذهب هو مع السيدة فيرملزكيرشن إلى المقهى، فوجد أمامه ضيفين آخرين: الزوجين شولفن من كيريسكيرشن الواقعة بالجوار، من كانا عند الموثق العقارى بسبب شراء قطعة أرض،

واستهلا على الفور حديثًا مع السيدة فيرملزكيرشن؛ كانت للسيدة فيرملزكيرشن أيضًا سمعة بائعة عقارات ماهرة، لأنها كانت تدبر نفقات معيشتها ببيع ما ورثته من أرض قطعة قطعة وتشترى فى الوقت المناسب أرضًا؛ كان مشهودًا لها فى هذا الأمر بـ «الحاسة السادسة». قبل القس الدعوة بالجلوس إلى الثلاثة على المائدة الكبيرة، المزينة بمفرش قطيفة؛ سلطانية مفتوحة بها بقايا حساء الخضراوات استدعت شهيته إلى الذاكرة. تبادل الزوجان شولفن مع السيدة فيرملزكيرشن بلكنة مختلطة آراء بخصوص أسعار الأراضى فى كيريسكيرشن، حيث هجر الزوجان شولفن الزراعة وقاما ببناء منزل من طابق واحد. بدت حافظة نقود الزوجين شولفن السوداء الضخمة، الموضوعة مفتوحة على المائدة، تشير إلى أنهما على وشك الرحيل.

ألقى الملازم أول هايمولر بنظرة خاطفة داخل محل "دورق الجعة"، لم يشعر برغبة حقيقية فى تبادل صحبة احتساء الجعة مع مرءوسيه أو حتى تقبل آراء غثة مقنعة من أنصاف مثقفين، مثل تلك التى ينسبها بشدة إلى العريف كوتكا. سار ببطء عبر الشارع الرئيسى لبيرجلار، تخطى كلا المقهيين الكبيرين الحديثين، اللذين كانا يعجان بموظفين، ومزارعين، وطلاب مدارس ثانوية وعليا، وصبيان حرف، واستقر بعد تردد ممض بشكل اضطرارى فى مطعم شرفات نهر الدور، حيث وجد أمامه على كل الموائد مجموعات تدير أحاديث بحماس متوقد، لدرجة أشعرته لا بأنه بائس فقط، بل أيضًا

بإنكار معرفته، وبأنه طريد تقريبًا وأحس بارتياح بالعثور على مائدة غير مشغولة. الحوار الصاخب، الممتزج بكثير من الضحك على المائدة المجاورة، حيث حاول الزوجان هيرميس والزوجان كوجل ـ إيجر مواساة أنفسهم بالنكات على الطعام غير الموفق؛ النقاش الهادئ، المحاط بغاية السرية بين السيدة شورف ـ كريدل، والدكتور جريهن وأوصم محرر المحضر، وحتى وضع المتذوق لبرجنولته، الذى أعد لنفسه سيجارًا (كان يأمل بلا جدوى أن يقوم صاحب المطعم بمعاونته) ـ كان لكل هذا وقع عدوانى عليه، رغم عدم إضمار أو إخفاء أى واحد من الموجودين لأفكار خبيثة. حتى موظفى إدارة الدائرة، والرواد حاملى بطاقات الاشتراك، الذين نهضوا فى الحال ومزحوا مع بعض السيدات الشابات، واضح أنهن سكرتيرات، بدون له، أى للملازم أول، أنهن يظهرن احتقارًا. نهض وتناول من أرفف حامل المعاطف جريدة يتجاوز توزيعها حدود المنطقة.

توجه إلى مائدة الغداء الرئيسية للمطعم: هورن، الذى أعدت له شطيرة دهن الخنزير، وسلطة خضراوات، وكريمة الليمون وتحدث بعد الطعام أثناء تناول فنجان قهوة مع زوجته عن مشكلة «التعليم المختلط فى سن المراهقة»، وهو موضوع أعلنت السيدة هورن، وهى مدرسة سابقة فى مدرسة عليا، عن استعدادها لإلقاء محاضرة عنه فى «ورشة العمل الاجتماعى للتربية». تكتم هورن بتعقل عن العقوبات المالية التى فرضت عليه. جريته هورن، سيدة نحيلة بيضاء الشعر ذات عينين شديدتى السواد، وصفت جميع الرجال المهتمين

بقضية جرول، بما فيهم رجلها، بأنهم «مغفلون»، لا يعون، أية فرصة تكمن فى إمكان تحقيق دعاية لهذه القضية. قالت بهدوء، «تصور أن كل الجنود توصلوا إلى فكرة إضرام النار فى سياراتهم وطائراتهم! لكن هؤلاء الاشتراكيين الديمقراطيين مطموسى المعالم، هؤلاء الغشاشين المنافقين، صاروا برجوازيين أكثر من البرجوازيين أنفسهم». هورن، من اعتاد على مثل هذه الآراء وعلى آراء أشد منها حدة، هز رأسه وقال إن ما يعنيه فقط هو إخراج جرول بأسرع ما يمكن وبعقوبة خفيفة من السجن؛ قالت، سنة أو سنتين سجنًا أمر لا يهم جرول بالمرة، فهو سيجد أيضًا فى السجن عملاً كنجار، لأن «نساء مديرى السجن» ربما مولعات بالموبيليا الإستيل بنفس قدر ولعهن بكل «مظاهر التدلل» البرجوازية الأخرى؛ إلا، أضافت هذه الكلمة للتحديد وهى مبتسمة، لكى تجعل فمها الصادم ذا تأثير مفاجىء جميل، إلا أن على جرول بالطبع أن يكف فى السجن عن التعامل مع هؤلاء السيدات، وأضافت لكن هذه هو الشىء الوحيد.

عرف هوبرت هال منفذ أحكام القضاء من حقيقة أن زوجته وضعت أمامه وجبته الأثيرة ـ فلفل محشى ـ أنها سترجوه ثانية بالرفق بأحد عملائه: فى الحقيقة، عندما أعدت له الحلو، كريمة الكاكاو بالقشدة المسالة، اعترفت بأن سيدة تدعى شوفلر كانت عندها ورجتها أن تتدخل لديه لتأجيل تنفيذ حكم الحجز الواقع على سيارتها الصغيرة؛ بمقدورها تسوية الأمر فى يومين، ثلاثة على الأكثر، وهو يعرف جيدًا، هكذا قالت السيدة شوفلر، مدى صعوبة

استعادة شيء وقع عليه حكم بالحجز «من مخالب الضباع». هال، الذى توقف عند الدهشة برأفة زوجته، قال، إنه ليس بمقدوره عمل شيء إزاء هذا الموضوع، وإلا سيكون حليفًا للشيطان، فقد تم إدانة السيدة شوفلر أكثر من مرة بإحباط تنفيذ الحكم بالحجز، وفى إحدى المرات انتزعت من جهاز راديو مرهون وواقع عليه حكم بالحجز الصمامات، وباعتها بثمن بخس لأحد تجار الخردة فى المدينة الكبير الواقعة بالجوار بسعر فنجان قهوة وقطعة جاتوه بالكريمة؛ لا، لا، بمقدوره الانتظار ليوم واحد، لكن لا أكثر، ويمكنها أن تقول ذلك للسيدة شوفلر.

الشاهد كيرفل الثانى، مفتش أول مالية، محبوب فى بيرجلار كوالده، وجد زوجته منهارة إلى حد ما، حتى لو كانت أيضًا قد وجدت لحسن الحظ عزاء من بنتها بيريجت وابنها فرانك، من تعاطفا معها فى طعام الغداء، ورفعا الشعرية قبل أن تحترق، وأنقذاها بصلصة معدة لها من اللحم البقرى المملح، والفلفل، والبازلاء الخضراء من خطر أن «تتعجن ببعضها وتصير عصيدة منفرة»، ولكى «يجملا الموقف» ، أعدا للتحلية حلو اللوز وقهوة فاخرة. بدأ انهيار السيدة كيرفل، وهى سيدة يصفها كل شخص تقريبًا بأنها «آخر أبهة»، عندما نقل رسام شاب فى حوالى الحادية عشرة والنصف قبل الظهر لوحاته إلى منزل عائلة كيرفل؛ السيد كيرفل الذى جعله تساهله رئيسًا لمعظم جمعيات بيرجلار، وأيضًا رئيسًا لـ«جمعية تشجيع فنانى الدائرة المقيمين»، حصلت بعض

المفاوضات من السلطة التى ترأسه على التصريح، بإقامة معرض فى الصالة الأمامية لإدارة الشئون المالية الصغيرة، وفى آخر اجتماع لمجلس الإدارة (الذى أكدت السيدة هيرميس مرة أخرى على هويتها كفنانة حداثة جريئة، محطمة لكل محذور)، تقرر البدء، لا بمعارض جماعية، بل بمعارض فردية: على مدى أيام، كل أسبوعين تمنح الفرصة لفنان تحدده هيئة تحكيم، ليعرض أعماله على ممولى الضرائب بدائرة بيرجلار، ممن يكونون مضطرين لزيارة إدارة الشئون المالية؛ تم تحديد الترتيب عن طريق القرعة، ووقع الرقم ١ على الرسام تيرفيل، وهو ذو صلة قرابة من بعيد بالشرطى، الذى كان يتباهى بقريبه وفى نفس الوقت يشعر بالتقزز من لوحاته. الرسام الشاب تيرفيل «سعى للحديث عن نفسه» مرات متكررة فى صحف المدينة الكبيرة المتاخمة، ودُونت عنه بعض الملاحظات فى صحف يتجاوز توزيعها حدود المنطقة؛ تلقى الدعوة للعرض فى إدارة الشئون المالية لبيرجلار، أراد الرفض فى أول الأمر كـ«محاولة لتوريطى مع هذه الشبكة الوضيعة للمنطقة»، إلا أن الناقد كيرنهيل (مدرس الرسم بمدرسة بيرجلار الثانوية، ومدرس الشاب تيرفيل فيما سبق، وصديق أبيه، ومشجع محب للخير) قد أقنعه فيما بعد بعدم رفض الأمر هكذا، فعيون الناس فى منطقة بيرجلار على أية حال كعيون الناس فى أى مكان آخر؛ باختصار، تيرفيل (من وصفت جريدة «راينشى روندشاو » فيما بعد لوحاته بأنها «تلطيخات على شكل أعضاء جنسية»، وجريدة «راينيشى تاجبلات» - حيث كان كيرنهيل يكتب مقالات فى النقد الفنى تحت اسم أوبتيكوس المستعار

ـ بأنها «اعترافات جنسية جريئة»، وهولفيج، الذى كان يكتب مقالات النقد الفنى فى جريدة دورتال بوته نفسها، بأنها «تحفل بالأمل ـ تفتقر للأمل»، قام تيرفيل فى حوالى الساعة الحادية عشرة بإيداع صوَرِه (ست، كما سُمح له، أربع منها مقاس مترين فى ثلاثة) عند السيدة كيرفل أو يمكن القول قام بوضعها بمساعدة صديق فى حجرة المعيشة الضيقة على أية حال بمنزل أسرة كيرفل، حيث اكتشف، مما أثار غضبه، لوحة لزميله شورف، الذى اعتاد أن يصفه بأنه «فنان التسطيح التجريدى». خوف السيدة كيرفل من الفضيحة كان أقل من خوفها من اللوحات نفسها، اعترفت بتخوفها منها لأطفالها العائدين للبيت من المدرسة؛ سعوا خلسة للعثور عليها، لأنها غطت بمفرش كتانى لوحة، وصفتها بأنها «منفرة للغاية» : كانت إحدى اللوحات ذات المقاس مترين فى ثلاثة، تُظهر باللون الأحمر الموحل، والبنفسجى، وبنى الأرضية فى معالم ضبابية لكن يمكن تبينها على أنها شاب عار يقلى لنفسه بيضًا على ثديى امرأة ترقد عارية، أعدهما كموقد غازى وينبعث منهما ألسنة نار بنية فى اصفرار؛ كان اسم اللوحة «إفطار لاثنين» ؛ اللوحات الأخرى، التى ساد فيها أيضًا اللون الأحمر الموحل، كانت تبين جميعها تقريبًا أزواجًا منهمكين فى مطارحات الحب؛ كانت مجموعة، اسمها «طقس المعاشرة»؛ السيد كيرفل نفسه، بمجرد أن قام بتهدءة زوجته قليلاً، وسمح بتعليق اللوحات مغطاة بالمفارش، تملكه، أثناء تناوله الطعام وهو شارد الذهن، خوف من شجاعته هو نفسه؛ تخوف بشكل خاص من الغضب (غير المبرر، كما اعتقد) لمولى الضرائب،

هؤلاء من يدخلون مبنى الإدارة لا بملء إرادتهم ويصطدمون بهذا الفن لا بملء إرادتهم أيضا، ربما يتشممون سوء استخدام لمتحصلاتهم الضريبية؛ وبالطبع سيستاء أيضًا أولياء أمور ممولى ضرائب لا يزالون قصر، ممن كانوا يفدون فى الغالب صباحًا إلى إدارة الشئون المالية، لتسجيل إعفاءات ضريبية فى بطاقاتهم (من أسباب دهشته، لا خيبة أمله، كيف أن القلة، ممن أرادوا ضرره، وينسبون إليه السوء، غابت عنهم الفضيحة تمامًا؛ شاب وحيد فقط، تم تحديد هويته فيما بعد على أنه حفيد فروهن الخباز، ألصق بلوحة «إفطار لاثنين» ورقة عليها الملحوظة التالية: «أسرف فى استهلاك الغاز الطبيعى - ولهذا أثر مستحب على فاتورة الغاز»). أصاب الخزى الشاب تيرفيل، لأنه ما من فضيحة إلا وشاعت فى المدينة الكبيرة بالجوار. استطاع كيرفل، أثناء تناول طعام الغداء وسط ضحكات مكتومة من الأولاد، تهدئة زوجته إلى حد ما، بالوعد بنقل اللوحات فى نفس اليوم، «بأطرهم، بل وأغطيتهم» إلى مكتبه، حيث تريد لجنة تحكيم مجددة استعراض لوحات تيرفيل مرة أخرى؛ وبسؤاله عن وضع قضية جرول، قال كيرفل إنه لا يعرف شيئًا؛ لم يتم إعطاؤهم، يقصد الشهود، أى فرصة، «لتلقف ولو لمحة فقط».

فى مطبخ خفير دار القضاء شرورا، الذى يباشر أيضًا وظائف حارس المبنى وسجان، جلس شرورا، وزوجته ليزا، وشترك خفير المحكمة وكيرفل الكبير، على شرائح لحم الخنزير، وسلطة مشكلة،

وبطاطس مملحة، أكمام قمصان الرجال مشمرة، وزجاجات الجعة متراصة؛ طلبت السيدة شروار بحزم إلى حد ما من شترك، من أراد أن يكون أول من أخرج خبزه الذى أحضره معه ويفتح إناء حفظ السوائل الخاص به، أن يترك هذه «السلوكيات الرفيعة»، ويجلس معهم إلى المائدة، فالدعوة لا محالة موجهة إليه، وإذا كانت دعوته على الطعام تقلل من شأنه، فلا اعتراض لديها، أن يردها لها فى زيارتها القادمة للمدينة الكبيرة المجاورة؛ شترك، الذى سأل، هل له أن يرسل أو يحمل خبزه و«قهوته عالية الجودة» لكلا المتهمين فى الزنزانة، فقد شهدا اليوم نهارًا عصيبًا، تلقى الضحكات الساخرة. كيرفل، الذى كان عالى المزاج، حيث بدا له، أنه لم يمس من خلال شهادته لا كرامته ولا الثنائى جرول بشكل بالغ، نصح السيد شترك بالسعى لاستدعائه لقوات الدفاع الألمانية، وإرساله فى مأمورية، ثم إضرام النار فى السيارة، ثم الإيداع فى الحجز، وبعد ذلك إلحاق ابن به، ينجح فى أن يأجج عاطفة أجمل بنت فى بيرجلار، أبوها هو شميتس صاحب المطعم، وأمها أفضل طباخة فى كافة الأرجاء؛ عندما دق الجرس، تم رجاء شترك، من استحسن مذاق طعام شروار، لكنه لم يستوعب التلميح، فتح الباب، السيدة الشابة، الواقفة هناك، المكلفة بتوصيل المحجوزين على ذمة التحقيق، قامت قبل ذلك، عملاً بالتعليمات، بتفتيش حامل الطعام بحثًا عن أشياء غير مسموح بها، ثم، هذا تكهنهم، هذا لعلمك. عمل شترك بالنصيحة. استغلت السيدة شروار غيابه، لسؤال كيرفل الكبير، كيف يسير الأمر الآن بينه وبين ابنه، أتيحت له اليوم أفضل فرصة،

لمقابلته فى حجرة الشهود والاحتفال بالصلح معه، إلا أنه بدلاً من ذلك «جلس إلى الموقد هنا فى مطبخها مكروبًا منتظرًا ظهوره». قال كيرفل، متنهدًا وهو يمسح فمه بمنشفة مائدة كبيرة وينظر إلى شوكولاتة البودينج التى وضعتها لتوها السيدة شروار على المائدة ـ قال متجهمًا، الدنيا من عناء إلى عناء، وعلى أية حال كل أمور ابنه المالية رائعة إلى حد أنه لا يجرؤ على الذهاب إلى هناك. وقال، "بالنسبة لرجل شرطة مثلى، لعب سكات فى سنوات خدمته الأولى مع الأفاقين، ممن كان يحتجزهم ـ حدث كل شىء بسرعة فائقة. إلا أنه دام كخيانة" . كان يلمح بهذا لحقيقة تؤلمه جدًا، فقد أرسل ابنه للمدرسة الثانوية، لكى يصير قسًا؛ وقد حصل فى الحقيقة على التوجيهية (كان كيرفل يقول التوجيهى)، ودرس أيضًا علم اللاهوت لمدة فصلين دراسيين، ثم وقع بعد ذلك كما يرى كيرفل فى حبائل «أول أفضل دمية مزخرفة وملونة»، وهى، الدمية، السيدة كيرفل تلك التى يصفها الجميع بأنها «آخر أبهة»، «لن أسترسل بأية حال بعد ذلك». شروار، وأيضًا زوجته ليزا أقنعاه وهم يتناولون البودينج بإيماءات من رأسهم، أنه من الصواب أخيرًا، بعد كل هذه السنوات، أن يتحلى بالتعقل، إلا أن كيرفل قال، الأمر ليس مسألة سنوات ولا مسألة تعقل، وإلا هل الدين مثلاً أمر عقلانى؟ شروار والسيدة لم يعرفا إجابة على هذا، بالإضافة إلى أن فى هذه اللحظة عاد شترك، الذى جلس صامتًا فى مكانه، يتناول طبقه عن آخره وهو يهز رأسه، ثم، قال عندما رمقاه شروار وكيرفل بعينيهما، من رأيه، إن هذا خروج عن الموضوع إلى حد ما؛ تكلفة السيجار مارك

وخمسون بفينيكا، والطعام، لا، إنه لا يحب أبدًا الأشياء الفاخرة - بعد نظرة صارمة من شروار صحح وضعه قائلاً «الأشياء المغالى فى ثمنها»، تراجع متلعثمًا وقال، يقصد، مثل هذا النهم، وعندما لاحظ من نظرة السيدة شروار، أن هذا أيضًا خطأ، لأنه بذلك يحط من مستوى طريقة تناولهم الطعام إلى مستوى نهم الطبقة العمالية، قال: «يا إلهى، تعرفون حقيقة ماذا أعنى، سيدة فى قدرك تطهو، لا داعى بالمرة للإثقال عليها.» بذلك صالح السيدة شروار إلى حد ما وحصل أيضًا على بودينج وقهوة، قال عنها فيما بعد، «غلت حتى ثقلت».

انهمكت أجنيس هال فى فيلتها القديمة الواسعة فى أمور مختلفة؛ فى الأول، عندما عادت من المحكمة إلى المنزل، بالقبعة والمعطف يعلو وجهها لا الازدراء ولا العناد الصامت، بل نصر حزين، جلست إلى البيانو وعزفت سوناتا لبيتهوفن؛ ما لم تعرفه، ولن تعرفه أبدًا، ما لن يقوله أحد لها أبدًا: إنها تعزف ببراعة فائقة، تؤدى شيئًا، قد يفزع هواة الموسيقى: توقفت بعد الحركة الثانية، وضعت سيجارة فى فمها وواصلت العزف؛ تمامًا، بهمة عالية، فى نوافذ مفتوحة، يملؤها الأمل، أن تسرى نغمات الموسيقى حتى مبنى المحكمة، رغم أنها لم تكن تعزف له، بل للآخر، لمن لا يعرف أحد عنه شيئًا غيرها ومن لن يعرف كل أغبياء العالم عنه أى شىء بالمرة؛ توقفت أيضًا بعد الحركة الثالثة، وأشعلت أيضًا سيجارة، وواصلت العزف؛ لم يكن الأول، لا الثانى: الثالث وهى فى بداية الأربعين

(ابتسمت، عندما سمعت مقطع الأربع، الذى يتقدم لفظة الأربعين، وترجمتها لنفسها بـ«بداية»)؛ حرب بالطبع، نهاية ـ وفكرت الآن وهى مرتبكة فى القضية وفى جرول هذا، من أحبته وكانت دائمًا تحبه: ستعطيه المال، ليدفعه عن هذه السيارة، التى فعل بها الشىء الوحيد، الذى ينبغى فعله بسيارات الجيش: إضرام النار فيها؛ أغلقت البيانو، ضحكت وقررت أن تظهر هناك فى وقت متأخر بعد الظهيرة كشاهدة ولا تسبب ألمًا مرة أخرى للعجوز الطيب ألواز؛ إلا أنها ستقول لهيرميس، إنها تريد دفع ثمن السيارة، وربما أيضًا الضرائب المستحقة على جرول وثمن سيارة أخرى، واحدة أخرى: حتى لو أشعل النيران فيها كلها؛ بدا لها هذا فكرة رائعة.

خلعت قبعتها والمعطف، ولم تتوقف أمام المرآة: كانت تعرف، كم مازالت جميلة؛ فى المطبخ كسرت بيضتين فى المقلاة، صبت بعضًا من خمر الماديرا عليهما، نفخة، نقطتى خل فقط، فلفل وعش الغراب، للأسف طالت ألسنة لهب الغاز العلبة، وضعت عليها ماء القهوة فتقشرت، بينما بيضتاها فى المقلاة تكتسبان ببطء قوامًا غليظًا، تفاحة: لا شىء، لا شىء، لا شىء سيتبقى سوى حفنة، حفنة صغيرة من التراب ـ بقدر رشة الملح. تخرج شرائح التوست من أعلى آلة التوستر، تتناولها باليد اليسرى، وتقلب البيض باليمنى، ثم تصب باليسرى ماء على مصفاة القهوة، وتبحث فى الدرج عن شوكولاتة البرالين: واحدة، اثنتين ـ لا، أرادت أن تبقى نحيلة وجميلة لكل أغبياء العالم، المتمسكين بالقوانين، المدونة وغير المدونة، الدنيوية

والكنسية: دوت ضحكتها مجلجلة، عندما انتقلت بالبيضتين، والقهوة، وشوكولاتة البرالين وقطعتى التوست، والزبد فى الطبق المسطح الصغير الجميل إلى حجرة الموسيقى، حيث المائدة معدة؛ يالا الروعة، مع الشمعدان وقنية النبيذ الأحمر؛ أشعلت الشمعة، وضعت إلى جانبها السيجار الصغير الرفيع، الذى أحضره لها شميتس؛ أحد الأغبياء أيضًا، لا يفهم إلا فى بعض أمور التبغ، لا يفهم أى شىء عن الأمر الوحيد الحقيقى، هذا الأمر الذى يسمى الحب؛ كانت البيضتان رائعتين، أو بالأحرى، تقريبًا رائعتين، خلهما كثير، ربما نقطة أو نقطتين؛ كان التوست غاية فى الروعة: بنى برقة الورقة، والقهوة، وشوكولاتة البرالين، والسيجار الرفيع الوارد من عند السيد كاسترو ـ أحد الأغبياء أيضًا ـ وطن ـ كله تمام؛ حتى الشمعة كانت رائعة. عندما رفعت الأوانى من على المائدة، انكبت على أكثر الأمور غرابة: قامت بتغيير وصيتها؛ لا، ليست ماريا الحمقاء هذه، التى صارت مرة أخرى فى وقت مبكر جدًا ابنة غير شرعة، وليس هذا المسن العزيز الأحمق ألواز، وليست أيضًا الراهبة، التى تؤمن بابن الإنسان، وتحبه ـ كانوا جميعًا متقدمين فى السن، وأيضًا كانت تتوافر لهم سبل الإعاشة: ينبغى أن يكون جرول وريثًا لثروتها مع شرط وحيد: عليه مرة فى كل عام أن يضرم النار فى سيارة كهذه؛ لن يكلفه هذا كثيرًا، نصف الأرباح فقط؛ يمكنه أن يشعل هذه الشمعة الصغيرة إحياء للذكرى، ويرتل قداس النار هذا لها، وإذا أراد، فله بالإضافة لذلك أن ينشد هذا أيضًا ـ ما اسمه؟ ـ

ابتهال القديسين: القديسة أجنيس، والقديسة سيسيليا، والقديسة كاتارينا ـ ادع لنا[1]؛ ضحكت، كان السيد كيرفل قد حكى لها، كيف كان كلاهما يغنى. بمداد بلون زرقة السماء، وسيجار كاسترو فى الفم، كتبت ببطء: «بموجب هذا أوصى أنا بكل ثروتى المنقولة والعقارية ليوهان هينرش جيورج جرول، المقيم فى هوسكيرشن، دائرة بيرجلار...» بدا هذا جميلاً: مكتوب بلون زرقة السماء لخطها القوى، الانفعالى تقريبًا على صفحة ورقية بيضاء: مما يلفت الانتباه، ويلح على الذاكرة، كم من القوة كانت تكمن فى رشة ملح، فى علبة أعواد ثقاب مملوءة بالتراب، كم من الشر، والجمال، والأناقة ـ وكم من هذا الشىء، الذى يسمى الحب؛ كل عام شعلة متوهجة، قداس النار للقديسة أجنيس، الملاك الحارس للمخطوبين.

انطلق شتولفوس فى طريق عودته للمنزل، غارقًا فى تفكير عميق، والسيجار الذى بدأ فى تدخينه بارد فى الفم، بعد أن طلب من سكرتيرته أن تُعلم زوجته بقدومه الوشيك؛ اعتاد السير فى الطريق عبر المنتزة الصغيرة للمدينة، مارًا بالنصب التذكارى للمحاربين مثار النزاع، بضعة مئات الأمتار بطول نهر الدور، وصولاً إلى الفيلا ذات الطراز القديم التى ترجع لسنوات التسعينيات[2]، التى كانت زوجته قد ورثتها؛ اعتاد حقًا، لدرجة أنه كان غالبًا ما كان يجد نفسه يفعل الآتى من تلقاء نفسه، ثم يبدأ فى التنبه ويصبح

(١) باللاتينية فى الأصل (Ora pro nobis). (المترجم)

(٢) تسعينيات القرن التاسع عشر بالطبع، الرواية صدرت عام ١٩٦٦. (المترجم)

مدركًا لوجوده، ويعلق القبعة والمعطف على حامل المعاطف، ويدس عصاه فى حامل المظلات، ثم يعود بالفعل لنفسه، عندما ينادى ماريا، الاسم الأول لزوجته، التى غالبًا ما تكون فى هذا الوقت لا تزال فى الطابق العلوى ترتب الفراش أو، كما تصف ذلك بنفسها، «مُرتبة» لأدراج مكتبها. كان لقبها فى بيرجلار السيدة «المُرتبة»؛ كانت تعتبر ربة منزل غير كفء، إلا أنها كانت طباخة ماهرة وتهوى بحماس أشغال الإبرة؛ نتاج عمل يديها الماهرتين والدءوبتين كان يرتديه شتولفوس فى يديه وقدميه، ويرتديه فى شكل بلوفر على الصدر، ويضعه على شكل غطاء لوسادة كرسى مكتبه؛ أيضًا فى مراكز تنظيم الأسرة كانت توجد باستمرار أطقم ملابس أطفال، توزعها على صغار الأمهات طبيبات ومشرفات أطفال، تترك أو تعهد لهم السيدة شتولفوس مهمة التأكد من فقرهم، وأيضًا إهداء سترات وسراويل صغيرة للأمهات غير الفقيرات. هى، السيدة ماريا شتولفوس سليلة عائلة هولفيج، كانت صاحبة مقولة إنها لا تتكيف مع الوقت، تقصد بذلك توقيت الساعة وأوقات التاريخ: هى ديمقراطية، رغم أنها إلى جانب «المُرتبة» كانت تحمل فى نفس الوقت لقب «ماريا داعية السلام»، وكانت توقع على مناشدات من كل نوع، فى غالبيتها غير مفهومة. انتشرت شائعات غريبة حول شرود ذهنها: لم يكن «يقال» فقط، بل تشهد على ذلك أقوال دولبر كبير صانعى الأقفال، إنه مثلاً لم يكن معروفًا أن شتولفوس، لكى يحفظ الملفات، التى يلزم غالبًا أن يدرسها فى البيت، بمنأى عنها وعن خطر قيامها بترتيبها، سعى فى عمل صوان صلب، «خزانة

بالمعنى الحقيقى»، ترك مفتاحًا احتياطيًّا لها لدى شروار حارس المحكمة وكبير حراس هيئة القضاء؛ وقعت حوادث بالفعل، وصفتها جريدة «راينيشى تاجبلات» بأنها «تقريبًا لم تعد فاضحة»، مثلاً اختفاء أوراق معينة تخص واقعة بيتجا، الذى قام بعملية سطو فاشلة على البنك التعاونى لبيرجلار؛ هذه الأوراق ظهرت قبل افتتاح جلسة القضية بربع ساعة بالضبط (ما علم به هولفيج فقط، وابن أخته الوفى والكتوم، «رجل الجريدة» ولم يبح به أبدًا: هو أنه، هولفيج، بالاشتراك مع شروار حارس المحكمة قد توصلا فجأة إلى الفكرة الداهية، البحث فى مقلب القمامة بين كيريسكيرشن ودولبنفايلر، حيث القمامة التى تم تفريغها منذ وقت وجيز لدهشة هولفيج «يمكن التعرف عليها بسهولة فائقة»؛ هناك تم العثور على ملفات بيتجا وعلى محفظة شتولفوس بها خمسة وثمانون ماركًا عملة نقدية، وكل أوراقه وقصاصات ملاحظاته، التى دوَّن فيها طريقة إدارة واقعة بيتجا؛ كان هولفيج ـ بتقديمه أحيانًا حلولاً وسطًا مريرة، مثل: عدم الحدة فى مهاجمة لا الحزب المسيحى الديمقراطى ولا الحزب الاشتراكى الألمانى ـ ذلك الرجل الذى كان بين زملاء جريدته سببًا فى شيوع الاعتدال بينهم، وهو ما تحقق، حيث إن الاعتدال «فى الموقع الآخر» يتمتع بالحماية، لدى جرلبر مثلاً.) أحيانًا، هكذا قيل فى بيرجلار، كانت تبدأ فى التاسعة صباحًا فى ترتيب الفراش، ثم تستيقظ، عندما تدق الساعة منتصف النهار، كاستيقاظ «أميرة الثلوج من الموت الظاهرى» وفى يدها باستمرار نفس الملاءة، التى رفعتها فى حوالى التاسعة، لتبسطها على الفراش أو لتبدلها.

مما يثير الدهشة أنها أتت، الآن عندما نادى «ماريا»، من المطبخ - بمئزر معقود حولها - أزرق سماوى برباط وردى صغير - «بناتى إلى حد ما»، كما كان يعتقد دائمًا، لكنه لم يفصح أبدًا. فاحت رائحة - بطة أو ديك رومى؟ -، أيضًا بالتأكيد على أية حال تفاح مسلوق وأرز؛ وضعت قبلة على خده، وقالت له بنعومة وهى مضطربة: وصل.

سأل مفزوعًا، «من؟»

قالت بنعومة، «يا ربى، ليس جرلبر، كما تخوفت، بل خطاب تقاعدك: فى خلال أربعة أسابيع سيتم توديعك فى احتفال، وتنبه: ستحصل على نوطهم مثبتًا على الصدر أو معلقًا حول الرقبة. ألا يسرك هذا؟

قال فى تراخ، «بلى، بلى»، وقبل يدها، التى مسح بها على خده، «ليت تقاعدى كان بالأمس.»

«لكن لا تتمنى هذا، ماذا سيكون مصير جرول؟ البراءة، لكن غرامة تعويضية - هذا هو رأيى دائمًا. تصور، لو تولى قضيته أحد الديمقراطيين المفوهين؟ البراءة أيضًا.»

«لكنك تعرفين، البراءة جنون.»

تقدمها فى التوجه نحو الحجرة، صب من قنية كأسين من خمر الشيرى، ناولها كأسها بابتسامة رقيقة، وقال: «نخب صحتك!»

قالت، «فى صحتك، على فكرة جرلبر اتصل من خمس دقائق. موافقنى على رأيى تمامًا.»

«رأيك؟»

قالت وهى تشرب كأسها عن آخره، وتفك مئزرها، «أعتقد أنه أعطاك الاثنين جرول لأنه يعلم كم تفضل الحكم بالبراءة. هدية وداع. أقبلها؛ وأحكم ببراءتهما!»

قال بحدة، «من فضلك، أنت تعريفين، مدى مكر جرلبر. البراءة مستبعدة. فماذا يريد إذاً؟»

«يريد أن يعرف، ما إذا كانت هناك تغطية صحفية.»

«وماذا؟»

«قلت له، ما من تغطية صحفية.»

«ومن أين علمت بذلك؟»

«تحادثت عدة مرات مع السيدة شروار. اتصل جرلبر بالفعل فى الصباح.»

«اتصل عدة مرات؟»

«نعم، أبلغتنى بذلك السيدة شروار، لن يظهر أى صحفى فى أى مكان، ولا واحد بقلم رصاص خاطف - بدا أن هذا هدأ جرلبر. لكن قل لى، أكان يجب أن تكون بهذه الشدة مع أجنيس؟ أرسل لها زهوراً.»

قال، «أوه، انتهى عن هذا، هذه المرأة المجنونة. قامت أمامى بعمل مشهد موجع.»

«أقول لك، أرسل لها زهورًا، واكتب أسفلها: «سامحينى! ـ ‹ألواز، حبيبك دائمًا› .»

«أوه، دعك من هذا.»

«هل هو موجع بقدر ما روته لى السيدة شروار أيضًا، ما فعلته أجنيس، بالتأكيد لا.»

قال مضجرًا، «لا تقولى لى هذا أبدًا»، وصب لنفسه كأسًا ثانية من الشيرى، وناولها القنية بنظرة مستطلعة رغبتها؛ رفضت.

«حسنًا، على أية حال، لن أقوله لك.»

«هل هذا يخص المحكمة؟»

«بشكل غير مباشر، نعم.»

«اللعنة، فلتقوليه!»

«أعتقد أنه من الأفضل حقيقة أن تعرفه. يمكن تدبر الإجراءات.»

«أهو أمر بغيض جدًا، محزن جدًّا؟»

«لا، غريب فقط، وموجع إلى حد ما.»

وجهها الأشقر العريض، الذى لا يزال جميلاً وطفوليًّا، برغم ترهل حدة قسماته، تقلص بسبب ضيق الأفق، ربتت على رأسه الأصلع، المحاط من جانبيه بالقليل من الشعر الرمادى، وقالت بصوت خافت، «إنها ـ ما اسمها؟ أعتقد إيفا، من المطعم، الذى

يحضر لكم ظهر كل يوم الوجبة رقم أربعة»، وضحكت بصوت مجلجل، «أشاعت بشكل لا يخلو من الزهو هذا الخبر: «<وهبت نفسى له وقد احتضننى> ، هذا ما قالته بالحرف الواحد.»

قال شتولفوس، «اللعنة، لعلها لا تكون هى أيضًا لا زالت قاصرًا.»

«تجاوزت السن بقليل. بنوتة جميلة.»

«لكنها تقوم بإحضار الطعام منذ ما يزيد على ستة أسابيع.»

«هى بالضبط نفس المهلة الضرورية فى حالة كهذه لإبداء أول هواجس تبعث على الزهو ـ بالإضافة إلى أنها غالبًا ما تكون صائبة.»

«على الأقل لعله كان الولد.»

«كان هو.»

«منذ سبعة أو ثمانية أسابيع صرح جرلبر لكليهما بإجازة لدفن حماه. يجب دفعها للاعتراف بأن الأمر حدث فى هذه الفرصة.»

«دفعهما إلى ماذا؟»

«ألا تريد أن تجرب هذا؟»

«أريد أن أجرب هذا ـ ومن الأفضل، أن يقوم العاشق المتيم أيضًا بفعل هذا.»

«إنه ولد متزن»

«له ذوق، يمكن أن يروقنى أنا فقط: إنها أجمل بنوتة، وقعت عليها عينى فى هذه الجهة.»

«آهه ـ يجب أن يصدقنى هيرميس فى ذلك. على أى حال يمكنك طلب الزهور لأجنيس بالتليفون.»

«بالتليفون؟ تعلمين جيدًا أن الجميع هنا يعتبرون التليفون هو المصدر الأكثر مشروعية للمعلومات؛ فى مطعم «دورق الجعة» سيشاع أن «صوتًا رجاليًا» كان يوافقنى فيما يخص حجم العقوبة، أى البراءة.»

أكلا فى صمت حساء مع الطبق الرئيسى (بطة، كما أكد وهو مندهش فى سرور)؛ هو قليلاً، وهى كثيرًا؛ كانا يأكلان فى صمت منذ أربعين عامًا ـ هو قليلاً، وهى كثيرًا ـ حساء مع الطبق الرئيسى؛ كان قد فرض هذه العشرين دقيقة الصامتة منذ أن كان مدعيًا عامًا شابًا؛ كان يحتاج لفترة الراحة القصيرة هذه، لكى يتدبر بعض أفكار لمواصلة المحاكمة، يدونها بسرعة فى اقتضاب، عندما كانت تتوجه إلى المطبخ، لإحضار القهوة أو الحلو: كتب، هورن؟ مد. ع.؟ ثم قس ك.، ل. المسن، فيرملزك.؟؟ ثلاث جنـ.، جريـ.، كيـ. ها.[1] ؛ ثم قرن هذه الاختصارات بأرقام، وأبدل الأرقام بحيث جاء جريـ.، كيـ. ها. قبل الجنود.

لن يتناول من هذا الطعام بلا نهم: شطيرة التفاح التى أعدتها توًا بالقشدة وشراب الفانيليا؛ أبريق القهوة البديع الوارد من مدينة مايصن، الذى يدفىء عليه يديه منذ ثلاثين عامًا فى هذه المناسبة،

(١) اختصارات لأسماء شخوص سيتم سماع أقوالهم فى المحاكمة مد. ع = المدعى العام، قس ك. = القس كولب المسن ل. = ليوبن المسن، فيرملزك. = فيرملزكيرشن،... (المترجم).

قبل أن يندفع للارتشاف من كأس خمر الاشنابص قطرات تنعش القلب؛ منذ أربعين عامًا يطالع هذا الوجه الأشقر، الذى كان فيما مضى ناضرًا، وازداد شحوبًا وتمددًا، جلس معها إلى هذه المائدة الكبيرة من خشب شجر الجوز، التى تتسع لكثير من الأطفال، «ستة على الأقل»؛ وبدلاً من ذلك: نوبات إجهاض، لم تترك أى شاهد عزاء على الأرض لقبر، لم تترك أى موضع، اختفت بلا أثر فى عيادات أمراض النساء؛ فواتير أطباء، «عقارات محفزة للهرمونات»، جبهات معقودة تشهد بالكفاءات، حتى توارى الأمل الشهرى بانتكاسها وهى فى سن الأربعين إلى حالة انعدام الطمث لابنة العاشرة، فكف عن إتيانها بفحولته؛ كانت ثرثارة وكثيرة النسيان، أما هو فصار صبيًا من جديد، لا يؤرقه، ما يؤرق الصبية؛ لم تترك فى المقابر أى شاهد عزاء على الأرض، ومع ذلك ينظران كلاهما بشكل دائم، منذ أربعين عامًا - هو يأكل قليلاً، وهى كثيرا - إلى المقاعد الخاوية، كما لو كانا ينتظران أن يصدر عنها بكاء، أو شجار، أو انتقاد، أو نهم، أو حسد على حسن الشهية - لما يفكرا أبدًا، فى اختيار مائدة طعام أصغر؛ نادرًا ما يحل ضيوف؛ هذه المقاعد الخاوية لأطفال لم يروا الحياة مطلقًا كان يجب وضعها حول المائدة؛ أيضا بعد عشرين سنة، بعد أن أصبحت بنتًا صغيرة؛ أو قد تتحقق لها المعجزة، التى تحققت لسارة، والتى لم تعد تتحقق من زمن بعيد لهذه النوعية من النساء؟ محاولاتها القليلة، لإشغال المقاعد الخاوية بخيال هيستيرى بأطفال من ابتداعها وأحلامها، بمونكا الابنة التى يجب منعها من الإفراط فى تناول الطعام، وكونراد الابن الواجب

تحفيزه على تناول الطعام بشهية أفضل ـ كان يمنع هذه المحاولات وليدة المصادفة، بأن ينبهها كمن تسير أثناء النوم بصوته المتزن، الذى ينطق به أحكامه؛ حاولت من وقت لآخر وضع أدوات طعام لهؤلاء الأطفال نتاج ابتداعها أو أحلامها ـ ليس بشكل متكرر، مرتين، ثلاث مرات على الأكثر فى أربعين عامًا: أخذ الأطباق والأكواب من على المائدة بيده وهشمها فى المطبخ فى صندوق القمامة، لا بوحشية، ولا بعنف، بل كحدث بديهى، كما لو كان يرفع الملفات عن المنضدة، وهى لم تبك، ولم تصح، فقط أطرقت برأسها متنهدة، كمن تذعن لحكم عادل. وعدها بشىء واحد ووفى به، قبل أن يتزوجها وعد بأنه: لن يشارك أبدًا فى إصدار حكم بالموت.

فى أماكن أخرى، تكون فيها غريبة وبمفردها، أماكن لا يحل هو بها، كانت تتحدث علنية عن ابنة توفاها الله وابن هلك؛ علم بذلك مرة واحدة، فى النزل الصغير بالغابة البافارية، حيث كان عليه أن يتوجه إلى هناك فجأة، لأنه تم نقلها إلى المستشفى على أثر كدمة فى الكاحل. فى النزل صباحًا على الإفطار سألت صاحبة النزل عن كونراد الابن الذى هلك، الذى درس الطب، ومات بالقرب من مدينة اسمها فورونيش؛ من فم غريب ـ وفى عدم وجودها ـ كان لهذا أثر جيد، بل وحقيقى: شاب أشقر منكر لذاته، انتقلت إليه عدوى التيفود فى مستشفى عسكرى ومات فى أحضان شابة روسية، حبيبته: لماذا لا يكون هذا حقيقيًّا؟ لماذا لا تختار شابًا أشقر منكرًا لذاته، نسيه ذووه منذ وقت طويل ولم يعد أكثر من حفنة رماد،

وتجعل منه ابنًا لها؟ من الواضح أنها، فى عدم وجوده معها، تحيا مع ابنة متوفاة وابن على هذه الأرض، وتعاود العيش عليها بدونهما؛ قالت صاحبة النزل، وأما أمر الشابة مونيكا، فهو مفجع؛ ماتت فى حادث سقوط طائرة وهى فى الطريق إلى عريسها «هناك»، الذى كان قد أعد كل شىء للزفاف؛ هل كان المقصود بـ «هناك» أمريكا، لو صح، فأيهما، الجنوبية أم الوسطى، قال، الوسطى، أثناء تقليبه للسكر فى القهوة؛ انتظر العريس فى المكسيك، لا، لم يكن ألمانيًا، كان فرنسيًا، يقوم بالتدريس فى الجامعة هناك؛ المكسيك؟ جامعة وفرنسى، ألم يكن إذاً ـ لا تريد أن تكون متطفلة، والأمر لا يعنيها أيضًا فى شىء ـ ألم يكن إذاً ـ ربما شيوعيًا؟ لا يجب أخذ هذا مأخذ الإهانة، فهى ترى أن الشيوعيين بشر أيضًا، لكن قدر هذه الفتاة الشابة مس مشاعرها، بعد أن حكت لها السيدة الفاضلة الكثير عنها، وقد قرأت، أن الناس فى المكسيك «يسار جدا»؛ مع ذلك، اعترف، نعم، كان شيوعيًا، الشاب، هذا الفرنسى المدعو بيرتو، الذى كاد يكون زوج ابنته؛ ولم يتزوج بيرتو هذا من أخرى، ويتذكر بوفاء مونيكا ضحية الطائرة المحطمة غرب أيرلندا؛ راقته المسرحية، لأنها لم تحدث بين كلاهما بشكل مباشر، ولا يمكن ربطها بالأجنة، التى اختفت دون أثر فى عيادات مدن صغيرة بمنطقة جبلية، وبمنطقة فستفالن والمدينة الكبيرة المتاخمة. علم فى هذه المرة بأمر هذه المسرحية، فى هذه المرة شارك فى الأداء، لمدة نصف ساعة على الإفطار، قبل أن يتوجه إلى المستشفى بوقت قليل، لكى يصحبها إلى البيت فى سيارة الإسعاف. كانت أمنيتها الوحيدة،

لو جاز، أن تموت هناك، حيث كانت طفلة، أن تموت، محاطة برعاية الراهبات، من تعتقدن فى «ابن السيدة العذراء»، إحداهن زميلة مدرستها الوحيدة على قيد الحياة، بالطبع واحدة غير أجنيس، تعذر عليها «للأسف، للأسف» التواصل معها؛ قالت «كلتاهما» وكانت تقصد الراهبة وأجنيس، «ربما قد أنجبتا لك أطفالاً، انظر إلى بشرتيهما: بقع ملونة، هرمونات، والعيون ـ على عكس عيناى تشحبان باستمرار، باستمرار، باستمرار؛ عندما أتقدم فى السن أكثر وأكثر، ستصيران ذات يوم شاحبتين جدًا كبياض البيض.» نعم، فيما يخص العينين، صارا حقيقة فى شحوب متزايد كاللون الأزرق على طوابع البريد الإنجليزية. لا، فيما يخص أطفالاً من إيرمجارد هذه وابنة خالتها أجنيس: لا، لا؛ ربما أمكن، أن يكون من الأفضل، عدم إنجابهم.

كانت هذه فى الحقيقة إحدى أروع أكلاتها، شطيرة التفاح المقرمشة، الطازجة، ويا لا مهارتها فى وضع قرفة وزبيب فيها، وربها لكريمة القشدة والفانيليا حتى يتماسك قوامها؛ يضع ممتنًا يده على يدها، التى تقلب له بها القهوة.

«قولى لى، هل سبق أن سمعتى عن شىء اسمه هبيننج؟»

قالت، «نعم.»

رفع عينيه لأعلى ونظر إليها بصرامة. «حقيقة، أرجوك، كونى جادة.»

قالت، «حقيقى، فأنا جادة، كان عليك من وقت لآخر مطالعة جرائد يتجاوز توزيعها حدود المنطقة، الهبيننج هذا، هو شكل فنى جديد للغاية، نزعة جديدة للتعبير، يتم تحطيم شىء ما، بقدر المستطاع بالاتفاق مع من يمتلكه، وعند الضرورة بدون.»

وضع الشوكة الصغيرة، ورفع يديه بتلك الإشارة التى تنم عن القسم، التى تخشاها، لأنه ـ وهو ما ندر حدوثه ـ أراد أن ينبهها بذلك، كما كان يفعل مع الشهود والمتهمين، بقول الحقيقة، الحقيقة الخالصة ولا شىء غير الحقيقة.

«أقسم لك، فهم يقومون بأمور عجيبة، يسافرون بقاطرات فوق سيارات، يصدعون طرقًا، يرشون دم دواجن على الحائط، يهشمون ساعات نفيسة بالمطرقة...»

«ويحرقون شيئًا ما؟»

«لم أقرأ شيئًا حتى الآن عن الحرق، لكن لماذا لا يحرقون، إذا ما كانت الساعات تتكسر، والدمى تُنزع أذرعتها وعيونها...؟"

قال، «نعم، لماذا لا يحرقون شيئًا، وعند الضرورة دون طلب موافقة المالك مسبقًا؛ لماذا لا يضعون فى يداى الحانيتين، محاكمة من اختصاص محكمة من قاض ومحلفين على الأقل، وأحد الغرباء عن المكان كمدع عام ، وكمحرر للمحضر شخص، يحب العدالة، إن لم يكن يغالى فى تقديسها، هو الشاب أوصم، الذى ـ هذا الأمر لم يمر عليه بأية حال وقت طويل ـ كان يظهر باستمرار أمام باب

منزلنا جميلاً بأنف الأطفال الندية فى المواكب الغنائية لأعياد القديس مارتن ممسكًا بفانوس من صنع يديه؟ لم لا؟ لم لا؟" قال ذلك، وهو ممسك لها بالفنجان، راجيًا المزيد من القهوة، وكان يضحك من القلب، بشدة، بقدر ما سمح له سيجاره (دائمًا هو نفسه، الذى بدأ فى تدخينه فى الصباح) بالضحك الشديد. وعندما، وقد مس ذلك كبرياءه تقريبًا، حيث إنه لم يطلعها ـ وهو ما كان اتفاق بينهما ـ على النكتة، التى جعلته يبلع دخان السيجار، قال: «فكرى فقط فى جرائدك التى يتجاوز توزيعها حدود المنطقة: إحراق سيارة، مصحوبًا بإنشاد ابتهال، مع تبادل قرع الغليون، بشكل إيقاعى ـ ألا تفهمين، لماذا أضحك؟ لماذا لا يريد جرلبر صحافة، ولا يجوز لكوجل ـ إيجر أن يعرف، إلى ما سيؤدى هذا؟»

قالت، «آه ها»، وأخذت قطعة من شوكولاتة البرالين، تناولت بعدها قهوة، «بالطبع أفهمهم الآن، هؤلاء الثعالب، رغم أن هذا يوحى أكثر بفن الجموع.»(١)

راقه هذا: إشعالها سيجارة لنفسها، ونفثها الدخان كابنة العاشرة، التى تتطلع للظهور بشكل متهتك، كانت الشىء الأبيض تدس فى فمها، كما لو كان حقيقة جزءًا منها؛ أربعون عامًا وما من حياة تحركت بداخلها، ما من شاهد تم تركه على الأرض، ولا حتى

(١) اتجاه مستحدث فى الحياة الفكرية الغربية تولد عنه ما يعرف بثقافة الجموع Popkultur، وأدب الجموع Popliteratur، وفنون الجموع Popart، وموسيقى الجموع Popmusik، وهى اتجاهات لاقت رواجًا شديدًا فى منتصف الستينيات. (المترجم).

ذكرى لنوبة عنف وحيدة، عند مضاجعته لها؛ أطفال تقدموا فى السن جدًا، جدًا. عاود وضع يده على يدها. قال: «نادرًا ما تملكنى هذا الإحساس الطيب»، وعاود الضحك، عندما فكر فى ورقته: جري.. كي. ها. ثلاث جنـ.. قس ك. ـ أليست ورقة كهذه عملاً من اتجاه فن الجموع؟

نادرًا ما عاد إلى محاكمة بهذه السلاسة، بهذا القلب المفتوح، ارتدى القبعة والمعطف بخفة، تناول العصا من الحامل، قبل الوجه الأشقر الشاحب المستدير، الذى كان دائم التقلص بسبب الضيق. حتى بيرجلار كانت بالنسبة له أقل رطوبة، وأقل ضيقًا: كان هذا شيئًا بديعًا للغاية، جريان نهر الدور، حتى لو كان محملاً بالطمى ومتثاقلاً، متخللاً المدن الصغيرة، وطريق المشاة ممتد بطوله، والربوة الصغيرة المستحوذة على المنظر، والنصب التذكارى للمحاربين مثار النزاع، تمثال نيبوموك على الجسر، بوابة المدينة من الشمال، بوابة المدينة من الجنوب، «بؤر وقوع حوادث» ـ «مناطق اختناق مرورى»، حتى محال مبنى البلدية ذات الطلاء الأحمر فى أبيض رائعة؛ ماذا يمنع العيش فى بيرجلار والموت فى بيرجلار؟

قال فى محل الزهور، «لا، ورود لا، ولا أيضًا زهور نجمية» ـ لا زهور حب ولا زهور موت ـ وقال «نعم، نعم، باقة الخريف البديعة هذه ـ وهل تعرفين عنوان الآنسة هال؟»

فى مطعم شرفات نهر الدور أثبت آيس كريم الشوكولاتة أنه ذو الحظوة الأوحد، فقد كان يتم تقديمه كتعزية وكمصالحة لهؤلاء،

ممن لم يستحقوه بموجب قائمة الطعام والوجبة؛ كان يتم إنتاجه بكميات كبيرة، لا تتناسب مع الطلبات المحتملة للوجبة الرابعة، فى مساء اليوم السابق بيد من تسببت فى خفقان قلب، وروح، ويد أمها بالخبر الزاهى إلى حد أنها هى نفسها قد أخفقت فى ـ كباب الحلة بالخل ـ طبقها المفضل؛ كان يتم تقديم الآيس كريم بيد أبيها، الذى كان يعتذر متكدرًا، إن لم يكن أيضًا ببالغ الأسى، بسبب الوجبات غير الموفقة بالكلمات التالية: «أسباب وجدانية دخلت فى الموضوع، شرحها أمر يطول»؛ كان يأخذ نقودًا أقل مما يُعرض عليه، حتى من برجنولته، الذى لم يكن يحبه. لم يُظهر سخطه أبدًا، سوى مرتين فى فترة قصيرة، فى كلتا المرتين بسبب نفس الصوت الرجالى، الذى ناشده، استدعاء زبائن لديه إلى التليفون، حيث استفسر منه هذا الصوت الرجالى فى المرة الأولى، ما إذا كان يوجد كابينة تليفون وهل هى عازلة للصوت؛ تم استدعاء كوجل ـ إيجر وبرجنولته بهذه الطريقة للكابينة، مكث الاثنان وقتًا طويلاً إلى حد ما، خمس، ست دقائق، ربما أكثر؛ خرج الأول غير مضطرب فحسب، بل متوتر، والثانى بابتسامة رضا.

نشأت فترة توقف صغيرة فى حوالى الثالثة إلا الربع، عند تأهب الجميع للرحيل، جاء هولفيج، عليه أثر الاستحمام، لوح لهيرميس وكوجل–إيجر بمزاج مرح، وانحنى للسيدات من مسافة بعيدة، وتوجه إلى جريهن، والسيدة شورف ـ كريدل وأوصم على المائدة، ليتلقى هناك نصيحة، بطلب بيض مقلى بدهن الخنزير أو أوملية،

فالإخفاق شمل كل شىء اليوم، حتى السلاطة؛ السيدة شورف ـ كريدل، وهولفيج وأوصم، وهم متفقون على مناصرة المعارضة الليبرالية، تناقشوا بصوت غير مرتفع إلى حد ما، عن اجتماع، تحدد له المساء القادم موعدًا، كان يُرجى منه، ألاَّ تظهر السيدة هيرميس ثانية هناك وتقوم بأسئلتها التقدمية الجريئة «باغتراف زبدة الليبرالية لصالح كاثوليك دائرة بيرجلار.» قالت السيدة شورف ـ كريدل بصوت خافت «يا لها من امرأة، ما من معروف يُسدى لنا أفضل من حرمانها من الكنيسة.» ورغم تلويحها بود للسيدة هيرميس، وهى تغادر مطعم الشرفات متأبطة السيدة كوجل ـ إيجر، وعدت بالتوجه بعد ظهيرة اليوم للمدينة الكبيرة المتاخمة لتجهيز المحاضر للأسئلة البينية المتوقعة من السيدة هيرميس؛ كان هذا النائب الشاب سيلقى محاضرة عن موضوع «التغذية فى العالم ـ تحديد النسل ـ دولة الرخاء»، وكان من المتوقع من السيدة هيرميس، من اقترنت منذ عدة أشهر بلقب «إلزا ـ حبوب»، تسخير جهودها بالشكل اللائق. على أية حال وعد هولفيج بأن يعود بنفسه لجريدته ويحرر عن ذلك مقالة افتتاحية، «لن يكون ولا نصف سطر فيها، كما شدد فى الوعد، من نصيب السيدة إلزا.» وسأل بالمصادفة عن مسار المحاكمة فى قضية جرول، وبناء عليه أوضح جريهن، أن الأمر فى حجرة الشهود انتهى إلى نهاية مرحة جدًا، وقالت السيدة شورف ـ كريدل، من الخسارة أن الوحيدة، التى كان بمقدورها إشاعة بعض المرح، السيدة زايفرت، تم إسكاتها بسرعة. عندما حكت، كيف قام جرول بإشعال الغليون، تشعوطت كما يقال،

واعتذرت «ساحر، أنت تعرفين»، قال هولفيج، جميل وأدلى بخبر صغير وظريف لافتتاحية صفحة المحليات موضوعه "التدخين فى قاعة المحكمة"، عندئذ تأبط أوصم ذراعه وسأل، ألا يستطيع أن يكتب باسم «يوستوس» المستعار تعليقًا صغيرًا عن «عبثية حرق سيارات وعبثية إجراءات قضائية معينة»، إلا أن هولفيج جنح للإيجاز، وما يشبه التوتر تقريبًا وهمس قائلاً، طلب «أصدقاؤنا» بصريح العبارة عدم الكتابة عن القضية، وربما سيتحتم أن يتكتم هو موضوعه لافتتاحية صفحة المحليات، لأن التدخين فى قاعة المحكمة، و«من متهم»، جنحة بينة.

سأل هيرميس السيد كوجل ـ إيجر فى طريق العودة إلى المحكمة، لماذا لا يطعن فى اختصاص المحكمة ويطلب على الأقل محكمة من قاض ومحلفين، وهو ما رد عليه كوجل ـ إيجر مبتسمًا بقوله، لن يُنكر عليه الحق، وهو المحامى، فى الطعن فى هذه، «يجب أن أعترف»، الحالة القضائية الغريبة، وجرجرة الاثنين جرول أمام محكمة بريل، والحصول لموكليه على سنتين بدلاً من ستة شهور (وهو ما صححه المحامى فى الحال إلى أربعة شهور)، لكنه كان يتشكك فى النجاح المتوقع لتدخل كهذا، وطلب أن تكون الدعوى فى نهاية الأمر تلفيات مادية ومزاحًا ثقيلاً؛ هز كتفيه، وابتسم وقال متشككًا، الأمر قد لا يتعدى أيضًا حكاية مهرب، أو صياد بلا ترخيص، أو عمل غير مشروع، وقد ينطوى على هرطقة وتجديف، لأن الترنم بالابتهالات لا يليق فى الحقيقة. وطالما لا يوجد مدع ـ

وسيادته، أى المدعى العام، هو المدعى ـ، فهو ليس بقاض. وهو، أى هيرميس، بمقدوره فعلاً، لو كان الأمر يعنيه، أن يطلب حكمًا مشددًا!

السيدة كوجل ـ إيجر التى تملكها الفزع فى هذه الأثناء، ولم يمكن استرضاؤها ولا تسريتها عن الطعام المخيب للآمال لا بآيس كريم الشوكولاتة ولا بقهوة فاخرة، هدأت إلى حد ما، عندما وصلوا فى النهاية إلى قاعة المحكمة، لأنها كانت تتيح ضمانًا أكيدًا على أن السيدة هيرميس ستلزم الصمت فى الساعات التالية؛ كانت تتوق بشدة منذ وقت طويل للعودة إلى «هذا العش شرق نورنبرج»: بهتت فى نظرها السمات المميزة لموطنها، وآراء السيدة هيرميس عن أهم قضايا العصر كانت بالنسبة لها كافية ومعروفة بشكل ملح: فيما بين ذلك كانت قد اكتشفت بالفعل، أن هذه فى حقيقة الأمر تلك البنت الشقراء المفعمة بالحيوية التى كانت "بشكل ما تقضم باستمرار فى تفاحة"، والتى تحتم فى وقتها إيداعها بسرعة بالغة ولوقت طويل مدرسة داخلية؛ هى على الإجمال ليست غير ودودة، ولا خبيثة بالمرة، فقط شخص مُتعِب بشكل واضح، فى ضحكتها المشرقة تنوح الدموع باستمرار؛ هل سبق أن كانت فى إسرائيل، بإمكان السيدة كوجل-إيجر سؤال السيدة هيرميس على التو، عندما تُرفع الجلسة؛ بقيت إجابة واحدة خافية على السيدة كوجل ـ إيجر، كان بمقدورها أن تهز رأسها، وبناء عليه كان يمكن للسيدة هيرميس أن تبين بإشارات لا مثيل لها، أنها عليها التوجه إلى هناك، يجب مشاهدتها.

قرر الملازم أول، أن يجعل النصف الأول من هذا اليوم صباحًا للوبال، ففيه ـ كان يأمل باستمرار، عند الإدلاء بأقواله بعد الظهر أن يتخفف من جزء على الأقل من كربه ـ فقد كان كل شىء غير موفق أو انتهى إلى اضطراب: الحديث مع القس، محاولته، إيقاف مرءوسيه الاثنين عند حدود اللياقة والأدب، والآن: هذا الطعام غير الموفق بشكل واضح، الذى لم يكن بمقدور الخَصم وحلو الشوكولاتة تعزيته تمامًا عنه؛ بعد ذلك أراد أن يعتبر الطعام غير الموفق بمثابة إعلان كراهية «سواء شخصيًّا أو أيديولوجيًّا» ضده وضد المؤسسة، المتيم فى عشقها، إلا أنه، عندما اعتذر صاحب المطعم، وقدم مع حلو الشوكولاتة فنجان قهوة مجانًا، «لإنقاذ سمعة المطعم»، التى نالها الضرر، «من تكدير النفس المفاجىء»، شخص بنظره إلى عينيه ذات اللون البنى الكلابى الغالب عليه المكر، تشمم فى الحال تهكمًا، ولم يجده فبدأ فى تدخين سيجارة مع القهوة، راضيًا إلى حد ما، أثناء ختامه لمطالعته المقالة الافتتاحية للجريدة التى يتخطى توزيعها حدود المنطقة.

فى مقهى فروهن، قبل أن تخرج السيدة لويفن من المطبخ وتعلن أن الوقت قد حان للعودة إلى المحكمة، وبعد أن استغرق الزوجان شولفن وقتًا فى الاستعانة بمشورة السيدة فيرملزكيرشن بشأن الحساب، كان قد تم التوصل إلى اعتراف غير درامى شامل عن حياة السيدة فيرملزكيرشن، يتضمن ارتجالاً للقس المفزوع فيما لا يزيد على خمس وعشرين دقيقة عن فلسفة الحب بشكل يكاد يكون

مكتملاً بالإضافة إلى الاعتراف؛ كيف أنها تزوجت صغيرة، أو تم تزويجها لضابط الصف فى ذلك الوقت فيرملزكيرشن، من تزوجها - كانت فى السادسة عشرة، صغيرة، منطلقة، متعطشة جدًا للحياة وللحب - «بمباركة الكنيسة والذى منه»، ثم تم تضليلها، ولم يكن ثمة سبيل لإصلاح الأمور التى فعلها معها، لا إصلاح، وتملكها الخوف مما يمكن أن يسببه الجنس للرجال، دام زواجها مدة عامين من السيد فيرملزكيرشن، راجل ماكر وأحمق، عمره ضعف عمرها، اثنان وثلاثون، وأمر وحيد مؤكد: أنه رجل؛ ليس جنديًّا، ليس مزارعًا، فقط رجل، رجل بقدر وبأسلوب يدفعها للبكاء؛ ثم تم استدعاؤه فى الشهور الأخيرة من الحرب بعيدًا عن بيرجلار، حيث تم إلحاقه بوحدة فى سلاح الدفاع الجوى لأداء عمل مخفف ومات بعد يومين؛ قام أحد زملائه بتوصيل الخبر لها، ليس الخبر فقط، كان يعلم أيضًا، حكى لها، أنه يعرف، شكل بشرتها، ويديها، عرف معالم جسدها كزوجها، الذى أحكم قبضته عليها ثانية بعد موته من خلال هذا الفتى، «خيانة وضيعة»، وواقع الأمر: أنها لم تكن حقًّا أرملة، بل على الدوام زوجة فيرملزكيرشن هذا؛ مازال يملكها، من آل منذ وقت طويل للتراب فى مكان ما فى غابات هورتنجن، بلا قبر، بلا صليب، دون ترك أى شاهد على الأرض؛ آآه، إنه يعيش، ليست بحاجة لأحد يُفهِمها أن الأموات لم يفارقوا الحياة، لكن أحيانًا تقول، لعله كان من الأفضل أن يفارق الموتى بالفعل الحياة، والأمر فى النهاية أن والديها الورعين منحاها لفيرملزكيرشن هذا أمام قس وهيكل؛ وهل ليس بمقدوره، أى القس، أن يدرك، كيف

«يحل عندها أحيانًا»، هذا الرجل، الذى باح حتى بهذه الشامة الصغيرة ثم توارى أبعد، تلك الشامة الموجودة على ظهرها. برد الحساء والقهوة لدرجة أنه كان من الضرورى أن تتمتم للسيدة فروهن، عند تقدمها باتجاههم مع السيدة لويفن، باعتذار خاو مطول، لا ضرورة له بالمرة، لأن السيدة فروهن أدركت على الفور، أن أمرًا غير عادى يدور هنا. روت بعد ذلك، «جلس هناك، وأمسك بيدها، كما يفعل العشاق فى السينما أحيانًا، ممسكًا بهذه اليد الجميلة بشكل مهلك، ولم يمس أحد أيضًا الحساء أو القهوة.»

أعلى، حيث التقوا، لارتداء المعاطف الرسمية، أعلن شتولفوس على السادة أنه ينوى إنهاء المحاكمة اليوم، وللسادة أن يجهزوا أفكارهم وملاحظاتهم بخصوص المرافعة؛ وهو يرى، أنه من الممكن، الانتهاء من أقوال الشهود، واستجواب جديد للاثنين جرول، مع كل من الخبيرين البروفيسور بورين وموتريك تاجر القطع الفنية فى موعد أقصاه حوالى السادسة والنصف، ثم وضع فترة للراحة، وربما كانت هناك فترة قصيرة للراحة قبل ذلك. بدا هذا التخطيط بالنسبة للسيد كوجل ـ إيجر مناسبًا جدًا، وللسيد هيرميس بشكل خاص غير مناسب؛ هو بالطبع، كما قال، ليس فقط غير موافق على جدول العمل هذا، بل يساوره بعض الشك، هل سيتحمل موكلوه «إجهادًا كهذا» دون ضرر، مع ذلك حصل بحجته هذه على ابتسامة ودودة من شتولفوس وساخرة من كوجل ـ إيجر، ثم تقبل بابتسامة متجهمة الرجاء الذى تفوه شتولفوس به بشكل ودى، بعدم اللجوء

لحيلة نوبات الدوار والإغماء؛ قال شتولفوس أثناء نزولهم من أعلى، من الممكن، دون أن تخلو نبرة صوته من تلويح بتهديد خفيف، من الممكن، فى حالة تخوفه، أى السيد هيرميس، من الدوار أو الإغماء، استدعاء دكتور هولفن الملائم باقتدار لمثل هذه الحالات من مستشفى ماريا الذى يبعد حوالى دقيقتين. السيدة شروار أيضًا مستعدة لتقديم العون. هيرميس، الذى كان يأمل فى صمت، أن يُطلِع إحدى صديقات المدرسة لزوجته، كانت تكتب من وقت لآخر تقارير لإحدى الجرائد التى يتجاوز توزيعها حدود المنطقة، وزيارتها متوقعة فى وقت متأخر من المساء، أن يُطلِعها فى المساء على دقائق غريبة تخص القضية ويقودها فى الصباح إلى المحاكمة، شعر بأنه لا بالقدر القليل، بل إلى حد ما أمام مفاجأة وظن فى إرجاء القضية للنظر فى أسباب الاستئناف المحتملة.

الفصل الثالث

من الحاضرين الاثنى عشر فى فترة ما قبل الظهيرة بقى فقط ثلاثة: السيدة هيرميس، والسيدة كوجل ـ إيجر، وبرجنولته، الذى كان لا يزال يفكر فيما إذا كان طعام هذا المحل الذى نُصح به كـ«أفضل مطعم فى المنطقة» يمكن أن يكون فى حقيقة الأمر رديئًا إلى هذا الحد، كما كان وقع طعمه عليه، أم أن هذا الانطباع مرجعه «نزعة وليدة مصادفة من عصب حاسة التذوق» فحسب، لأنه لم يكن بمقدوره تصور أن جرلبر، الذى كان ولعه بالطعام أمرًا معروفًا حتى لدرجة أنه كان يظهر من وقت لآخر كخبير هاو فى جنح ذات صلة تدور حول انتهاك قانون السلع الغذائية ـ ولدرجة أن يكون صوت التلذذ بالطعم الذى صاحب التوصية بالمطعم هناك لم يكن جادًا. جلس مستغرقًا فى التفكير على مقعده القديم، راضيًا فى أول الأمر، ثم متكدرًا بعض الشىء، لأن مجموعة الحاضرين قل عددها إلى هذا الحد. تغيب فى فترة بعد الظهر: زوجة الأخصائى الاجتماعى بقطاع المرور السيدة هاوزر، من كان عليها إعداد

محاضرة لزوجها عن مشكلات إشارة المرور؛ كان يجب فيها تحليل إحصائيات، وتسجيل عبارات دالة، وترتيب فقرات المحاضرة؛ غاب غيرها: أجنيس هال لأسباب معروفة، ولويفن الجزار مواطن هوسكيرشين، زوج أخت جرول، لأن عليه أن يذبح لعقد قران كبير، سيعقد فى اليوم التالى، خنزيرًا وعجلاً، واثنان من زملاء جرول الأب، كانا يعنيهما، سماع أقوال مراجع الحسابات، ولم يكن بمقدورهما التضحية بوقت بعد الظهيرة، وطلبا من جرول عن طريق شروار، خفير المحكمة، بإخبارهما بأهم ما جاء فى هذه الأقوال فى أقرب فرصة؛ السيدة شورف ـ كريدل لأسباب معروفة وبخلاف هؤلاء ثلاثة مواطنين متقاعدين، كانوا يمَضون وقتهم عادة فى فترة الضحى كـ«طلبة لمادة الجنائى»، ويتدربون بعد الظهر فى حجرة خلفية هادئة بمطعم «دورق الجعة» استعدادًا لدورة الإسكات، التى نظمتها فى يوم السبت التالى فى مدينة فولرزهوفن بالإقليم المجاور لجنة «السعادة لمواطنينا المسنين»؛ هؤلاء الثلاثة، مزارع مسن، ومدرس مراحل عليا متقاعد، وكبير عمال فى سن الثمانين تقريبًا، وجدوا كلاً بمفرده «شيئًا ما غريبًا فى الأمر»، ولا شىء أكثر من ذلك يثير الانتباه، لأنهم كانوا على علم بالواقعة كلها.

من بين الحضور كان فقط اثنان جدد: المزارع الشاب هوبناخ، زميل جندية سابق لجرول الابن من قرية كيريسكيرشن المجاورة، كان إلى جانب أسباب أخرى له تعامل مع صندوق توفير الدائرة بسبب قرض، وموظف بالجهاز الإدارى للدائرة متقاعد اسمه ليوبن، تم استبعاده، له صلة قرابة بشتولفوس. لفترة وجيزة ارتاب

برجنولته فى أن يكون كل من المزارع هوبناخ وليوبن المسن على السواء صحفيين، وسرعان ما تحرر من هذا الارتياب بعد تدقيق سريع فى مسلكهما وتعبيرات وجهيهما.

كان ابتهاج رؤساء المحكمة والمتهمين الكبير بشكل محسوس يستحق جمعًا من الحضور أكبر بكثير؛ فى الصباح بدا على الاثنين جرول بشكل خاص ملامح الاسترخاء والهدوء، أشعت فىَ الحال من وجهيهما بهجة، أصلحت المزاج الكدر للمحامى. بدا المدعى العام غير نكد المزاج بسبب الطعام غير الموفق: طلب من شميتس أن يعد له بسرعة أحد أطباقه الشهيرة من الأوملية سوفلية كحلو ثان؛ الاثنان جرول، حباهما القدر بشكل خاص، فقد كانا النزيلين الوحيدين لمطعم شرفات نهر الدور، اللذين لم يمسهما اضطراب إعداد الطعام؛ هذا الخبر الاستهلالى، الذى ترتب عليه اضطراب فى إعداد الطعام، بدأته السيدة الشابة، بوضع وجبة كريات اللحم البتلو، النوع الوحيد المعد جيدًا فى هذا اليوم، فى عمود طعام الاثنين جرول. القهوة، التى امتازت بشكل خاص فى هذا اليوم أنعشت جرول الأب بشكل هائل، ودخن معها سيجارًا من هذا النوع، الذى نادرًا ما كان شميتس، على حد علمه، «يسمح بإفلات» واحد منه: خلطة تبغ خالصة إلى أبعد حد لطيفة التتبيل. الخبر الاستهلالى للسيدة إيفا شميتس، أنها سترزق بطفل، وضع جرول الابن والأب على السواء فى حالة حقيقية من النشوى: قاما بالتناوب بأداء رقصة قصيرة مع عروستهما أو بالأحرى زوجة الابن وسألاها بشكل متكرر، هل هذا أمر أكيد فعلاً. المدعى العام، وقد

ألهب حماسه حقيقة أن الأداء-المخطط له بدا متعثرًا لزميله هيرميس، كان أول طلب له بعد فترة الراحة مثول جرول الأب ثانية كأول شخص أمام القضبان وسؤاله بمزاج طيب، عما إذا كان قد أخطأ، عندما قال، إنه اصطدم حقيقة بالقوانين، وبقوانين الضرائب، مع أنه لم تُوقع عليه عقوبة. قال جرول لا، لم تُوقع عليه عقوبة من قبل - فيما عدا أوامر متعددة بالحجز...، وبناء عليه قاطعه المدعى العام مبتهجًا وقال لا، إنه لا يقصد هذه، هو يبحث فقط عن تفسير للحقيقة الغريبة، التى وقعت عيناه عليها عندما تصفح الملفات من جديد، وهى أن جرول، على الرغم من استدعائه للتجنيد فى عام ١٩٤٠ فإنه كان فى نهاية عام ١٩٤٢رقيبًا، وفى نهاية عام ١٩٤٣ كان مما يدعو للدهشة برتبة جندى عادى ثانية. قال جرول مبتهجًا، آه ها، هذا أمر تفسيره سهل جدًا، فقد تم تجريده من رتبه فى صيف عام ١٩٤٣ . قال المدعى العام، آه ها، مع الحفاظ على روح البهجة، يبدو أنه أمر عادى جدًا، فى حركة واحدة تم تجريد جميع الجنود من الرتب؟ قال جرول، لا، وهنا لم يعد مبتهجًا، بل سعيدًا، فقد تم عرضه على محكمة عسكرية، وحُكم عليه بالسجن لثمانية شهور، قضى منها ستة شهور، فى شكل حبس احتياطى. هنا تدخل الدفاع بشكل انفعالى وسأل الرئيس، هل يجوز هنا وصف عقوبة عسكرية بأنها عقوبة سابقة. رد المدعى العام، بأنه لم يصف حتى الآن أى عقوبة عسكرية بأنها عقوبة سابقة، ورد الرئيس على السيد هيرميس بهدوء قائلاً، هذا يتوقف على الجريمة سبب إدانة جرول. سأل المدعى العام جرول الأب مبتسمًا،

هل يود، لو تم استجوابه فى هذا الآن، الخوض فيه أم لا. دون مشاورة الدفاع، هز جرول رأسه وقال نعم، سيخوض فى ذلك. وبناء عليه قال المدعى العام: «احك لى إذاً، ما حدث فى ذلك الوقت.» حكى جرول، أثناء فترة التدريب الأساسى كان يتلقى دائمًا الأمر بأداء أعمال نجارة، تارة فى شقق الضباط وضباط الصف، وتارة يقوم بهذه الأعمال لهم فى ورشة الكتيبة؛ وعندما رحل فوجه بعد ذلك إلى فرنسا، بعد انتهاء الحرب هناك (سؤال اعتراضى من المدعى العام: «تقصد حملة فرنسا العسكرية؟» أجابه جرول: «أقصد الحرب») كان فى رون أول الأمر، وبعد ذلك فى باريس؛ وبسبب «براعته» كان يصعد باستمرار لمستويات أعلى، عمل فى آخر الأمر لمقدم، وعلى الأخص فى طراز «لويس السادس عشر فقط - كانت نزوة امرأته»؛ بعد ذلك تم مصادرة ورشة نجارة صغيرة لصالحه فى ضاحية باسى الباريسية، كشك صغير، به كل شىء كان يحتاجه؛ كان يتوجه إلى هناك فى الصباح، يعمل، وفيما بعد كان ينام هناك، بل وعقد صداقة بعد ذلك مع زميله، صاحب الورشة، وفرض على المقدم، أن يعمل معه؛ كان اسم الزميل إريبو، وهو لا يزال صديقه لليوم. يمتلك إريبو الآن محل أنتيكات مزدهرًا؛ توصل إلى فكرة فتح محل كهذا أثناء الحرب أثناء تعاونه معه، أى مع جرول؛ كان إريبو نجارًا ماهرًا جدًا جدًا، فى الموبيليا أساسًا، لكن ليس فى الموبيليا الإستيل، وقد قام هو، أى جرول، بتعليمه إياها. بعد هذا، عمل إريبو بشكل كلى لحسابه الخاص، لم يكن لدى المقدم أدنى فكرة، وهو، أى جرول، تركه بالطبع دائمًا يجهل الأمر؛ كمودينو

صغير، يمكنه تجديده فى بيته كرجل حر فى أسبوع أو حتى ثلاثة أيام، استغرق من وقته ما يقرب من شهرين. ثم، فى أحد الأيام، قال للمقدم، إنه بمقدوره أن يكسب فى بيته من هذا العمل بكل راحة من أربع - إلى خمسمائة مارك فى الشهر، وأن راتب الجندى العادى هو فى الحقيقة أجر بخس. ضحك المقدم، وتم ترقيته هو بعد ذلك بسرعة مذهلة لعريف، ثم صف ضابط، وبعد ذلك لرقيب. عُقدت اجتماعات بعد ذلك فى ورشة إريبو، كان يأتى أحيانًا فى المساء بعض الرجال، وأيضًا نساء، يُحضرون معهم نبيذًا وسجائر، وفى كل مرة كان إريبو يودعهم بقوله، من الأفضل لهم وله، أن لا يعرف أبدًا، ما دار عنه الحديث هناك؛ كان على باب الورشة لوحة: قوات الدفاع الألمانية أو شىء كهذا. فيما بعد كان يذهب باستمرار إلى السينما أو للرقص ويعود إلى البيت بناء على رجاء إريبو دائمًا فى حوالى منتصف الليل على الأقل. وفى إجابة على سؤال للمدعى العام ألقاه بلطف خبيث، ألم يكن ذلك فى نظره، أى جرول، مثيرًا للشك؟ قال جرول، مثيرًا للشك: لا، لكنه فكر بالطبع، أن الرجال والنساء لم يفدوا معًا إلى هناك، لمناقشة نص إعلان الولاء لهتلر. كان بالفعل وقت حرب، وهو، أى جرول، لم يكن لديه الانطباع، أن الفرنسيين كانوا متحمسين جدًا لاقتناء الموبيليا، ساعده فى هذا إريبو وساعده أيضًا المقدم؛ عرف الكثير من النجارين وتجار المقتنيات القديمة وأيضًا أشخاصا عاديين. أسعار قطع الأساس المشتراة كانت تقدر بالزيد، والسجائر، والبن، «وفى الحقيقة بصوت مرتفع جدًا، يتيح للجيران أيضًا سماع بعض منه»؛ كان يتم دفع كل ثمن بالزبد، والبن،

والسجائر؛ وهو، أى جرول، تنقل كثيرًا فى المناطق المحيطة، إلى رون، امين، وفيما بعد إلى أورليان، وكان يأخذ معه دائمًا لفائف صغيرة لأصدقاء إريبو: زبد، وبن وخلافه، إلى أن جاء يوم طلب منه إريبو أن يأخذ معه لفافة زبد، حتى مع علمه، بعدم وجود لا زبد ولا سجائر ولا بن فيها؛ حتى هذا الوقت كانت صداقته لإريبو متينة جدًا، أقام وأكل مع أسرته، والسيدة إريبو والابنة الصغيرة كانتا غاية فى الود معه عند وفاة زوجته ـ طلب من إريبو أن يخبره، ماذا كان بداخل اللفافة، ورد عليه هذا «لا شىء يضر، مجرد ورقة، مطبوع فيها لسوء الحظ أشياء، لا تسر مقدمك كثيرًا». حسنًا، أخذ معه اللفافة، عدة مرات، إلى أن حذره وهمس له فى يوم ما أحد الجنود فى مركز القيادة، حيث تحتم من وقت لآخر التوجه إلى هناك، لإحضار كوبونات حصته من الغداء وراتبه، بأن الورشة تحت المراقبة. وبالتالى قام بتحذير إريبو، الذى اختفى مع أسرته فى الحال؛ بعد يومين تم القبض عليه هو نفسه؛ اعترف، بأنه حمل معه اللفافة، إلا أنه لم يعترف بعلمه بمحتواها. بعد المحاكمة انهار أيضًا «محل الموبيليا بكامله، لأنه كان أساس الموضوع، كما تبين»، وتم تجريد المقدم أيضًا من رتبه. وبسؤاله، هل شعر بأن هذه العقوبة عادلة وأحس بوخز الضمير، قال جرول لا. لم يشعر بأدنى وخز للضمير؛ وهل أحس بأن العقوبة عادلة ـ حسنًا، عادلة، إنها كلمة كبيرة، ومحيرة بشكل خاص فى إطار حرب وتبعاتها. لا بأس، إحساسه بالكلمات عادل وعدالة محير إلى اليوم أيضًا؟ قال جرول، نعم، «مازال إلى اليوم أيضًا بلا ريب محيرًا». وقد قال بالفعل، إنه

لم يهتم أبدًا بالسياسة، كيف له إذاً أن ينحاز لهؤلاء الناس؟ لمجرد أنه ليس لديه أى اهتمام سياسى، إنحاز لهؤلاء الناس؛ أحبهم. «لكنك لا تفهم هذا حقيقة.» احتد المدعى العام وحَظَرَ معاودة تلقى رأى فلسفى من المتهم، وبخلاف ذلك ليس لديه أى سؤال آخر يوجهه له، اعتقاده واضح له الآن تمامًا ويزيد وضوحًا بربطه باعتقاد هورن؛ واسترعى انتباهه أيضًا، أن المتهم يرى أن أغرب الأمور «طبيعية»؛ يصف كل شىء بأنه «طبيعى». وبخ الرئيس بألفاظ جادة عبارة جرول «لكنك لا تفهم هذا حقيقة» وبمزاج لم يعد رائقًا تمامًا، لأنه رأى الوقت الثمين يتلاشى، سمح بسؤال من الدفاع إلى جرول. هو: ماذا فعل جرول فى السجن الحربى وبعد إطلاق سراحه؟ جرول، منهكًا وفى لا مبالاة: «رممت موبيليا، بعد ذلك فى أمستردام.» ردًا على سؤال له من الدفاع، هل لم يشارك بالفعل فى عمليات عسكرية، قال جرول: «لا، كنت أناضل فقط على جبهة الموبيليا، بشكل أساسى على جبهة طراز لويس السادس عشر والديركتوار والأمبير[1].» طلب المدعى العام توبيخ تعبير «جبهة الموبيليا»، فهو يلمح فيه انتقاصًا من قدر شهداء الحرب الأخيرة، وأيضًا من قدر والده، الذى لم يسقط شهيدًا على جبهة الموبيليا. قال جرول، الذى طلب منه الرئيس، الإفصاح عن رأيه بشأن هذا الاعتراض المبرر، بصوت هادىء للمدعى العام، أن رأيه لا يهدف للنيل من ذكرى الشهداء، فأسرته قدمت شهداء: أخًا، وعمًا، زوج

---

(١) أسماء لاتجاهات فى الأزياء والزخرفة وصناعة الأثاث عُرفت فى فرنسا بعد عصر الباروك وسادت فى القرن ١٨ و١٩. (المترجم)

أخت، وبخلاف هؤلاء استُشهد أعز أصدقاء فترة شبابه، المزارع فيرملزكيرشن مواطن دولبنفايلر، أما هو، أى جرول، فقد ناضل فقط على جبهة الموبيليا، وكثيرًا ما تحدث مع إخوته، ومع زوج أخته لويفن، ومع صديقه المتوفى فيرملزكيرشن عن عمله، بل حتى صديقه فيرملزكيرشن، الذى كان صف ضابط فى سلاح الطيران يحمل ما قد يكون أعلى وسام شرف، قد طلب منه: "دافع عن الموقع بجبهة الموبيليا"، فهى ليست كلمته، أى جرول، بل وليدة فم أحد الجنود المقلدين بما قد يكون أعلى وسام شرف، واستُشهد. وهو يشعر بأنه غير ملزم بسحب التعبير.

استجواب القس كولب مواطن هوسكيرشين البالغ من العمر حوالى ثمانين عامًا سار كحديث بين الأصدقاء تقريبًا؛ اتخذ من وقت لآخر شكل محاضرة اللاهوت فى معاهد التعليم الأهلية، تضمن بعض عناصر النميمة، ولراحة الرئيس، وخيبة لرجاء السيدتين هيرميس وكوجل - إيجر القليل مما جعل القس معروفًا على نطاق أوسع من دائرة بيرجلار: القليل من «طرافته المتأججة غير الهيابة»، الماثلة حقًا فى آرائه، لا فى طريقة تلفظه بها. برجنولته، الوحيد الذى لا يعرفه من بين الحاضرين (فقد عرف الزوجان كوجل - إيجر فى زيارتهما الأولى لهوسكيرشن نماذج من خصاله)، وصفه فى المساء أمام جرلبر بأنه «خامة أصلية، وتعرف جيدًا، ما أقصده».

قدم الرئيس لكولب بلباقة متحفظة، لا يمكن أن يكتشف فيها أمكر الماكرين أثر إهانة، كرسيًّا، رفضه كولب بتحفظ لبق أيضًا، لا ينطوى على أية إهانة.

قال القس، إنه يعرف جرول الأب لا من أولى فترات الشباب فقط، بل منذ أن كان فى سن العاشرة؛ فى ذلك الوقت كان يأتى بشكل متكرر إلى هوسكيرشن لخالته فيرملزكيرشن. عرفه جيدًا، منذ أن كان ابن السادسة عشرة وبدأ «فى الخروج مع السيدة إليزابت لويفن، زوجته الأخيرة». كان السيد جرول معروفًا له باستمرار كإنسان مجتهد جدًّا وأهل للثقة؛ أنه متعاون ورزين إلى حد ما، لكن يمكن إرجاع ذلك إلى خبرات كئيبة جدًّا من سنوات الطفولة. سأله عنها المدعى العام، فقال كولب، إنه لا يرى أى داع لذكر أى شىء عنها؛ أشياء كهذه يمكن بسهولة تجريدها من سياقها واستغلالها. بعد ذلك سأله المدعى العام، الذى لم يجرؤ، على الإصرار على هذا الأمر، ما موقف جرول الدينى، فأظهر كولب بوادر من خصاله الشهيرة، بأن قال، بصوت أعلى قليلاً مما سبق، إنه يقف هنا أمام محكمة دنيوية، وسؤال كهذا ليس من اختصاص أحد هنا، فهو بخلاف هذا سؤال، لن يحظى أيضًا بإجابة أمام محكمة كنسية، ولم يجب على مثله أبدًا. لقنه الرئيس بلباقة تعليمات تفيد بأنه بمقدوره رفض الإجابة على سؤال المدعى العام، والأمر يتعلق هنا، بتكوين تصور عن طبيعة جرول، وأنه، أى السيد الموقر كولب، قس فى كل الأحوال، وربما لم ينعدم تمامًا ما يجيز الاستفسار عن هذا الجانب لطبيعة جرول. أنكر كولب، بنفس لباقة

شتولفوس، علاقة الدين بطبيعة المرء، قال، نعم، متوجهًا للمدعى العام، معاودًا رفع صوته قليلاً وهو يتكلم، هو ينكر حتى العلاقة بين الدين ودماثة الخلق. شىء وحيد يمكنه قوله، كان جرول باستمرار إنسانًا دمث الخلق، وأيضًا لم يتحدث أبدًا باستهجان ولا إزدراء عن أمور دينية، بخلاف هذا، وفيما يخص ما هو دنيوى، قدم خدمات جليلة جدًا لمقر إقامة القساوسة بهوسكيرشن عند إعادة بناء وترميم الكنيسة المتهدمة بشكل مخيف؛ هو أيضًا محب للأطفال، قام بيديه فى «السنوات العجاف» بعمل لعبة رائعة من الخشب للأطفال، ممن لم يكن لديهم أمل فى هدية رأس سنة من هذا النوع. هنا طلب جرول الأب الكلمة بإشارة من يده، تلقاها من الرئيس وقال، إنه يريد دون أن يُطلب منه أن يوضح هنا، أنه لا يعنى بأمور الدين؛ وهو على هذا الحال منذ وقت طويل جدًا، منذ أن تلقى على يد سماحة السيد القس تعليمات الزواج، أى منذ حوالى خمس وعشرين عامًا. قال القس بناء على ذلك، من الجائز، أن جرول يفتقر للإيمان، لكنه، أى القس، يعتبر جرول أحد المسيحيين القلائل لديه فى هذه الناحية. وعندما قال المدعى العام، بلباقة شديدة، مبتسمًا وبود، إنه مندهش حقًا لسماع شىء كهذا من قس، ويداخله ـ«أرجو، المعذرة» ـ بعض الشك بخصوص ما إذا كان هذا جائزًا ومقبولاً لاهوتيًا، وهل هو، أى القس، لا يتألم من هذه اللامبالاة. قال القس بلباقة أيضًا، مبتسمًا وودودًا إلى حد ما، أمور كثيرة فى هذا العالم تؤلمه، لكنه لا يتوقع من الدولة أى عون على آلامه. أما فيما يخص الجواز والقبول اللاهوتى لزعمه، فإنه، أى

المدعى العام، ربما «نما إلى علمه الكثير عن الجمعيات الكاثوليكية». أباح الرئيس لنفسه قفشة، بسؤاله المدعى العام، هل يعنيه، الاستعانة بما يمكن أن يكون رأى خبير لاهوتى أعلى، فيما يخص المعتقد الدينى لجرول؛ أحمر وجه المدعى العام، وضحك محرر المحضر الباشكاتب أوصم بسخرية، وحكى بعد ذلك فى المساء لزملائه فى الحزب، «كاد الأمر يصل إلى حد الشجار». سأل الدفاع القس، هل حقًا أنه وجد السيد جرول ذات مرة يدخن فى الكنيسة. قال القس، نعم، مرة أو حتى مرتين وجد السيد جرول يدخن الغليون فى الكنيسة؛ كان جرول ـ ربما قد وعد زوجته المتوفاة بذلك ـ يجلس أحيانًا فى الكنيسة، فى غير أوقات الصلاة، وهو وجد بالفعل السيد جرول جالسًا فى أحد الصفوف الأخيرة يدخن الغليون؛ فى الحال أفزعه ذلك للغاية وأثار حفيظته، أحس به وكأنه تجديف، ثم، عندما رأى تعبيرات وجه جرول، نادى عليه، وربما أيضًا وبخه قليلاً، واكتشف على وجهه تعبيرًا «حالة من الورع البرىء تقريبًا». أضاف القس، «كان غارقًا فى الأحلام تمامًا ومغيب العقل، وتعرف سيادتك، يمكن لمدخن غليون، كما كنت أنا نفسى أحدهم، تفهم أن غليون التبغ يصير تقريبًا جزءًا من الجسد، حدث لى هذا دون أن أدرى وأنا بصدد الذهاب إلى الموهف[1] لاحظت فجأة، أنه فى فمى، وعندما جذبت رداء القداس فوق رأسى، اعترضنى الغليون فى فتحة الرقبة الضيقة، ـ ومن يعرف ـ لو لم يكن مساعد

(١) غرفة لملابس أفراد الإكليروس والأدوات المستخدمة فى طقوس العبادة بالكنيسة.(المترجم)

القديس موجودًا، ربما توجهت، بالغليون فى فمى إلى المذبح. «تم تلقى ملاحظة القس هذه من قبل المحكمة، والمتهمين، والحضور بشكل مختلف: قالت السيدة كوجل - إيجر فيما بعد، إنها لم تصدق أذنيها، والسيدة هيرميس رأت هذا «رائعًا»، وقال برجنولته فى المساء لجرلبر: «أعتقد، لم يعد عقله سليمًا تمامًا»؛ أما الرئيس، والدفاع، والمتهمان فضحكوا، وقال المدعى العام لزوجته فى المساء، لقد كان مروعًا فى الحقيقة، بينما ضحك هوبناخ الشاب، وطوح ليوبن المسن برأسه وفيما بعد حكى أن الأمر أخذ «بالقطع منحىً بعيدًا للغاية». سأله الدفاع، ماذا بوسعه أن يقول عن جيورج جرول، قال القس، الذى التفت مبتسمًا لجرول الشاب، إنه يعرفه فى الحقيقة منذ ميلاده، فقد ولد بالفعل فى هوسكيرشن، وقام هو، استجابة لأمنية أمه التى كانت تحتضر، بتعميده فى البيت، والتحق بالمدرسة فى هوسكيرشن؛ باختصار: يعرفه، بأنه يميل إلى أمه فى الشبه، إلا أنه «أشد منها صرامة»، كان شابًا منظمًا ومجتهدًا، ومع أبيه قلبًا وقالبًا؛ قامت جدته على تربيته فى أولى سنوات حياته، وبعد ذلك، بعد الحرب، والده بمفرده، عندما وصل إلى سن الثالثة. تغير جيورج فقط، منذ أن تم تجنيده بقوات الدفاع الألمانية. أيضًا حقيقة أن والده وقع فى هذا الوقت بشكل متزايد فى مصاعب، وخاصة «الملل، هذا الملل الفائق للوصف»، أصابت بقسوة الشاب الطيب، السوى، شديد الإقبال على الحياة وشديد الاجتهاد، وغيرته، جعلته «ساخطًا، بل، جاحدًا تقريبًا». هنا قاطع المدعى العام القس، بلباقة وبثبات، وقال، شخص، يصبح بسبب الخدمة فى

مؤسسة ديمقراطية مثل قوات الدفاع الألمانية ساخطًا، بل جاحدًا تقريبًا ـ وهو ما لا يدهشه بالنظر للمعتقد ولسيرة الحياة، لمجمل فلسفة حياة جرول الأب التى تتجلى هنا ـ، أقصد شخصًا، يصير هناك جاحدًا، لا بد أن يجلب معه نزاعات أخلاقية معينة، لذلك فسؤاله الموجه لحضرة القس، فيما تم إذاً التنفيس عن جحود جرول الشاب؛ عارض القس، بنفس لباقة وثبات المدعى العام، هذه الفرضية الخاصة بالنزعات الأخلاقية، الضرورية، لجعل شاب بسبب الخدمة العسكرية ساخطًا، بل، جاحدًا؛ لا شىء أشد إفسادًا لشاب أكثر من الاطلاع على ومعرفة مؤسسة عملاقة كهذه، يقتصر هدفها على إنتاج تفاهات لا معنى لها، الخواء الكلى تقريبًا، السفه ـ إذاً، هذا رأيه فى الموضوع، ثم بخلاف هذا لا بد أن يكون عنده، أى القس، أيضًا نزوع أخلاقى للجحود، فقد خدم فى عام ١٩٠٦ كمتطوع لمدة عام فى سلاح المدفعية، وخبرته مع الخدمة العسكرية كانت بالنسبة له «غواية خبيثة نحو العدمية». والآن فيما يخص السؤال الأساسى للسيد المدعى العام، كيف تم التنفيس عن جحود جرول الشاب، حسنًا، فى أول الأمر قام جرول، الذى، وإن كان غير ورع، فقد كان حقيقة شابًا مؤمنًا ومخلصًا للكنيسة، بدأ، بقول آراء مزرية عن الكنيسة فى سياق أمر يخص شخصًا رفيع الشأن، كان كاثوليكيًّا جدًا. قال جرول الشاب له، أى للقس، إنه، أى القس، ليس لديه أدنى فكرة، بما «يدور هناك فى الخارج»، كان دائمًا يسمعه هو، أى القس، فقط يلقى الوعظ، ومنه تلقى تعليمه الدينى، واقترح عليه، أن يؤسس الـ«كنيسة الكاثوليكية لهوسكيرشن». إلا أن جحود

جرول الشاب وجد متنفسا فى لوحات وتماثيل ذات مضمون تجديفى، أيضًا قام ذات مرة بلصق ورقة على تمثال خشبى، ثالوث العذراء، رممه بالاشتراك مع والده فى أحد أيام عطلات نهاية الأسبوع ونقله بتكليف من أحد تجار المقتنيات الفنية عند السيدة شورف ـ كريدل، على هذه الورقة عبارة جوتس فون برليشينجن(١)، التى أوردها حرفيًا ووقع تحتها بـ «عذرائكم المقدسة». أثبت المدعى العام بتهكم رقيق للغاية أن التعبير كاثوليكى جدًا، استخدمه قس مرموق مع أحد ضباط قوات الدفاع الألمانية، إلا أن صداه غريب بعض الشىء بالنسبة له، أيضًا كشأن آراء سماحة القس فيما يخص مؤسسة نشأت بطريقة ديمقراطية، ومنوط بها، الدفاع عن تلك القيم، التى يجب أن تعنى بالحفاظ عليها بالذات الكنيسة، تلك التى تختلف تعاليمها بشأن هذا الأمر عن التعاليم التى يمثلها السيد القس؛ هو، أى المدعى العام، يعتبر هذه الآراء آراء صادرة عن نبع المحبة المفرطة؛ ما يتراءى له على الأقل، وهو الخلاصة: الجندية تساوى مدرسة للعدمية، يُشاع فيها، أن مؤسسة كهذه فى خدمة أغراض النظام والتربية. قال القس بلباقة، دون أن يطلب الكلمة،

(١) أحد الفرسان الأبطال فى نهاية العصور الوسطى، القرن الخامس عشر، اقترن اسمه بـ «ذى اليد الحديدية»، لاستخدامه ذراعًا حديدية عوضًا عن ذراعه اليمنى التى فقدها فى أحدى المعارك، حارب الظلم وناصر الحق فى حروب الفلاحين فى هذه الفترة. خلده جوته فى مسرحية حملت اسمه. والثابت يقينًا أن المقولة الواردة جاءت على لسان جوتس بطل مسرحية جوته. لم يدرج هينريش بل نص العبارة ربما لانتشارها فى لغة الحياة اليومية، بشكل يتيح تداعيها حرفياً بمجرد التلميح لها، أو بسبب بذاءة معناها لدى العامة. ترجمتها الحرفية: «مع بالغ احترامى لسمو عظمة إمبراطورك. يستطيع فقط، أبلغه ذلك، أن يلعق دبرى» وقد تستدعى فى ذهن العامة معنى أكثر بذاءة. (المترجم)

متوجهًا بشكل ودى للمدعى العام، آراؤه، أى القس ليست صادرة عن نبع المحبة المفرطة، بل إنها غير محل شك من الناحية اللاهوتية؛ ما وصفه، أى المدعى العام، بتعاليم الكنيسة، صادر عن ضرورة، للتَكيف مع سلطات هذا العالم، وهذا ليس لاهوتًا، بل تكيفًا. هو، أى القس، نصح جرول الشاب فى ذلك الوقت، برفض التجنيد، إلا أن جرول قال، هذا يمكن فقط لأسباب مرتبطة بالضمير، وليس لضميره أى دور بالمرة فى هذا الشأن، فضميره كما يقال لا يعنيه أبدًا أمر قوات الدفاع الألمانية، بل عقله وخياله، وفى الحقيقة أدرك، أى القس، أن كلمات الشاب تنطوى على رأى عميق، لأنه لا يعول بقدر كبير على الضمير، الذى يسهل التلاعب به، ويمكن أن يتحول إلى قطعة مطاط أو حجر، لكن العقل والخيال بمثابة هبات إلهية للإنسان؛ هكذا استطاع أيضًا أن يقدم للشاب جرول بعض العزاء، لأنه هو نفسه قد وعى، كيفية التعامل بسخف مع هاتين الهبتين الإلهيتين، عقل وخيال الإنسان؛ ولا يجوز إساءة تقدير، الظرف الخاوى تمامًا من أى معنى الذى تواجد جرول الشاب فيه؛ كان عليه أن يتفهم، كيف تورط والده أكثر وأكثر فى المصاعب، بينما هو، الشاب، كان يقوم بأعمال نجارة لملحقات بار فى منتديات قمار خاصة بضباط الصف والضباط مقابل أجر بخس: بالطبع كانت هذه المأمورية وبيلة للغاية، فقد...، هنا قاطع الرئيس القس بلباقة وطلب منه، ألاّ يدلى بأقوال عنها، لأن هذا البند من المحاكمة سيكون فى عدم وجود الجمهور، حيث سيتم بشأنه استجواب الرئيس السابق لجرول. عندئذ ضرب القس بيده على جبهته وعلا

صوته قائلاً: «آه، هذا الشخص ـ أمر طبيعى، أنى لم أتوصل إلى ذلك! هذا الشخص كان يمكن أن يدفعنى للكفر فى أيام قليلة، لو كنت شابًا.» ثم قال ما من أسرار فى هذه المأمورية، القرية بأكملها تعلم بأمرها. أبلغه الرئيس بأن هناك فرقًا بين أن القرية بأكملها علمت بأمر ما أو عرفت به من خلال عدم التكتم ـ متوجهًا للمدعى العام قال دون أن يخلو كلامه من الحنق، ربما يفكر السيد المدعى العام فى مقاضاتى بسبب إفشاء سر ـ أم أن مأمورية كهذه، وهى بمثابة تكليف رسمى، أى سرى، سيتم النظر فيها علنًا. قال بكياسة، «إذا كنا نتفاوض هنا بهذا الشأن، فإن هذه المأمورية، وهو ما لا يمكن أن يتسبب فيه ثرثرة ثلاثة أو أربعة من أهل القرية: «موثقة بملفات، وواقع الأمر بالنسبة للملأ موثقة بملفات» ، وهذا ما يميز محاكمة كهذه عن شائعات وثرثرة، دون الأخذ فى الاعتبار، صحتها من عدم صحتها؛ عند هذه النقطة ضحك المشاهد هوبناخ طويلاً وبصوت مرتفع جدًا، لدرجة أنه، بعد أن تلقى نظرة حادة من شروار خفير المحكمة، تلقى من الرئيس أشد تحذير وتهديد بالإقصاء من القاعة. حول هوبناخ ضحكه إلى تبسم، وهو ما وصفه المدعي العام بأنه تهكم وكراهية للسلطة العليا، بينما قال الرئيس، إنه أحس بأن تبسم هوبناخ «يعبر عن قليل من الاحترام»، إلا أنه لا يستطيع فى ظل ضيق الوقت المتبقى له أن يقرر، القيام هنا بإجراء تحليل دقيق وتقييم أخلاقى لابتسامة المشاهد. بصوت بارد وابتهاج متواصل، قال جرول الشاب، إجابة على السؤال، ما تعليقه على أقوال القس، إنه يشكر القس على وصفه الدقيق لحالته الروحية والذهنية

وتجنيبه محاولة عرض حالته بنفسه، وهو بالتأكيد ما قد يوفق فيه بدقة أقل من دقة القس. وعليه ألا يحذف من أقواله أو يضيف إليها شيئًا، القس، الذى يعرفه حقًا منذ نعومة أظفاره والذى يجله، قال كل شىء، وهو ما قد يتعذر عليه تمامًا قوله بهذه الإجادة. بتوجيه الشكر تم الإذن للقس بالانصراف. ارتكب مخالفة إجرائية، بأن عانق الشاب جرول وتمنى له، أن يجد من جديد معنى للحياة إلى جوار امرأة ودودة وجميلة، وهو ما رد عليه جرول بابتسامة مشرقة قائلاً، حدث بالفعل. جاء لوم الرئيس على العناق مخففًا جدًا، كان له وقع الاعتذار تقريبًا.

فى فترة راحة، حددها شتولفوس بوقت قصير، طلب من المدعى العام والدفاع، أن يتنازل كلاهما عن شاهد؛ فكل شىء، كما قال، واضح، وإذا كان ممكنًا فعلى الأقل تجنب استجواب السيدتين لويفن وفيرملزكيرشن. بعد فترة تروٍ قصيرة أعرب الدفاع والمدعى العام عن رضاهما، وبذلك أمكن للقس أن ينطلق إلى طريق العودة مع غلامى الإبراشية، من كانا قد تخففا من العبء واضطربا أيضًا. استغلت السيدة كوجل ـ إيجر فترة الراحة، لمغادرة قاعة المحكمة، لأنها كانت قد ضربت موعدًا فى الساعات الأولى من فترة بعد الظهيرة مع الأسطى النقاش فى مسكنها الجديد بهوسكيرشن، بخصوص دهان الخِزانات الثابتة بمطبخها. ولتحقيق أمنيتها، فى استعادة القليل من الجو الريفى المفتقد بشكل موجع لذلك «العش شرق نورنبرج»، قررت الذهاب سيرًا على الأقدام، تذكرت ذلك الطريق المختصر، الذى كثيرًا ما قطعته وهى طفلة صغيرة، الواقع

بطول الجانب الخلفى من الجبانة، عبر دغل صغير، ثم تجتاز نهر الدور؛ بذلك تقابلت مع القس ومع سيدتى هوسكيرشن، وتم التعرف عليها باسم «جرابلز ماريليز» واحمرت قليلاً من الخجل، عندما تحتم الرد على تحية أهل موطنها الحارة هذه بلغة شديدة الصبغة البافارية؛ وصفها القس على سبيل المزاح بـ «خائنة وطنها» ونصحها، بعدم التمسك بجرول، فيما يخص أعمال النجارة فى مسكنها الجديد، بل وسؤال هورن العجوز النصيحة؛ فجرول فى أعمال النجارة الإنشائية سيىء للغاية.

بسؤال الرئيس لجريهن، الشاهد التالى عما يلى، أدلى بأن مهنته حاصل على دبلوم فى الاقتصاد الوطنى ودكتوراه وأستاذية، عمره اثنان وثلاثون، وصرح، أيضًا، بأنه صار يعمل خبيرًا فى بعض الحالات النمطية. جريهن، ذو شعر أشقر، كثيف، ووجهه صبوح كان له شكل يميل أكثر إلى طبيب شاب تقدمى ودود؛ كان منهكًا إلى حد ما من جراء الانتظار الطويل، وعلى الأخص بسبب حديث مضن يشمل جميع أمور الكون مع الملازم أول فى حجرة الشهود، إلا أنه لكى يدلى بشىء فى كلمات قليلة قدر المستطاع عن الوضع الاقتصادى للمتهم جرول الأب، أجاب بالزهو الساخر لمتخصص قائلاً، لا يمكنه، لو كان عليه أن يقول شيئًا ملزمًا، ضمان طول أو قصر أقوله؛ هناك فى الحقيقة شىء نمطى، إلا أن حالة كالحالة الجرولية تقع «تقريبًا فى العصر الجليدى للاقتصاد». قال الرئيس، نعم ـ، يرجى منه الإيجاز، الإيجاز قدر المستطاع، لا الاختصار المخل. جريهن، من كان يسهب فى القول، ويورد أيضًا الأرقام من

الذاكرة، لم يكن ينظر للرئيس ولا للمتهمين ولا للحضور، بل كان ينظر أمامه كما لو كان على منصة خفية أو طاولة تشريح، بدا عليها أرنب يصمد ليديه الماهرتين؛ حركات يديه، التى كان يحدد بها فواصل معينة، كانت إلى حد ما شبيهة بالعزق، إلا أنها لم تكن عنيفة ولا وحشية. قال إنه درس إقرارات الذمة المالية لجرول، بموافقته مع إقراراته الضريبية أيضًا، ويمكنه القول مسبقًا، إن جرول، فى أمر تعسره المالى، ضحية إجراء قاس، لا يرحم، لكن ـ هنا استدار له جرول وأتى بحركة ودية تنم عن التماس العذر ـ «لكن، من واقع ما أراه وأقوم بتدريسه: حتمية»، هى غير مواكبة للعصر تقريبًا، تكرر حدوثها فى تاريخ الاقتصاد، مثلاً فى المرحلة الانتقالية من مجتمع الطوائف فى العصر الوسيط إلى المجتمع الصناعى فى العصر الحديث؛ ومرة أخرى فى القرن التاسع عشر، باختصار: لا يمكن إيقاف هذه العملية بشكل موضوعى، لأن الاقتصاد لا يعرف متاحف يقوم على تمويلها، ويرصد فيها مبالغ مالية للورش غير المواكبة للعصر. هذا هو الجانب التاريخى الاقتصادى للموضوع. ولا يريد التطرق للجانب الأخلاقى أبدًا: لا يوجد جوانب أخلاقية فى الاقتصاد الحديث، مما يعنى: الأمر بمثابة وضع اعتراكى، أيضًا وضع وزارة المالية ـ ممولى الضرائب وضع اعتراكى، يطرح التشريع المالى فيه بنود ـ الغواية، «كما يتم إلقاء قفاز للذئب، الذى يعدو قادمًا خلف زلاجة الجليد، لكن لا»، كان جرول يراقب مبتسمًا، «لصرفه عن ذلك، بل للإيقاع به.» أيضًا من الناحية الأخلاقية ليس هناك ثمة ما يؤخذ على تصرف جرول،

الخطأ الوحيد، الذى اقترفه: ضبطه، وهذا ليس بخطأ أخلاقى. هناك حقًا فلسفة قانون، لكن لا توجد فلسفة ضرائب؛ التشريع المالى يحابى البقرات، التى تدر حليبًا بكثرة، بعدم ذبحها قبل الأوان - بالتطبيق على جرول: البقرات من نوعه وجودها نادر جدًا، لدرجة أن قانون الضرائب يعهد بها للذبح، وإذا لزم الأمر للذبح الاضطرارى. بالأرقام، بلغة مفهومة لغير المتخصص، يبدو الأمر تقريبًا كما يلى: ورشة كورشة جرول تعمل بتكلفة زهيدة للغاية، لأنه لا حاجة للماكينات، والخامات الضرورية قليلة؛ ما يجلب المال، هما اليدان، والموهبة والقدرات الطبيعية، ولذلك آل الأمر إلى ناتج صافى هزلى تمامًا من الناحية الذاتية والموضوعية؛ حقق جرول على سبيل المثال، عندما عمل ابنه معه، فى عام حجم معاملات قدره صدق أو لا تصدق خمس وأربعون ألف مارك، إلا أنهما استطاعا فى هذا العام إثبات تكلفة قيمتها أربعة آلاف مارك فقط، مما يعنى صافى ربح قيمته واحد وأربعون ألف مارك، وضريبة دخل قيمتها حوالى ثلاثة عشر ألف مارك، وضريبة كنسية بقيمة ألف وثلاثمائة أخرى، وضريبة مبيعات بقيمة سبعمائة تقريبًا، وبإضافة التأمينات الإلزامية يكون قيمة مجمل الأعباء أكثر من خمس وخمسين بالمائة، حيث، بلغة العامة، خمس وأربعون بفينيكا فقط من كل مارك ربحًا، نعم، وفى عام آخر ثلاثين بفينيكا فقط آلت لجيب جرول، الذى، مرة أخرى بلغة العامة، أعتبر «صافى ربحه» من كل مارك حوالى من سبعين إلى خمس وسبعين بفينيكا وأنفقهم. وبذلك يكون، هذا قول جريهن، الموقف الاقتصادى الوطنى لجرول، حسب

قوله، ذا معالم محددة بالقدر الكافى. وطالب فقط، بالسماح بإجراء مقارنة: أربعون ألف مارك ربحًا صافيًّا لورشة، «يعمل فيها بحماس رجلان مجتهدان، موهوبان» - ربح صاف بهذه القيمة لا تحققه بالمرة فى أحوال كثيرة ورشة متوسطة بتكلفة تبلغ ما يقرب من المليون؛ ذكر رقم المقارنة هذا فقط، لكى يبين، «يبين بشكل مفهوم»، مدى «السخف من الناحية الذاتية»، والقسوة وعدم الرحمة القسرية من الناحية الموضوعية الذى يضلل به الاقتصاد الوطنى والتشريع الضريبى للمشروعات، «غير المواكبة للعصر» والتى قد لا يكون بمقدورها الانصياع للقانون العام الكبير: فى عمل موازنة متسقة للتكلفة الاستثمارية للقوى العاملة - هيكل حجم المعاملات. أمر ينطوى على سخف ذاتى، يصف مفاهيم العامة بأنها ظالمة، إمكانية مقارنة حالة جرول تقريبًا بفنان، يبدع - سيذكر هنا قيمًا مقبولة فقط، ليست ثابتة إحصائيًّا - صورة بحوالى من مائتين إلى ثلاثمائة مارك «سعر تكلفة»، ثم يبيعها بمبلغ من عشرين إلى ثلاثين ألف مارك أو أكثر. لم يقتن جرول تليفونًا أبدًا، لم يدفع أى إيجار، نفقاته هى نفسها التمويل الضئيل، الضرورى لعمله، ولم يكن لديه أبدًا «تكلفة إعاشة»، لأنه من البديهى كان ذلك الشخص، الذى يمول إعاشته من الزبائن وتجار المقتنيات الفنية، حيث لم يكن عميلاً لهم، بل هم من سعوا وراء عمله. قال جريهن، إنه انتهى من أقواله بجمل قليلة. ويريد أن يوضح بسرعة، ما قد يبدو متعذرًا على الفهم بالنسبة لغير المتخصص: كيف تم الزج بجرول فى ديون ضريبية قيمتها الفعلية - مبلغ غير معقول حقيقة - خمس وثلاثون ألف مارك

ويضاف إليها ستون ألف مارك قيمة الرهونات والفوائد؛ حقق جرول بمفرده فى السنوات الخمس الماضية حجم معاملات بقيمة مائة وخمسين ألف مارك، صافى أرباح بقيمة مائة وثلاثين ألف مارك ـ بخصم، بعد إضافة كل التكلفة، النصف للضرائب، والنصف ثانية قيمة ما قام جرول بـ «دسه فى جيبه على سبيل الخطأ»، يسهل تفسير هذا المبلغ الهائل. كان جريهن ينظر فى النصف الثانى من محاضرته، الذى أطلقه بحدة وباندفاع، بشكل متكرر عبر القاعة إلى جرول، بتعبير غريب، اختلط بالحزن والدهشة. وفى الختام أراد أن يضيف، سياسة الضرائب الحديثة تكاد لا تنم عن أخلاقيات ضريبية، وهذا المفهوم يبرز فى الحقيقة من وقت لآخر، إلا أنه فى حقيقة الأمر مضحك، كما قال هو، أى جرول، غير جائز؛ السياسة الضريبية تسفر عن، خلق تكلفة نفقات، وهو ما يتحتم اعتبارها من أى وجهة أخلاقية بمثابة سخف؛ لو كان عليه، أى جريهن، أن يفصل فى أمر براءة أم إدانة جرول، فيما يخص مسلكه الضريبى، لا فيما يخص الجنحة موضوع التداول هنا، لقال: من الناحية الإنسانية، برىء تمامًا؛ أيضًا من الناحية الأخلاقية، بل الأخلاقية البحتة ليس ثمة ما يستحق الشجب فى مسلك جرول، لكن الإجراء الاقتصادى قاس ولا يرحم، وليس بمقدور التشريع المالى تحمل أى «مهرجين خارج مسيرة الزمن»، فهو مضطر لاعتبار صافى الربح كصافى ربح ولا شىء غير صافى ربح. أضاف جريهن، من طوع رشاقة حيويته بذكاء وتعاطف غير عادى، ووجه إلى جرول سبابته «لا» مهددًا، بل مشيرًا «أنا لست بقاض، لست بقس، أنا

لست بمسئول مالية، أنا مُنظر اقتصاد قومى. كإنسان لا يسعنى إلا أن أبدى للمتهم احترامًا ما: على توفيقه بالنظر إلى ممارساته الحسابية، فى أن يستمر متواجدًا ما يزيد على عشر سنوات، دون الوقوع فى صعوبات أكبر بكثير، وكمُنظر اقتصاد وطنى أقف حيال هذه الحالة ـ حقًّا، كما يقف عالم الباثولوجى(١) حيال حالة سرطان ميئوس منها، موتها(٢) كان متوقعًا منذ خمس سنوات.» على سؤال المدعى العام، هل بمقدوره لا بصفته فقط عالمًا غير مبتدىء، بل كما هو واضح ملمًا بخبرات عملية رفض موضوع الأخلاق الضريبية بشكل قاطع، أجاب جريهن بحدة ما، هذا التعبير مستخدم بالطبع، لكنه ـ وألقى فى شكل محاضرة علنية ومن وضعية مالية تخص شئون الدولة نفس ما قاله فيما يلى ـ، إنه رافض لمفهوم الأخلاق فى علم الضرائب. أمكن لجريهن الانصراف، لعدم توجيه أسئلة أخرى.

فى فترة الراحة القصيرة، التى نشأت، عند النداء على الشاهد التالى ـ هوبرت هال منفذ أحكام القضاء ـ، تسلل من قاعة المحكمة رابع الشهود الأربعة الباقين، ليوبن موظف الجهاز الإدارى المتقاعد: تفصيلات جريهن أعيته بشكل فاق كل الحدود وأصابته بالسأم، ولم يكن ينتظر من هال منفذ الأحكام القضائية وكيرفل مفتش أول المالية ما هو أقل مللاً. تثاؤب هوبناخ أيضًا، بقى فقط، لأنه لم يدرك بعد، أنه سيستبعد من استجواب الملازم أول والرقيب.

(١) علم تشخيص الأمراض. (المترجم)

(٢) يكثر جريهن من استخدام ألفاظ علمية ذات أصول لاتينية لايعرفها غير العلماء المتخصصين. فهو يستخدم هنا كلمة EXitus المستخدمة بهذا المعنى فى علم الطب. (المترجم)

هـال، منفـذ أحكـام القضـاء البـالغ سـتين من الـعمـر، كـان شـعـره الكثيف الداكن، بسبب تمرير أصابعه خلاله باستمرار، كحاله دائمًا منفوشًا فى اضطراب حول رأسه ـ وكما أفضى برجنولته، الوحيد من بين الحاضرين، الذى لم يكن يعرف هـال ـ فيما بعد لجرلبر، «انطباع متناقض: أود أن أقول: ليس فقط متناقضًا، بل بالتحديد مبهمًا؛ كان إلى حد ما متسخًا، وشارد الذهن، ولا يوحى بقدر كبير من الثقة». ردًا على سؤال الدفاع، هل بمقدوره، استعراض العلاقة الإنسانية والعملية مع المتهم كل منها على حدة، قال هـال بلا مبالاة تنطوى على تبجح، هذا النوع من الانفصامية مألوف له بشكل بالغ، لأنه يتعامل بشكل موضوعى مع معظم «عملائه». وفيما يخص العلاقة الإنسانية، فقد كان بالطبع يعرف جرول بشكل جيد جدًا، وكان بينهما انسجام رائع، نعم، بل ما أكثر ما عاقر الجعة معه، حيث كان غالبًا هو من يدعو جرول، لأن حافظة نقود جرول وقتئذ كانت رهن الحجز، وكان يحزنه، الاضطرار لتفتيش كيس عملاته، حافظة نقوده، جيوبه إذا لزم الأمر فى حانة. صاح هـال، «يا إلهى، ما نحن إلا بشر»، ولهذا السبب، لأنه بشر، كان يدفع لجرول ثمن الجعة أو ويسكى الذرة، عندما كان يقابله. طلب منه الدفاع، تحديد مفهوم حافظة نقود رهن الحجز، لأنه يفترض، أن هذا أمر مستحب هنا، فقرأ هـال من مطبوعة إرشادات العمل للقائمين على تنفيذ الأحكام بصوت مرتفع: «يجوز لمنفذ الأحكام تفتيش ملابس وحقائب المدين. ولا حاجة لتصريح خاص من المحكمة التنفيذية. ويقوم منفذ الأحكام بالتفتيش الذاتى لأنثى بمعرفة أنثى موثوق فيها.» قال هـال،

من بدا أن سكون أنفاس من بالقاعة قد هدأ من حميته، إن الأساس التشريعى لتعليمات العمل هذه قائم على المادة ٧٥٨و ٧٥٩ من قانون الإجراءات المدنية، ونص هاتين المادتين هو: «مادة ٧٥٨ القسم الأول: يخول لمنفذ الأحكام القضائية تفتيش مسكن وحافظات المدين، إذا ما تطلب غرض التنفيذ ذلك. القسم الثانى: يخول له، فتح أبواب المسكن الموصدة، وأبواب الغرف والحافظات. القسم الثالث: يخول له اللجوء للقوة، إذا ما وجد مقاومة، ويمكنه طلب معاونة فرق الشرطة الخاصة بالتنفيذ لهذا الغرض. مادة ٧٥٩ فى حالة مواجهة إجراءات التنفيذ لمقاومة أو فى حالة لو لم يوجد عند تنفيذ حكم فى مسكن المدين المدين ولا أحد أفراد أسرته أو العاملين لدى الأسرة الراشدين، على منفذ الأحكام القضائية استقدام شخصين راشدين أو أحد موظفى إدارة الدائرة أو رجل شرطة كشهود.» هال، من بدا مندهشًا من الإصغاء اللاهث لمطالعته نصًا مألوفًا له، استرسل، حيث لم يتعرض من شتولفوس لا لمقاطعة ولا لسؤال، بصوت مثير للشجن، بأن حكى «للسادة»، مدعمًا شجنه بحماس ما، كم من مرة كان مضطرًا للقيام فى أنواع مختلفة من الحانات المخالفة المعروفة للمحكمة لسيدات بعينها بإجراء الحجز على الحافظة»، وهى عملية، تقتصر فى الغالب على نزع أحذيتهن فى اللحظة المناسبة من أقدامهن، «لأنهن يحتفظن فيها دائمًا كما جرى العرف بنقودهن»، وقلب ما بداخل الحذاء بسرعة فى كيس ورقى معد لذلك، ومغادرة المحل بأسرع ما يمكن، قبل تنبيه القواد؛ قال هال، تصحبه غالبًا فى «حالات الحجز على حافظة النقود» هذه

سيدة بعينها هى السيدة شورتس، التى عملت لمدة خمسة عشر عامًا سجانة فى أحد سجون النساء، كانت على دراية بكل الحيل، أيضًا، فيما يخص المخابىء تحت الملابس الداخلية، وهى «سيدة ذات قدرات جسدية عالية»؛ كان له على أية حال متاعبه ـ وهذا أيضًا أمر تعلمه المحكمة ـ مع السيدة شورتس، التى كانت ـ وهو أيضًا سبب عزلها عن العمل فى السجن ـ تميل لإحداث إصابات جسدية. قال هال حالات الحجز على حافظة النقود على أية حال، عمل مقزز؛ وهو يعترف على الملأ، أنه غالبًا ما تهرب منه، لكن كان هناك دائمًا دائنون، يعتبرونه منفذ أحكامهم القضائية ويتمسكون بحقهم.

قال هال بصوت مجهد، لا مبال إلى حد ما، أما فيما يخص ما هو إنسانى، فإن كل شخص فى الدائرة وفى منطقة بيرجلار يعرف ـ وهو لديه مجموعة من العملاء أكبر مما يعتقده راصدو المعجزة الاقتصادية ـ، كل شخص يعرف، أنه ليس بوحش، وأنه ينفذ قوانين فحسب، ينفذ بالقوة الجبرية، حتى لو احتاج الأمر أحيانًا الاستعانة بالشرطة، لذلك لم يكن أبدًا موضع استياء. أكد جرول هذا بعبارته البينية: «صحيح إلى أبعد حد، يا هوبرت، لم أستاء منك أبدًا!» وتلقى لومًا لازعًا من الرئيس على هذه العبارة البينية ـ فالوضع ليس موقف تعارك بهذا القدر، بل بالأحرى موقف صياد وصيده، حيث يجب على الصياد استخدام حيل كثيرة جدًا لصيده، الذى يكون له أفضلية، على أية حال، فإذا كان هو ذكيًّا بالقدر الكافى، لأنه لم يلتزم بالقوانين والتعليمات، وتحرك كما يقال فى منطقة صيد مفتوحة، بينما هو، أى هال، الصياد، فرضت عليه رقابة

صارمة ولم يكن له أن يُظهر أية مواطن ضعف. طلب منه شتولفوس، الذى تحول ثانية للصرامة بشكل مفاجىء، أن يلتزم بالموضوعية وأن «لا يتوه بالكثير ولا القليل فى تشبيهات مبهمة»، تناول هال، كما حكى برجنولته فيما بعد لجرلير، «ورقة مهلهلة بشكل خرافى، شديدة الاتساخ، توحى بعدم الجدية على أية حال» من جيبه وقرأ منها بعض الأمثلة.

يمكن من خلال غرامات تأخير فقط، مع عدم إضافة تكاليف الحجز والإنذار والبريد، أن تتزايد ديون ضريبية بقيمة ثلاث مائة مارك فى سبع سنوات إلى خمس مائة واثنين وخمسين ماركًا، وفى عشر سنوات إلى ستمائة وستين، أى إلى الضعف. وفى حالة مبالغ أكبر، وهو ما كان من أمر جرول فى بعض الحالات، على سبيل المثال فى حالة مبلغ بقيمة عشرة آلاف مارك تتزايد قيمة الديون فى خلال عشر سنوات إلى اثنين وعشرين ألف مارك ألمانى. ثم بإضافة غرامات ضريبية، وهو أيضًا ما كان من أمر جرول، الذى لم يبق مدينًا للضرائب فقط، بتهربه منها، ثم بعد ذلك، نعم بعد ذلك - أطلق هال زفرة بدت طويلة، طويلة للغاية، قال عنها برجنولته فيما بعد، «انتشرت رائحتها فى أرجاء قاعة المحاكمة». بند خاص، هكذا استرسل هال، هو رسوم الحجز والإنذار. وهو يتوقف على عدد مرات الإنذار وعدد مرات أوامر الحجز الصادرة. هناك بالطبع دائنون خبثاء، يعلمون، بأنه ليس لدى المدين «ما يمكن الحصول عليه»، ومع ذلك يطالبون بأوامر حجز جديدة ويرفعون الدين بلا داع؛ هذا يتضح بشكل ملموس فى المبالغ الصغيرة على وجه

الخصوص، لأن الحد الأدنى لرسوم أمر الحجز يبلغ ماركًا واحدًا، والحد الأدنى لرسوم الإنذار ثمانين بفينيكا، يضاف إليهما تكلفة البريد، رسوم فقط، ويمكن أن تصير بسهولة دينًا قيمته خمسة وعشرون ماركًا فى سنوات قليلة وتتضاعف مرتين، وثلاثًا، بل أربع. ولديه هنا حالة الأرملة شملدرز، التى كان زوجها، كما هو معلوم، نادلاً يسىء السمعة حقيقة؛ هذه الأرملة شملدرز... قاطعه الرئيس وطلب منه، أن يتحدث عن جنحة تعطيل تنفيذ حكم الحجز الموجهة إلى جرول من واقع الملفات التى تنظرها المحكمة. قال هال لم يكن الأمر فى الحقيقة تعطيل تنفيذ حكم الحجز، لكن جرول تصرف بذكاء بالغ: فقد كان يقوم مؤخرًا بأعمال مقابل مواد غذائية فقط، وهى تفلت بسهولة من طائلة المصادرة، أما إذا تم مصادرتها، فإنها لا تخلف تقريبًا إلا مشكلات: فعلى سبيل المثال حصل جرول على عشرين كيلو زبدًا مقابل ترميم صوان لأحد المزارعين، عرض ثمانية عشر كيلو منها عليه هو، أى هال، للحجز، وهو، أى هال، أخذها بحمق، وفى الليل هبت عاصفة شديدة، «فصار الزبد زنخًا فى الحال»، لم يفقد من قيمته فقط، بل صار عديم القيمة، وهدده جرول، بأن يرفع عليه دعوى «بسبب التخزين غير المناسب لمادة غذائية رهن الحجز»؛ أمر مماثل حدث مع كميات من لحم الخنزير، وبشكل مشابه مع شميتس المستأجر الحالى لمطعم شرفات نهر الدور، الذى أنجز له جرول عملاً، عملاً هائلاً، مستحقًا لأجر عال جدًا - على وجه الدقة، قام بعمل تجهيز جديد كلى للمحل، وذى قيمة عالية من الناحية الفنية، وحاز إعجاب جميع الزبائن؛ قال

جـرول فـى أول الأمـر، إنـه أهـدى الـتـجـهـيـز لـشـمـيـتـس، فـهـو أحـد أصـدقـائه الـقـدامـى، لـكـنه لـم يفـلـت بـهـذا ـ رجل فـى وضع جـرول لا يمكنه إهـداء هـدايا ثمينة بهذا الشكل؛ ثم اتفق مع شميتس أن يأكل ويشرب كل ظهيرة على مدى سنتين بما قيمته عشرة ماركات ـ كان هـذا هـو المقـابل التقـريبى، إلا أن ذلك لم يسـر، لأن رجلاً فى وضع الحجز الصادر ضد جرول يخضع لظروف الحد الأدنى من المعيشة وهى لا تتيح أية وجبة غذاء بقيمة عشرة ماركات. وبناء عليه «اتفق جـرول على قـوت يومـى، فطـار، غـداء وعـشـاء لمدة سـنـتـين» لـنـفسه ولابنه. سمح شـميتس للاثنين جرول حقيقة بالحد الأدنى للمعيشة، وأعطاهما وجبات غذائية بقيم مختلفة ـ كان يوردها لهما، كما هو معلوم للمحكمة، أيضًا وهما فى الحبس؛ لذلك قام جرول باختزال الحسـاب الوهـمى إلـى الربع ـ حسنًـا، والأمر مازال ساريًا : تدخل فى الأمـر خبـراء، لـتـقـديـر الـقـيـمـة الـفـعـلـيـة لـعـمـل جـرول؛ هـذا أمـر من الناحية القانونية غير معقد بالدرجة التى يبدو عليها. على أية حال، رغم كل هـذه الحيل والمراوغـات، الـتـى قـام بـهـا جـرول ـ «فـى نـهـايـة الأمـر، يـا سـيـدى د . شـتـولـفـوس، ألا يـسـرك حـقـيـقـة، إذا مـا خـرجـت للصيد، رؤية أرنب، يتمشى أمام المصب بشجاعة وينتظر أن تطلق عليه النار بتمكن» ـ، أجاد دائمًا التفاهم على المستوى الإنسانى مع جـرول. وبخ الـرئيس مـرة ثـانيـة تـشـبـيـه الـصـيـد، الـذى تـراءى له أن «تطبيقه على بشر، وبشكل خاص على إجراءات قانونية مروع وفى غير محله»، ترك الشاهد هال للاستجواب؛ تنازل الدفاع، واكتفى المدعى العام بالملاحظة غير الواضحة جدًا، إلا أنه تمتم بها الآن

بشكل مفهوم، «يكفيه تمامًا ما قيل» ـ أردف متمتمًا بشيء ما، له معنى العفانة والفساد.

مصادفة غير متوقعة حدثت أثناء استجواب كيرفل مفتش أول المالية، الذى دخل بصفته الشاهد التالى فى ترتيب الشهود وأدلى بأن عمره خمسة وأربعون عامًا. كيرفل، إنسان وديع، مسالم، أعد نفسه من الداخل، لإضافة، ما لم يكن يحتاج إلى إضافته بناء على مظهره الخارجى: أمر أنه «ليس بوحش»؛ معروف عنه فى دائرة بيرجلار بأكملها، أنه ليس فقط محبًا لفن الرسم، بل أيضًا للأدب الرفيع، نموذجًا للوداعة والإنسانية، شاع الكلام عليه، برغم نفيه بنفسه لهذه الشائعات القائلة، بأنه قدم عدة مرات لعمال أجانب، كانوا متورطين فى أعمال مقابل أجر يدفع على أقساط ووقعوا تحت طائلة الحجز بسبب مستحقات ضريبة الكسب المرتبطة بممارسة العمل بدون ترخيص، قدم لهم أموالاً من جيبه الخاص، دون انتظار رده منهم، ليجنبهم الحجز والمشكلات؛ كيرفل، الذى لم ينطق أحد أبدًا بلقبه «هانز الطيب» حتى بنبرة تهكم خافتة، كان دون الجميع، وبعد السماح بكثير من الديباجات غيراللازمة، الذى تم مقاطعته بعد أول جملة، نطق بها، بحدة وغلظة، بدت للجميع، وحتى للمدعى العام، لا تليق؛ على أية حال كان منطوق جملته الأولى: «نحن نؤدى واجبنا فقط.» صاح شتولفوس، «واجب، واجب؟ على أية حال نحن جميعًا نقوم أيضًا بواجبنا. لا أريد هنا خطبًا، بل بيانات موضوعية!» عندئذ صار كيرفل ـ وهو ما أدهش الجميع ـ حانقًا وصاح: «أنا أيضا ملتزم بالقوانين، وعلىّ أن أعمل على تطبيق

هذه القوانين، وبخلاف هذا»، أضاف بصوت آخذ فى الخفوت مما أثار الدهشة، «بخلاف هذا أعلم جيدًا بأننى لست باحثًا أكاديميًا.» ثم انتابه دوار. تم إفساح فترة توقف عن الاستجواب، أعلنها شتولفوس بصوت متقطع، أمام جميع الموجودين، وأيضًا أمام كيرفل، معتذرًا، وذهب شرروار ليُحضر زوجته الخبيرة بمثل هذه المواقف.

قام شرروار وجرول، من لم يكن مسموحًا له أبدًا بمهام كهذه، ولم يوبخ المدعى العام بأية حال رحيله المخالف للإجراءات، بنقل كيرفل إلى مطبخ شرروار، حيث استرد وعيه ثانية بمساعدة السيدة شرروار بتدليك الصدر والساقين بخل العنب. شتولفوس، من أراد أن يغتنم الفرصة، لسحب بعض الأنفاس من سيجاره، إلا أنه تملكه الخجل، لأنه كان يقدر كيرفل بالفعل وانهياره المفاجىء أفزعه، تبعه إلى المطبخ، حيث كانت السيدة شرروار، فى الوقت الذى كان زوجها وجرول يواسيان كيرفل، كانت تجذب بسرعة تارتًا من الفرن، وتختبر جودته، بوخز العجينة بدبوس الشعر. اعتذر شتولفوس مرة ثانية لكيرفل، ثم عقد جلسة تشاور قصيرة فى الردهة مع هيرميس وكوجل - إيجر، من اتفق كلاهما على إخلاء سبيل كيرفل نهائيًّا من مجموعة الشهود. كان كيرفل يتمتع، على خلاف أى إنسان فى بيرجلار، وحتى والده، رجل الشرطة، بالتعاطف المطلق لكل طوائف المواطنين ومن مختلف التوجهات.

عندما تم استئناف المحاكمة، كانت الساعة تقترب من الخامسة والنصف. أعلن الرئيس، أنه مضطر لاستبعاد الجمهور، لأنه

سيستجوب الآن الرؤساء السابقين وزملاء الجندية السابقين لجرول الابن وهو يستجيب لطلب المدعى العام، الذى يرى أن الإعلان المحتمل لأسرار رسمية مضر بالدولة. كان الإجراء موجهًا إلى السيدة هيرميس والشاب هوبناخ. لم تحزن السيدة هيرميس كثيرًا لذلك، لأنها كانت تتطلع على أية حال إلى فنجان قهوة وجلسة دردشة طويلة مع صديقتها، زوجة مدرس بالمدارس العليا، انضمت إلى مؤامرة، لإفساد احتفالات رابطة الأكاديميين الكاثوليك من خلال الاتجاهات النقدية التحررية، وانضمت إلى لجنة التحضير لحفل نيكولاوس الراقص. كان موجهًا بالأخص للشاب هوبناخ، الذى قال على أثر النداء عبارة «يا لا الغباء»، فهو كان يتوق بشدة لرؤية توجيه اللوم علنية للملازم أول هايمولر وللرقيب بيهلاو. غادر القاعة ببعض عبارات اعتراض لم يتم ملاحظتها. بمجرد أن غادر هوبناخ والسيدة هيرميس القاعة، أعلن شتولفوس، أن ثالث مشاهد موجود، هو برجنولته مستشار المحكمة الرسمية، لا يعتبر من الجمهور، لأنه موجود هنا بصفته الرسمية وهو موظف. لم يعترض الدفاع والمدعى العام بأى شىء على وجود برجنولته.

الشاهد العسكرى الأول هو العريف كوتكا، ظهر برأس حمراء؛ كان قد نشب فى حجرة الشهود، بعد النداء على كيرفل كآخر شاهد مدنى، نزاع شديد بين الملازم أول، والرقيب وكوتكا، دافع أثناءه كوتكا بصوت مرتفع إلى حد ما وبدموع عينيه إلى أقصى مدى عما كان يسميه «حريته الجنسية». دفعت ثقافة كوتكا الملتوية بعض الشىء بالرقيب فجأة إلى جانب الملازم أول؛ أثاره مفهوم "الحرية

الجنسية"، فقد كان للأمر مسمى آخر عنده: «نصف جسدى الأسفل خارج نطاق أوامر وزير الدفاع»، وهو ما أنكره الملازم أول، الذى قال، قوات الدفاع بحاجة للإنسان بأكمله. وعلى عكس ذلك أكد كوتكا على أنه، كجندى بقوات الدفاع ليس فقط ليس (وهذا النفى المضاعف جلب له بشكل لا رجعة فيه سمعة المثقف) ملزمًا بالأخلاقيات المسيحية، بل نفس هذه الأخلاقيات المسيحية التى يطمح إليها السيد الملازم أول بشدة قد تعايشت منذ ألفى سنة مع تلك المواخير، وعليه أن يكون ملزمًا، فى التفاوض مع عاهرة بعرف التفاوض مع عاهرة (تبين أثناء المناقشة، أنه ضرب موعدًا مع السيدة زايفرت لعطلة نهاية الأسبوع القادمة). حضر إذاً إلى قاعة المحكمة برأس حمراء، ولأنه من ناحية أخرى بسبب حميته الكلية الداخلية والخارجية قد اكتست نظارته بالضباب، وكان مضطرًا لوضعها على عينيه، تعثر فوق العتبة المفلطحة قبل أن يتمكن من مسحها، ثم تماسك تمامًا، قبل دخوله إلى منصة الشهود. (أخبر برجنولته جرلبر عنه فى المساء، لم يبد فى الحقيقة نموذجًا يمثل صنف الجنود، مما دفع جرلبر بالتالى لإجراء مكالمة تليفونية مع الرائد ترويجر قائد فصيلة كوتكا، وسؤاله، عن سبب قبول نوعيات ككوتكا، فقال: «نقبل ما يأتى، ليس لنا خيار آخر.») كوتكا، ضئيل الجسم، نحيل، هزيل تقريبًا، بدا بالأحرى كما لو كان صيدليًا ماهرًا، يشعر بعدم الارتياح لكونه يعمل بالعقاقير؛ أدلى بأن عمره خمسة وعشرون عامًا، ومهنته جندى، ورتبته عريف. وردًا على سؤال من شتولفوس عن مدة خدمته، قال، أربعة أعوام؛ ولماذا لم

يحصل على رتبة عسكرية أعلى؟ كوتكا: كان رقيبًا، لكن تم تجريده من رتبه فى إطار أمر حرج، يخص بشكل أكثر الشئون الداخلية لقوات الدفاع الألمانية: وبسؤاله عن طبيعة هذا الأمر، طلب، السماح له بوصفه باختصار بأنه «موضوع نساء يخص الشئون الداخلية لقوات الدفاع الألمانية بين رتب عسكرية مختلفة»، ولا يجوز له الإفصاح عن المزيد. سأله شتولفوس أيضًا، لماذا التحق بسلك الجندية؟. أجاب، أنه أدى امتحان الثانوية العامة، وبدأ فى دراسة علم الاجتماع، ثم بحساب فرص الكسب فى قوات الدفاع الألمانية، مع وضعه فى الاعتبار أيضًا السرعة المتوسطة للتقدم مهنيًّا فيها، فكان القرار، الالتحاق بالعمل فيها لمدة اثنتى عشرة سنة على الأقل، ثم الخروج منها فى سن الثلاثين، وتلقى تعويضًا مُرضيًا، ومع إمكانية التوفير قبل ذلك يكون باستطاعته إنشاء مكتب مراهنات. شتولفوس، الذى لم يقاطعه مما أثار الدهشة، هز رأسه عدة مرات أثناء سماعه الأقوال المتوالية، كان يصدر «ها، ها» أو «هكذا، هكذا»، وغض الطرف عن إشارات برجنولته، الذى كان يجلس خلف المتهمين، ولم يعر سمعه أيضًا لتنقير المدعى العام بالقلم الرصاص وترك كوتكا يواصل كلامه. قال كوتكا، إنه أراد أن يخلق شعبية للمراهنة على الكلاب داخل ألمانيا، ففى «أعقاب تكنولوجيا الآلات الأوتوماتيكية التى لا مفر منها وما ترتب عليها من تقليل ساعات العمل» يحتاج «مواطن ألمانيا الاتحادية»، كما يسميه كوتكا، إلى «عوامل إثارة» جديدة، ولما كانت المراهنات على مباريات كرة القدم واليانصيب قد استنفدت إثارتها فى النمطية، فالألعاب بالأرقام

فقط فى رأيه لم تعد بالمرة تتضمن سحرًا، ولا حتى تكهنًا، كان لا بد من جلب أفكار أخرى «لمواطن ألمانيا الاتحادية». كوتكا، من عاد ثانية «إلى نفسه تمامًا»، وبدا الآن كطالب مدرسة عليا شديد الذكاء، مع بعض الاضطراب، كمن تم ضبطه متلبسًا فى جريمة لا أخلاقية. قبل أن تحتم مقاطعته فعليًا بوقت وجيز، قال، الحياة فى قوات الدفاع الألمانية تتضمن ذلك النوع بعينه من الملل المركز، الذى يتطلع له، ومع الملل وما يشبه التكاسل يكسب أموالاً ويتحصل على عائد مجز على المدى الطويل، هذا هو العدل بالنسبة له؛ حسبها لنفسه، أنه ـ بخلاف راتبه، ملبسه، وطعامه، وسكنه، وإجازاته إلخ.، ببساطة من خلال حالة «أنه لا يمارس عملاً»، يكسب يوميًا عشرة ماركات إضافية، وهو التعويض. قال كوتكا، إن له فى الحقيقة أملاً مشروعًا، فى أن تسقط عنه مع الوقت تحفظات أخلاقية معينة، ذات صلة بسبب تجريده من رتبه، وهو مع ذلك بمقدوره، كما تم التخطيط أساسًا، حساب مساره فى سلك الضابط، بتقدمٍ مطابق، ولأنه ينوى فيما بعد أن يتزوج وبالتأكيد «لن يحرم نفسه من نعمة الأطفال»، يمكنه أن يُعَول على ذلك، يتقاعد بعد فترة خدمة اثنتى عشرة سنة وفى سن الثلاثة والثلاثين كنقيب متزوج يعول طفلين «ويُحَصل» تعويضًا قدره على الأقل واحد وثمانون ألف مارك ألمانى، ثم يتزايد المبلغ الإضافى الذى يتكسبه يوميًا دون أن يعمل ليصل من ثمانية عشر إلى تسعة عشر ماركا، والتعويض يمثل معاشًا شهريا بقيمة ـ والده كان يعمل بقطاع البنوك ويمكنه أن يحسب بأفضل إمكانيات استثمارية ـ أكثر من خمسمائة مارك ألمانى، وفى سن

الثانية والثلاثين وهو مازال شابًا يستطيع بدء حياة جديدة، وقد تهيأت له مقومات، لا يمكن التحصل عليها بلا مشقة بهذا اليسر من مهنة أخرى. وقد اكتشف بالإضافة إلى ذلك، أن الملل والتكاسل عن العمل ـ بالطبع بخلاف عقاقير معينة ـ بمثابة أفضل عوامل إثارة، أى محفزات للطاقة الشبقية، والخبرات الحسية، أو الجنسية تعنيه بشكل كبير؛ قال كوتكا «المرأة، قارة المتع هذه»، لم يتم اكتشافها بالشكل الوافى، أو هى فى الحضارة الغربية مظلومة، أو مبخوسة القدر. هنا قاطعه شتولفوس وطلب منه، أن يقول شيئًا عن أمر جرول، والذى تعرف عليه ثانية فى شخص المتهم، عندما كان جنديًّا معه. التفت كوتكا لجرول الابن، ونظر إليه، كما لو كان قد تعرف عليه الآن فقط، وضرب بكفه المنبسطة جبهته، كما لو كان قد خطر بباله الآن فقط، سبب وجوده هنا، وصاح: «بالطبع، شورش[1] العجوز الطيب»؛ التفت إلى الرئيس، وقال، جرول «كان زميلاً رائعًا»، لم يكن يحبذ للأسف الإطلاع على الكثير من موضوعات الأحاديث الجنسية، والسبب فى ذلك يرجع إلى «التربية الكاثوليكية المتشددة»، التى يعتبرها هو، أى كوتكا، خاطئة تمامًا ـ هو نفسه أيضًا ليس فى حال أفضل، بمعنى أنه تلقى تربية بروتستانتية متشددة، لكن ـ كان يجب مقاطعته مرة أخرى هنا، بشكل أكثر حدة هذه المرة والطلب منه بحزم، الالتزام بالموضوعية؛ قال كوتكا، حسنًا، يمكنه تكرار أن جرول كان زميلاً طيبًا جدًّا، إلا أنه كان يأخذ هذا الأمر بجدية

(١) المقصود جيورج. (المترجم)

بالغة، و«عانى» منه عاطفيًا. وبسؤاله، ماذا يقصد بهذا الأمر، قال كوتكا: الذى تم توبيخه بسبب هذا التلاعب اللفظى السخيف: مجموعة المنغصات(١). المعاناة أمر لا معنى له فى هذا السياق، لكن جرول عانى من "رباعية السخافات هذه"؛ الخواء، وعدم الفاعلية، والملل، والغباء، والتى يعتبرها هو، أى كوتكا، المغزى الوحيد بالفعل لجيش ما. هنا استاء شتولفوس، وصاح فى الشاهد بصوت مرتفع، بأن يدخل فى الموضوع ويوفر على المحكمة فلسفته الخاصة. ونتيجة لذلك جمع كوتكا دون أن يضخم الموضوع أمره، لا لإمكان اعتبار هذه إهانة له، وتحدث فى همة مفاجئة، وبصوت مختلف تمامًا فى شكل عناوين: «زميل رائع. محل ثقة. جاهز لكل عمل مخز. أحضر له بنا، قاسمه الخبز والزبد، قاسمه حصته من اللحم البارد: محب لغيره، يتمتع بروح الأخوة. يعانى من التفاهة، وهذا لم يكن بالأمر المهم، لأن لا شىء مضاف للا شىء مضاف للا شىء لا يسفر دائمًا عن لا شىء.»

كان الدفاع، والمتهمان، وأيضًا أوصم محرر المحضر، الذى لم يدون أقوال كوتكا بناء على إشارة من الرئيس، يستمعون باهتمام شديد، بترقب لاهث، لكوتكا. برجنولته، الذى كان يجلس خلف الدفاع والمتهمين، لدرجة أنه كان يمكن أن يراه فقط شتولفوس،

(١) فى الأصل Hasselbande كتحريف لكلمة Rasselbande التى تعنى جماعة من الصبية المزعجين واستبدلت كلمة Rassel بمعنى صوت صلصلة الحديد بكلمة Hassel التى تتضمن بشكل ما أصل الفعل hassen والذى يؤدى فى الألمانية معنى يكره أو يمقت. (المترجم).

وكوجل - إيجر، وأوصم، أشار فى أول الأمر، ثم لوح بالفعل بيديه وحاول أن يدفع شتولفوس إلى إيقاف الاستجواب، وهو ما تجاهله هذا كتجاهله لإشارات قلم رصاص المدعى العام المسموعة بشكل بين تقريبًا. حالف التوفيق كوجل - إيجر فى النهاية بنحنحة، بدت إلى حد ما كسبة نابية، فأسفرت عن فترة توقف لتمتمة كوتكا وطرح سؤالاً، وجهه إلى كوتكا بصوت رقيق جدًا: هل هو، أى العريف كوتكا، كان مريضًا فيما سبق، يقصد مريضًا عصبيًا. التفت كوتكا إليه وقال بتعبير وجه، وصفه أوصم فى المساء فى حديث ودى بأنه «متجمد»، هو، أى كوتكا، مريض عصبى بشكل دائم، وهو، أى السيد المدعى العام، مريض عصبى بشكل دائم أيضًا (التوبيخ على التعريض جاء على الفور، وإلا لكان مطلب المدعى العام)، وهو، أى كوتكا، جازف بالافتراض بأن جرول «زميله السابق» لم يكن مريضًا عصبيًا، وهو ما جعله بشكل خاص «فى وضع معاناة» أيضًا؛ إلا أن هناك شيئًا وحيدًا، وهو ما يريد التأكيد عليه وهو ما شهد له بصحته بعض الأطباء، والقدرات، وعدم القدرات: هو، أى كوتكا، ليس عديم الأهلية؛ وهذا أمر مهم بالنسبة له، حيث إنه بالفعل بصدد التقدم بطلب ترخيص لمكتب المراهنات؛ لا، لا، الفرق بيّن -، لكن عند هذا الموضع ترأف شتولفوس ببرجنولته البائس، الذى كان قد انغمس فى تشبيك يائس ليديه، فقاطع كوتكا وقال، إنه ليس لديه أسئلة أخرى له. سأل هيرميس كوتكا، كيف تم التوصل إلى المأمورية، التى يتم تداول نهايتها هنا، وفجأة تحول كوتكا إلى الموضوعية. قال، إنه «عمل على أن تكون» هذه المأمورية «من نصيب

جرول»، لأنه كان يحبه. وهو كما يقال - وهذه هى الوظيفة الرسمية للعريف - محاسب حملة مركبات مركز ضباط الصف، ليس محاسبًا فقط، بل أيضًا مسئولاً عن استعداد المركبات الدائم لأداء المهمات، كما يمكن أن يشهد بذلك رئيسه الرقيب بيهلاو. ومن بين مهامه أيضًا، أن يجهز المركبات فى موعدها للفحص، بمعنى، عرضها، عند الفحص، بعدد الكيلومترات المطلوبة. قال كوتكا، الذى كان الآن مترويًا وهادئًا، ويتحدث بوضوح إلى الدفاع، أحيانًا كان يتسبب ذلك فى تشابك الأمور، لأنه قد يتم توريد مركبات أكثر مما تم الإعداد له، أو بالأحرى يتم الموافقة عليها، ثم يأتى الفحص فى موعده، ولكى لا يتم تفويت موعد الفحص، الذى، لو تم تفويته، لتأخرت الترقية مرة أخرى، كان يجب أحيانًا «الدفع بمركبات إلى الطريق الزراعى لقطع مسافات طويلة». هل اتضح للسادة، معنى هذا: طرح هذا السؤال، بأن استدار على مقعدته برشاقة مفاجئة لشتولفوس، وكوجل - إيجر وهيرميس فى نفس الوقت. نظر الثلاثة إلى بعضهم البعض فى استغراب، شتولفوس، المعروف عنه، أنه لا يفهم شيئًا فى أمور السيارات، هز كتفيه. قال كوتكا، من يمكن وصف تنهيدته بأنها بداعى الشفقة، حسنًا، هذا معناه مشروحًا بمثال ما يلى: من الممكن أن يحدث، أن تكون مركبة قد قطعت عددا من الكيلومترات لا يزيد على ألف كيلومتر قبل أقل من أسبوع على نوبة فحص الخمسة آلاف كيلومتر. أضاف، «عندئذ يجب أن ينطلق بالعربة أى شخص ليقطع لها كيلومتراتها.» قال كوتكا، هذه المهام، كان يعهد بها لجرول، من كان يجيد قيادة السيارات بشكل فائق والذى أصابه

الملل، من تلميعه فى ورشة النجارة فقط لقطع أثاث مبتذلة الذوق «لغندورات الضباط، وبقرات ضباط الصف». سأل شتولفوس كوتكا، هل بمقدوره استدعاء شهادته بشأن طبيعة هذه المأمورية عند الضرورة، لأنها مهمة جدًا للحكم على جنحة الاثنين جرول. قال كوتكا، إن ما يقوله، هو الهريسة، الهريسة الطازجة[1]، ولا شىء غير الهريسة الطازجة، وقبل أن يتحتم توجيه اللوم إليه، نعم، قبل أن يتم بالفعل ملاحظة هذه الزلة المهولة، عدل من نفسه واعتذر وقال، إنه وعد، وهو بالطبع مدرك تمامًا لأهمية القسم، ويريد القول، الحقيقة، الحقيقة الخالصة، ولا شىء غير الحقيقة الخالصة، أضاف بذهول بالطبع، ذهول ذو تأثير طفولى تقريبًا، أنه لديه باستمرار ميل للاستجابة للتداعيات اللفظية ولفظتا الهريسة والحقيقة متداخلتان دائمًا عنده بشكل قاتل، وقد سبب له هذا مشكلات فى دروس اللغة الألمانية فى المدرسة باستمرار، لكن مدرس اللغة الألمانية...، هنا قاطعه شتولفوس، الذى، أذن له بالانصراف دون سؤال المدعى العام والدفاع. كلاهما أعطيا موافقتهما اللاحقة بحركة من اليد. تم توجيه الطلب إلى كوتكا، الذى أشار أثناء رحيله إلى جرول الابن، وأدى له «تحية»، بأن يبقى مستعدًا لاحتمال الإدلاء بأقوال أخرى. أعلن شتولفوس فترة راحة لمدة نصف ساعة وأضاف، على الجمهور أن يبقى مستبعدًا أيضًا بعد فترة الراحة.

---

(١) فى الأصل Mahlzeit أى الوجبة الغذائية وهى تشبه فى نطقها كلمة Wahrheit أى الحقيقة، ولعدم تشابه النطق بين الوجبة الغذائية والحقيقة فى العربية، تم التصرف فى الترجمة بقدر يتيح إظهار زلة اللسان (المترجم)

تلقت أجنيس هال الزهور فى حوالى الثالثة والنصف: أحمرت وجنتاها من فرط البهجة، أعطت البنت التى أحضرت الزهور، بقشيشًا سخيًا، خطر ببالها الآن فقط الثقب الناتج عن الحرق فى فستانها الحرير الجديد ذات اللون البنى الضارب إلى الحمرة؛ لم يكن بأية حال أكبر من زر قميص، عاينته، بأن بسطته جيدًا على حجرها، بدرجة معينة من اللين: جال بخاطرها، أليس هو أيضًا وردة صغيرة ذات حواف سوداء؟ أثناء تسجيل وصيتها وهى تدخن سيجارًا صغيرًا، غاصت بلا حدود فى تلك الانفعالات، التى يسميها المتخصصون «مشاعر»؛ لكى توصى لجرول بجميع ممتلكاتها النقدية وذات الأصول الثابتة، كانت تحتاج إلى عبارات قليلة فقط، كانت صياغة الشرط الوحيد صعبة، «على أن يقوم بإضرام النار فى إحدى السيارات الجيب المملوكة لقوات الدفاع الألمانية، فى الحادى والعشرين من يناير كل عام، وهو يوم إحياء ذكرى القديسة أجنيس، بقدر المستطاع فى نفس الموضع، المسمى «شجرة كيوبر» ؛ كشمعة كبيرة، كقداس نار وإحياء لذكرى جندى الحرب العالمية الثانية المجهول، الذى كان عشيقى لمدة يومين». ولأن غوغائيى آل هال، وهولفيح، وشورف قد يطعنون فى الوصية، كان عليها أن ترفق تقريرًا فنيًّا لطبيب نفسى، يشهد بأهليتها وقت تحرير الوصية. تكرر محوها للعبارة، وإكمالها بعد قوات الدفاع الألمانية بـ «أو خليفتها القانونى»، لملمت فى حولى الرابعة والنصف أوراقها وغادرت منزلها، دون إبدال فستانها. قضت بعض الوقت فى مكتب البريد، وفى محل الزهور، ثم فى المقابر عند مدفن عائلة هال،

المدفون فيه أيضًا والدا شتولفوس: شاهد ضخم من الرخام الأسود، على جانبيه ملائكة برونزية بأكبر من الأحجام الطبيعية فى وضع فخيم؛ سارت حول الكنيسة قاطعة الطريق الرئيسى إلى كشك التليفون، وطلبت سيارة أجرة، جاءت بعد ذلك بأقل من دقيقتين، وطلبت من السائق، وهو شاب ليس من أهل المنطقة، أن يقلها إلى موضع «شجرة كيوبر»، ووصفت له الطريق إلى هناك، وهو ما استغرق حوالى ثلاث دقائق؛ نزلت فى موضع «شجرة كيوبر»، وطلبت من السائق أن ينتظر، وأن يستدير فى هذه الأثناء؛ كان يومًا من أيام شهر أكتوبر المعتدلة، غير المطيرة بشكل استثنائى؛ نظرت إلى الطريق الترابى، رأت الحجر، الذى لا بد أنه هو الذى جلس عليه الاثنان جرول، ألقت بنظرة على حقول اللفت المنبسطة الماثلة على مدى البصر، الذى ظهر فيها المحصول، عادت إلى السيارة الأجرة، وطلبت الذهاب إلى المحكمة؛ حقول اللفت المنبسطة مترامية الأطراف ذات الأوراق الخضراء، ومن فوقها السماء بزرقتها الرمادية - ستنعش حمرة وسواد النار إلى حد ما هذه الرتابة الرائعة مرة فى العام.

وصلت عند المحكمة بالضبط، وقت أن كان شروار يوصد من الداخل طبقًا للتعليمات حجرة الشهود؛ من خلال لوح الزجاج لمح لها بحركة رأسه وهز كتفيه عن أسفه وأشار لها بحركة سريعة من إبهامه إلى مسكنه الخاص. كانت هناك علاقات وثيقة، بل ودية بين شروار والسيدة هال، كانت أيضًا السيدة شروار طرفًا فيها، حيث كانت تأتى السيدة هال إلى المحكمة لا بشكل يومى، لكن ثلاث

وأحيانًا أربع مرات فى الأسبوع وغالبًا فى فترات الراحة، أو، عندما يتم استبعاد الجمهور، وتعقد جلسة دردشة فى مطبخ آل شروار على فنجان قهوة مع السيدة شروار. فى هذه المرة كان عليها فى أول الأمر أن تبدى إعجابها بتارت السلطانية الذى تم إعداده بنجاح فائق حقيقة، حيث كانت السيدة شروار، لكى تؤكد من جديد مهارتها فى إعداد المخبوزات، تقوم بوخزها مرة أخرى بدبوس الشعر، الذى كانت تسحبه ثانية بلا تصدع، دون أن يظهر أى أثر لـ«نتوء» ـ هكذا تسميه. حكت السيدة شروار بالتفصيل عن حزن كيرفل الأب، ونوبة إغماء كيرفل الابن، وتحدثت السيدتان لوهلة، وهما يدخنان السيجار، عما إذا كان زيت الكافور أم ماء الخل هو الأصلح فى مثل هذه الحالات؛ كانت السيدة شروار ترى أنها «مسألة نوعية»، تتوقف فى المقام الأول على بشرة المصاب، وهى، كما قالت، لن تجازف أبدًا، بتدليك بشرة كيرفل الابن، بشرة من له شعر أحمر، رغم أن لون شعره قد أصبح داكنًا فيما بعد، بزيت الكافور؛ فخطر الإصابة بالطفح الجلدى قائم، فى حين أن السيدة هال مثلاً ـ ونظرت إلى السيدة هال موافقة تقريبًا ـ قد تستخدم مرهم زيت الكافور فى التدليك دون تردد؛ عندئذ نظرت إلى الثقب الناتج عن الحرق، وقالت، إنه خزى، وهى سعيدة، لعدم وجود الاثنين جرول فى المبنى، نزاعات كثيرة جدًا قامت بسبب وجودهما، وهى على علم بأحدث المشكلات؛ ولما نفت السيدة هال هذا، أفضت لها بسر حمل الصغيرة شميتس؛ طلبت السيدة شروار، متوسلة، بدمع العين تقريبًا، ألاَّ تمارس السيدة هال كامل «تأثيرها غير الهين» على

الاثنين جرول، حتى لا يتبين أن هذا الأمر قد حدث فى السجن، فهذا من الممكن أن يدمر زوجها، وأيضًا شتولفوس وهى، أى السيدة شروار ربما تكون عرضة لقضية قوادة تحت ظروف يجرمها القانون بشكل خاص؛ وعدتها السيدة هال - ووضعت عندئذ يدها مهدئة على ذراع السيدة شروار - بأنها ستشارك فى إصلاح هذا الأمر، ستسويه مع السيد هيرميس، الذى ستناقش معه بخلاف ذلك أمرًا آخر. وبكياسة حولت المناقشة مرة ثانية إلى موضوع «نوبات الإغماء أمام منصة القضاء» وأعربت عن دهشتها من الخبرة العريضة التى تتمتع بها السيدة شروار، وهى إنسانة ذات شعر أحمر وعينين شديدتى الزرقة وبشرة بصلية اللون، أُطلق عليها فى بيرجلار اسم «البرميل» بسبب ساقيها المتضخمتين. قالت السيدة شروار، أشاروا عليها باستخدام حقنة للحالات الضرورية - والحقيقة، عندما يكون الجمهور مستبعدًا، كانت تحدث الأمور الأشد هولاً، بالطبع أيضًا نوبات هيستيريا شديدة، كانت تداويها بالصفع على الوجه، على أية حال قام الدكتور هولفن بتفويضها وتعليمها كيف يمكنها استخدام الحقنة عند الضرورة، حتى فى الوريد. قالت السيدة شروار ردًا على السؤال، كيف حال كيرفل الابن الآن، إنه أحسن، إلا أنه لم يتمكن من الذهاب إلى المكتب. دار حديث السيدتين بعد ذلك عن مميزات عائلة كيرفل، عن نزاهة الأب والابن، أكدتا لبعضهما عدة مرات، «روعة زوجة كيرفل الابن» وأنه كان بمقدور الأب أن يسعد بابنة راهبة وابن راهب، إلا أنه كان إسرافًا، «خزيا تقريبًا»، التحاق كيرفل الأصغر بالسلك الاكليروسى. هنا قطع حديثهما شروار، من

دخل، وأعلن عن فترة التوقف - علق بتثاقل ما، بأسلوب عسكرى تقريبًا - مفاتيح القفص والزنزانة فى خطاف فوق الموقد وصب لنفسه قهوة من غلاية القهوة؛ عندما تناول الفنجان بدون قاعدته، ووضعه على المنضدة، ذكرته زوجته بالنظام واتهمته بالطيش، لأنه استهان بحمل شميتس، استهان تمامًا - وأصبح صوت السيدة شروار شديد الحدة - بكل شىء، وباستطاعته تبين هذا فى البطء، فى سرعة السلحفاة التى يتقدم بها.

بدت هذه للسيدة هال اللحظة المناسبة، للانصراف؛ خشت اللسان السليط للسيدة شروار، التى، عندما كانت تنتعش، لا تغفل أيضًا أشد التلميحات خصوصية. اتفقت مع شروار، أن يبلغها بالتليفون، بمجرد، كما تأمل، أن يتم السماح للجمهور ثانية، على الأقل فى المرافعة والنطق بالحكم. رأت، قبل أن تغادر مبنى المحكمة، شتولفوس يصعد السلم إلى الدور الأعلى مع أوصم. نجحت فى الإمساك بهيرميس، لحظة دخوله أحد المقهيين حديثى الطراز فى الشارع الرئيسى ببيرجلار. تأكدت بعصبية ما، أنها لم يسبق لها أبدًا دخول أحد المقهيين: كان هذا المقهى، الذى يبحث فيه هيرميس الآن عن مائدة غير مشغولة، كبيرًا جدًا، فى هذا الوقت من النهار مكتظاً، لا بالتلاميذ، بل بنساء المزارعين من المناطق المحيطة اللاتى يتناولن الفطائر؛ كانت السيدة هال، من لم تخرج أبدًا، ونادرًا ما تغادر منزلها، مندهشة، من أنها وجدت ثانية نفس النوعية الثقيلة من الناس، المألوفة لها منذ صباها من سيرها المرح وزياراتها للكنيسة، دون أن يطرأ عليها أى تغيير. اتبعت هيرميس،

الذى أمسكها من ذراعها، وطلب لنفسه وهو مرتبك شوكولاتة، بينما أخرجت هى مخطط الوصية من حقيبة يدها. سمع السيدة هال، التى كان يسميها «طنط»، باستياء، لأنه كان قد عقد النية، على استغلال فترة الراحة لعمل مسودة أولية للمرافعة، وفكر، هل هذه هى المرة الحادية عشرة أم الثانية عشرة، التى جاءته فيها بتعديلات فى الوصية.

قرر بيرجنولته أن يقوم بجولة صغيرة على قدميه، بدأها بخطوات سريعة فى أول الأمر، لتخوفه، من عدم إتمامه الجولة المزمعة حول «الصرة القديمة» لبيرجلار فى نصف ساعة، ثم أبطأ الخطى، عندما تأكد، أنه جال أو بالأحرى تفقد الصرة القديمة: الكنيسة، ومدافن الكنيسة، وبوابتى المدينة فى الشرق والغرب، ومبنى البلدية من طراز العصور الوسطى ومقر خدمة قوات الدفاع الألمانية - فيما لا يزيد على اثنتى عشرة دقيقة؛ بالطبع، كان لا يزال هناك الجسر الصغير رائع الجمال على نهر الدور بتمثال نيبوموك الذى تم ترميمه - وهو تزيين للجسر - كما يرى - غير مألوف فى هذه المنطقة؛ لم يستسلم لغواية الأسهم السوداء، التى تشير إلى الحمام الرومانى، ولأنه لم يتبق له سوى خمس عشرة دقيقة وليست لديه نية بالمرة للانسياق إلى الطريق المؤدى إلى تورطه فى نقاش مع شتولفوس أو كوجل - إيجر، استسلم لغواية أسهم حمراء، تشير إلى «كنيسة استشفائية، القرن ١٧»، وجد الكنيسة بسرعة فائقة، دخلها وتأكد فى دهشة، أنه، رغم التدرب منذ عقدين من الزمان، قام بهذه الحركات بشكل تلقائى تقريبًا: غمس اليد فى حوض الماء المقدس،

إشارة الصليب، إنحناءة معبرة من للركبة باتجاه المذبح، استدارة «على أطراف أصابع القدمين»، لاكتشافه سيدتين تصليان أمام تمثال العذراء المنتحبة؛ لم يبق ما يستحق المشاهدة سوى صندوق نذور قديم، مغطى بطبقات من الحديد المسبوك ومذبح حديث العهد أجرد الأسطح. عندما سار ببطء شديد ـ بقى سبع دقائق تقريبًا ـ فى طريق عودته إلى المحكمة، فوق الجسر مرة ثانية، مارًا من جديد بتمثال نيبوموك، الذى بدا له بطريقة ما، لم يكن بمقدوره التعبير عنها، فى غير موضعه هنا، قرر، أن يشتد، أكثر مما سبق أن فعل، فى معارضة زوجته، التى أعربت فى الصباح على الإفطار عن أمنيتها، فى الانتقال إلى «عش مثل بيرجلار هذه مثلاً». ما صدمه بشكل خاص: أن الشوارع صارت متسخة، «بل وعارية من البلاط»، بمجرد مغادرة الشارع الرئيسى «فى الصرة القديمة» للمدينة. بالطبع هناك بضعة مبان قديمة جميلة، وهناك أيضًا، لو أمعن التفكير فى الأمر، الفرصة الفعلية، فى أن يصبح رئيسًا للمحكمة فى الحال خلفًا لشتولفوس، ولكن...، لم يرقه هذا بشكل خاص. عندما عاود التردد بسرعة على إحدى دورات المياه العديدة الخاصة بالمحكمة ودخل فناء المدرسة ثانية، كاد يقابل الملازم أول هايموللر، الذى كان يتمشى بمفرده بين الأشجار القديمة بمزاج واضح أنه لايفتقر للبهجة. قام برجنولته بتعريفه باسمه وصفته كـ «قاض معين فى مهمة رقابية»، وتقدم من كوتكا هازًا رأسه لمخاطبته وحاول أن يتبين، ما قد يكون متوقعًا لدى الرقيب من أقوال. الملازم أول، الذى تعرف بدماثة خلق دون تصنع على برجنولته وحياه ممتنًا، شرح

متنهداً «مدى التقلب اللافت للنظر لسمات» العريف كوتكا، وأيد بانحناءة رأس حالته «المستحيلة ـ تقريبًا»، وانطلق بعد ذلك فى الدقائق القليلة، المتبقية، فى نظريته الأثيرة لـ «نخبة الصفوة» ، التى أثارها برجنولته بمناسبة الحاجبين المتلاصقين. تبقى لهايموللر وقت لسؤال برجنولته، عن طول الوقت الذى يمكن استغراقه لحين استجوابه، كان فى الحقيقة معتاداً على الانتظار كجميع الجنود، لكن ـ؛ هدأه برجنولته وقال، الأمر يمكن أن يستغرق بالكاد عشرين دقيقة بعد فترة التوقف.

بعد فترة الراحة صادف شتولفوس التوفيق فى الانتهاء من الحديث إلى الشاهد موتريك، تاجر القطع الفنية من المدينة الكبيرة المجاورة. قال شتولفوس، ثبُت الأمر بشكل واف، وبما يتفق مع قدرات جرول، و ـ أضاف هذا بصوت خافت وبابتسامة متكلفة إلى حد ما، قبل أن يدخل قاعة المحكمة ـ لا طائل أبداً من وراء أى «بارقة أمل»، وهو، أى هيرميس، يمكنه إطالة مدة القضية لأكثر من يوم آخر. الإحراق العمد والتخريب، هكذا قال شتولفوس وهو بالباب ـ بذلك لن يفلت موكلاه، أى موكلى هيرميس، من أربع إلى خمس سنوات سجن، وهل «الشهرة الطفيفة" كانت ذات قيمة كبيرة له، أى لهيرميس. تنازل هيرميس مستسلماً عن الشاهد موتريك، الذى رفض، دخول «حجرة الشهود العطنة» وانتظر فى الردهة ـ موتريك، وهو إنسان لم يعد بعد فى سن الشباب تماماً، له شعر أحمر، يرتدى معطفًا من وبر الإبل وقفازين من جلد النمر، قال عندما أخبره هيرميس حزينًا، إنه تم استدعاؤه سدى، «يا لا

القرف» بطريقة، أثبتت أن هذه اللفظة ليست من مخزون الألفاظ المألوفة على لسانه. وعندما عاد أيضًا إلى سيارته، ستروين خضراء، لم يوفق، فى خطواته أن يُظهر هذا «الازدراء البالغ»، الذى أراد أن يفصح عنه بهذه اللفظة الشديدة. غلب عليه الحقيقة شكل رجل، اجتهد بلا طائل، لكى يوحى بالغلظة.

سار استجواب الشاهدين الباقيين، الملازم أول هايموللر والرقيب بيهلاو، من تم استجوابهما كل بمفرده، بسلاسة على عكس المتوقع، بلا إثارة مطلقًا. بيهلاو، أول من تم استدعاؤه بعد فترة التوقف، دخل فى وضع منضبط، وأيضًا فى زى منضبط، أفاد بأن عمره سبعة وعشرون عامًا، ومهنته جندى، ورتبته رقيب، وأيد بأقوال دقيقة، ما سبق أن قاله كوتكا: إنه، أى بيهلاو رقيب الصيانة بالوحدة، وكوتكا مرءوسه المباشر، الذى يقوم أيضًا بمهمات الصيانة؛ توضيح متكلف عن الفرق بين الرتبة المهنية والوضع المهنى، بدا لبيهلاو ذا أهمية فيما يخص حقيقة أن كوتكا كان يباشر مهام الصيانة وهو عريف، أجهضه شتولفويس، الذى قال، هذا الفرق ينطبق على كل السلطات. أيد بيهلاو بناء على سؤال الدفاع قطع كيلومترات طويلة بالسيارة، وهو ما سماه «رحلة ضبط عداد السرعة»، وأضاف دون توجيه سؤال له، ربما أثار كوتكا «انطباع غريب إلى حد ما»، لكنه لا غبار عليه فى أداء مهامه الوظيفية؛ إذا كانت وحدتهم، فيما يخص صيانة المركبات، تعد ممتازة، حقًا، فكثيرًا ما اختصت بالثناء، فإن الفضل فى هذا يرجع بقدر ليس بالقليل لكوتكا. هذه الموضوعية المفاجئة لبيهلاو لاقت من برجنولته

وأوصم إيماءات استحسان بالرأس. بسؤاله، كم مرة فى السنة يتوجب القيام فى وحدة مزودة بمركبات بـ «رحلة ضبط عداد السرعة» هذه؟ أجاب بيهلاو، يمكن أن يحدث هذا من مرتين إلى ثلاث مرات فى العام. سأله المدعى العام عن جرول الابن، فقال بيهلاو، لم يكن جرول جنديًّا متحمسًا حقيقة، لكن هكذا كان حال القلة، إلا أنه لم يكن عنيدًا، بل نكدًا ولا مباليًا؛ أذنب عدة مرات بتجاوزه حد الإجازة، ونال على ذلك عقابًا ـ لكن فى نهاية الأمر هذه ليست بجريمة، فهو أمر عادى. بيهلاو، الذى ظهر هنا بشكل مختلف، عن الشكل الذى كان عليه فى حجرة الشهود، والشكل الذى اعتاد أن يظهر عليه فى الحانات، ترك انطباعًا طيبًا جدًا. كان موضوعيًّا، وواضحًا، ولم تتجاوز عسكريته الحد؛ تم توجيه الطلب إليه بأن يكون جاهزًا لاحتمال الإدلاء بأقوال أخرى. بعد انصراف بيهلاو، واستدعاء الملازم أول هايمولر، اعترض د. هيرميس المحامى بكلمات مهذبة على استبعاد الجمهور؛ وأكد أنه، يعرف جيدًا، أن المقصود بهذا الاستبعاد زوجته فقط، من تساعده على أية حال، لأنها دارسة للقانون، ومطلعة على كل الأحداث ومن البديهى أنها تذعن لالتزام الصمت ـ وأيضًا المزارع الشاب هوبناخ، من نما تمامًا إلى علمه كل الأحداث، لأنه أدى خدمته العسكرية الإلزامية فى نفس الوقت مع جرول فى نفس الوحدة؛ حسنًا ـ وأشار عندئذ بسخرية إلى المقاعد الخاوية فى مقصورة الحضور ـ سيتم هنا تداول أشياء، ليست فى الحقيقة عسكرية، بل هى أسرار إدارة، هذا بالذات أمر يهم الجمهور، إنه ليس بسر استراتيجى، ولا تكتيكى، بل

من الواضح أنه مجرد سفه إدارة أفلست. أثناء وقوف هايموللر فى القاعة وانتظاره فى تواضع للظهور، أجاب شتولفوس الدفاع مترويًّا، ما يسميه بالسفه لإدارة أفلست، هذا بعينه لا يلائم للجمهور: للدولة الحق، وهو، أى شتولفوس، يستخدم هذا الحق بناء على طلب المدعى العام، فى عدم إطلاع كل شخص على هذا الإفلاس الحتمى، الذى هو ليس المغزى الكامن فى الأمر، بل الناتج بشكل لا يمكن تلافيه. وبمقدوره على أية حال عدم قبول طلب السيد المحامى، بالسماح مرة أخرى بحضور الجمهور. ثم طلب من الملازم أول هايموللر التقدم للأمام، واعتذر عن التأخير، الذى حدث، بعد استدعائه، أى هايموللر. أدلى هايموللر بأن عمره ثلاث وعشرون سنة، ومهنته الجندية، ورتبته ملازم أول بسلاح الإشارة؛ ودون سؤاله أضاف أيضًا معتقده الدينى، الذى أدلى بأنه الكاثوليكية الرومانية؛ هذه المعلومة الإضافية، التى قالها بصوت مفعم بالحماس، أثارت بعض الاضطراب بين رجال القانون الموجودين؛ تبادلوا النظرات، حدث بعد ذلك همس قصير بين أوصم محرر المحضر والرئيس شتولفوس، الذى أخبر محرر المحضر بمحو هذه المعلومة الإضافية الأخيرة من المحضر. حكى أوصم فى المساء، رن صوت هايموللر فى الإدلاء بالمعتقد الدينى كـ «خفق راية». هايموللر، من استدار عدة مرات أثناء إدلائه بأقواله لجرول الابن - فى وضع متكلف تقريبًا -، أيد من ناحية المضمون، ما قاله بيهلاو عن صفته كجندى، إلا أنه عبر عنه بشكل آخر. وصفه بأنه «موهوب بشكل متميز»، سأله الدفاع، موهوب فى أى مجال، قال هايموللر

«كجندى»، وهو ما أضحك جرول الابن، ولم يجلب توبيخًا، بل بالأحرى التفسير المتكلف للملازم أول، الذى ذكّره، كيف أنه، أى جرول، ساعده، أى الملازم أول، فى المناورة بأن أعد ورسم مواضع التمركز، ومن ثم تدخل جرول، الذى توجب توبيخه بعد ذلك، دون أن يُطلب منه ذلك، فى أقوال هايموللر، وقال، كان هذا الأمر بمثابة حيل للهو الخالص، تنطوى على إثارة معينة، فنية فى الحقيقة. على أية حال، هذه رؤية فنية خاصة، تنطوى على مهارة ترتيب العدم فى مواضع خوائه المختلفة، والرسم والترتيب فى خطط الحشد ينطوى بالطبع على إثارة تخطيطية معينة. شتولفوس، الذى تأكد من أن الساعة لم تصل إلى السابعة بعد، ونهاية المحاكمة ستكون على أقصى تقدير فى حوالى الثامنة، والذى كان يزهو إلى حد ما، بأنه برغم كل الالتواءات غير المتوقعة، المربكة إلى حد ما، سارت المحاكمة على هذا النحو، كما كان قد قدر لها، استمع بصبر بالغ وقاطع جرول الابن فقط، عندما أوشك هذا أن يختم تفسيره. استرسل الملازم أول فى تقييم جرول الابن، ووصفه بأنه «ذكى، غير عنيد، إلا أنه يتمتع بلا مبالة تكاد تكون وبيلة»؛ كان بشكل عام سلس القيادة، مرات عدة ـ «أو بالأحرى، غالبًا فى الحقيقة، بالضبط خمس مرات» ـ تجاوز حد الإجازة، «ثلاث مرات منهم بفترة طويلة»، ونال عقابًا. سأله الدفاع، هل كان جرول يوم «الواقعة» مجندًا أم مدنيًا، قال هايموللر، كان جرول «وقت الجريمة» مجندًا من الناحية الفعلية، مدنيًا من الناحية القانونية، قوات الدفاع الألمانية ـ وقد تأكد من هذه الحقيقة مرة ثانية من رئيسه ـ ليست هنا طرفًا

كمتضرر مادى ثانوى، ولن تلاحق جريمة جرول طبقًا للقانون العسكرى. وقد تبين فقط بعد الجريمة، أنه بسبب أخطاء حسابية، وهى لا يمكن تلافيها، قد تم منح جرول، الذى كان فى هذا الوقت رهن التسريح من الخدمة تقريبًا، وتحتم السماح له بإجازة خاصة لزيارة والده الذى يعانى من التهاب شعبى حاد - أربعة أيام - حسبت عليه بطريق الخطأ من إجازته العادية؛ لذلك كان جرول من الناحية الفعلية «وقت الجريمة» مدنيًّا. سأل الدفاع، هل يمكن اعتبار جرول، بسبب الارتداء غير المنضبط للزى، وبسبب القيادة غير المنضبطة للسيارة الجيب الخاصة بقوات الدفاع الألمانية - من الناحية القانونية مدانًا بهذه الجنحة، ولتفسير الوضع القانونى تطلب الأمر فى الحقيقة إجراء، حتى لو كان شكليًّا خالصًا من هذا النوع -، هل يتم مقاضاة جرول بسبب هاتين الجنحتين، حتى ولو شكليًا فقط؟ لم يفهم الملازم أول سخرية الدفاع، وأجاب بإسهاب، بجدية ونزاهة، بأن جرول ليس مذنبًا فى هاتين الجنحتين، الماثلتين بالفعل، وعلى أية حال ليس بخطأ اقترفه؛ فهو، أى هايموللر، لا يعرف، أن إجراء كهذا ضده يمكن أن يُعقل. ثم، سأله الدفاع أيضًا عن الظروف، التى أدلي بها فى أقوالهما كوتكا وبيهلاو بشكل أساسى ومتطابق، عن المأموريات الوبيلة، قطع هذه الكيلومترات، أيد هايموللر أقوال كل من كوتكا وبيهلاو؛ قال، نعم، هذه المأموريات كانت تحدث، لأنه من الأسوأ بكثير، تأخير الفحص الذى حان موعده عن قطع «مسافة الكيلومترات المطلوبة للفحص». قال الدفاع: يمكن الاختلاف فى الرأى بشأن، ما إذا كان المصطلح «حان موعده» جائزًا بالنسبة

لفحص كهذا؛ يحين موعد الفحص ـ هو أيضًا قائد سيارة ـ فقط، عندما يصل عداد الكيلومترات بطريقة طبيعية، أى بالاستخدام العادى، إلى الرقم، الذى يتطلبه الفحص؛ تبدو له هذه الطريقة، معذرة على القول، «هراء مطلقًا». استنكر المدعى العام أمر إدخال نواح فلسفية وخارج مفاهيم المهنة فى الموضوع وإجراء جدل تافه حول كلمة مثل «حان موعده»: فى مؤسسة مثل قوات الدفاع الألمانية لا بد من مراعاة صفة إمكانية التحرك والقدرة على التمركز، والأمر الذى ينطوى على تفاهة ظاهرية ـ إدانتها ليست من اختصاص من هو خارج المؤسسة ـ ينطوى غالبًا على جدية بالغة. أمور كهذه تحدث فى كل مؤسسة ـ أيضًا فى «مؤسسة القضاء». وبسؤاله عن تفصيلات المأمورية موضوع النزاع، قال هايموللر، نعم، اقترح كوتكا وبيهلاو جرول عليه ـ وأرسل هو جرول فى مأمورية تفتيش مدتها خمسة أيام، بمفرده، وهو ما لا يتفق تمامًا مع التعليمات، إلا أنه ليس من الممكن فقط التساهل فيه، بل ممكن أيضًا السماح به. قطع جرول الطريق السريع، كما تبين بعد ذلك، من دورن إلى ليمبورج فقط، ثم منها إلى نهر الراين، وسار بمحاذاة الراين حتى البيت ووصل عند والده فى حوالى السادسة مساء، حيث بقى إلى وقت الجريمة. طلب المدعى العام من جرول الابن، أن يقول رأيه فى الأقوال المدونة فى المحضر للأرملة لويفن جدته، والأرملة وفرملزكيرشن الجارة، من أكدتا، أنه قاد السيارة إلى شونة حبوب فارغة، وتركها أربعة أيام واقفة هناك وأوى إلى البيت فى الوقت موضوع النزاع وعمل مع والده. أيد جرول أقوال السيدة

لويفن والسيدة فرملزكيرشن موافقًا عليه حتى أدق التفصيلات أيضًا، وقام والده بنفس الشىء؛ ردًا على سؤال الدفاع، ألم يُعَرض جرول نفسه للعقوبة بحيوده عن المأمورية المحددة له مسبقًا، قال هايموللر، حيود كهذا يُعَرض للعقاب بالفعل، إلا أنه يتم التساهل فيه، بالإضافة إلى أن جرول كان مكلفًا بقطع عدد الكيلومترات المطلوبة، أينما توجه، قطعهم، حتى لو لم يكن كما أملى عليه، لكن لابد بشكل عملى، وقد تبين فيما بعد، وكما كشف الفحص الجنائى لحطام السيارة، أن قراءة عداد الكيلومتر بلغت ٤٩٩٢كم. هذه النتيجة بلغها جرول، برفع السيارة وتركها تدور بموتور متواصل الحركة؛ ووجه العادم الناشىء بخرطوم إلى الفضاء؛ أكدت السيدة لويفن أيضًا والسيدة فرملزكيرشن جارتها فى السكن صوت الموتور الدائر، رغم إحداث مؤثرات صوتية متغيرة باستخدام بالات القش والتبن. برر الرئيس طرح هذه التفصيلات الآن فقط لمناقشتها، بأنها تعد من أسرار الخدمة العسكرية. فكرة رفع السيارة، ترجع لجرول الأب، من وقعت عيناه أثناء بناء ما يعرف بالحائط الغربى فى السنوات ٣٩/١٩٣٨ على شىء مشابه، وشارك فى العمل فيه إلى حد ما؛ والطريقة تطابق خبرة قديمة لسائقى قاطرات غشاشين، كانوا يحصلون على رسوم الكيلومتر بهذه الطريقة. أيد أيضًا كل هذا جرول الأب وجرول الابن، الذى قال بهذه المناسبة، إنه أوصل عداد الكيلومتر للرقم ٤٩٩٢ متعمدًا، وهو عنصر مركب؛ أهمية هذا المصطلح ستتضح فى مرافعة محاميه. وبسؤاله عن مصداقية وطبع العريف كوتكا، قال الملازم أول، ربما تبدو غير

محتملة، لكن كوتكا يؤدى خدمته، والمهام المنوط بها بنزاهة مطلقة، ودقة متناهية، وقد تم الإطراء على وحدته، أى وحدة الملازم أول عدة مرات بسبب الصيانة الممتازة لمركباتها، والفضل فى ذلك لكوتكا؛ من الناحية الخاصة ـ حسنًا، حالة كوتكا من الناحية الخاصة، ربما لاحظ السادة هذا الأمر. هز هايموللر مستسلمًا كما لو كان يتملكه حزن دفين كتفيه وأضاف، فى جعبته إجراء آخر لاختيار جنود مهنيين، لكن كوتكا جندى من الناحية المشروعة أو بالأحرى القانونية ولا يمكن أن يتركه. فى جعبته، أى الملازم أول، جيش من الطهارة، من النظافة ـ لكن هنا ليس المكان، لصياغة فلسفة دفاع خاصة. أومأ الرئيس برأسه مؤيدًا، ونظر إلى الدفاع والمدعى العام متسائلاً ـ أفاد الاثنان بإشارة بأنهما لم يعُدا بحاجة بعد للشاهد الملازم أول هايموللر. شكر الرئيس الضابط الشاب وطلب منه أن يبلغ مرءوسيه بالانصراف أيضًا.

دعا شتولفوس كوجل ـ إيجر وهيرميس إليه على المنضدة لمشاورة وجيزة، ولم يخفض حتى صوته، عندما سأل كليهما، هل يرجئان هذا، ويأخذان فترة توقف أقصر الآن أم يبدآن فى استجواب الشاهد البروفيسور بورين دون فترة توقف، ويدرجان بعد ذلك فترة توقف طويلة، من ثلاثين إلى أربعين دقيقة، قبل أن يتم البدء فى الفصل الختامى باستجواب نهائى للمتهمين، والمرافعات والنطق بالحكم. أعرب هيرميس عن مخاوفه من احتمال احتياج أقوال بورين لبعض الوقت، بينما أعلن كوجل ـ إيجر باستياء أنه لا حاجة لاستجواب أحد أساتذة الفنون الأكاديميين. بعد مناقشة

قصيرة مع موكليه (قال جرول الأب، سيكون عشاؤهما على أية حال وجبة باردة، وأيضًا النبيذ الأحمر لن يفسد) أعلن هيرميس موافقته على البدء فورًا فى استجواب بورين. دعا شتولفوس الآن شروار إليه وسأله، هل تم إعلام زوجته، كما هو الحال غالبًا فى مثل هذه الحالات، بإعداد وجبة صغيرة ومشروب منعش. قال شروار، زوجته شعرت، إنه تم التخطيط «لمسيرة طويلة» اليوم، وهى مهيأة فى كل وقت، لإعداد القهوة، وأيضا هناك جعة بكميات كافية، «بالإضافة لسجق، وسندوتشات بالتأكيد، وحساء وكشطة من سلاطة البطاطس، وإذا كان قد تم إعلامى بشكل صحيح، أيضًا حساء مسبك من لحم البتلو المتبل، من المعلبات على أية حال، وبيض مغالى فى سلقه». سأل شتولفوس، الذى أومأ برأسه بناء على هذه المعلومات وقد اطمأنت نفسه، هل له أن يسمح للجمهور ثانية أو بالأحرى يعاود فتح الباب. سأله شتولفوس، ألا زال هناك جمهور ينتظر؛ قال شروار، نعم، الآنسة هال «مهتمة جدًا بمسار القضية». لم يعترض كوجل - إيجر ولا هيرميس أبدًا على فتح الباب، حتى برجنولته أشار هنا علنية لأول مرة إلى أن وجوده يفتقر تمامًا للصفة الرسمية: أومأ برأسه لشتولفوس مؤيدًا. توجه شروار للباب، وفتحه؛ ترجلت أجنيس هال إلى الداخل، وجلست بتواضع فى آخر صف من الصفوف الأربعة للمقاعد. كانت قد أبدلت ملابسها، وارتدت تنورة خضراء داكنة من التويد، عليها جاكت فضفاض، لونه أفتح قليلاً، أخضر أيضًا، مغطى من على الأكمام واللياقة بشريط نحيل من فراء الشنشيلة. شب جدل فيما بعد حول ما إذا كان

شتولفوس قد أومأ لها برأسه أم كانت حركة الرأس التى وُصفت بأنها إيماءة مجرد «انكباب» على الملفات. قال أوصم محرر المحضر، كلا الأمرين ماثلان فى هذه الحركة: فهى لم تكن مألوفة أو تلقائية بشكل كاف للانكباب على الملفات، وهى أيضًا واهية جدًا كإيماءة مجردة، على أية حال، هو متأكد من هذا الأمر، لأنه شاهد شتولفوس كثيرًا وهو ينكب على الملفات، هى لم تكن مجرد انكباب على الملفات. قال شروار فيما بعد، كانت إيماءة فقط، فهو يعرف حركات رأس شتولفوس، بينما أعلن هيرميس أن «أى خلط لها بإيماءة خارج النقاش». الشخص الوحيد، بخلاف هؤلاء، الذى شغلته حركة الرأس هذه، كان أجنيس هال نفسها، فسرت حركة الرأس مثار الجدل بشكل قاطع على أنها إيماءة، نسبتها لنفسها ملحقة بصفة «ودية».

ظهور الشاهد البروفيسور بورين فى القاعة خافتة الإضاءة كان لايستحق جمهورًا كبيرًا فقط بل، كان يستحق جمهورًا أكبر؛ فيما بعد كان هناك جدلا حول إحدى تفاصيل وصف الظهور البورينى بين أوصم شديد الولع بالنواحى الأدبية وهيرميس الأقل ولعًا بمثل هذه الدقائق، والذى عارض الوصف الأوصمى للظهور البورينى على أنه "ارتجال موجز"، بأن احتج معلقًا، مفهوم ارتجال يستبعد أى مزج بمفهوم موجز؛ عارضه أوصم قائلاً، الارتجال بالذات يحتاج للإيجاز والإيجاز للارتجال، ما يحتاج النظر فيه هو مفهوم مثل العصف - عاصف، يتضمن الارتجال والإيجاز، وإذا كان لم يصف ظهور بورين بأنه عاصف، فذلك لأن هذا المفهوم وقعه عليه رث، لذلك فهو مصر

على أن: ظهور بورين كان ذا ارتجال موجز. من الواضح لم يتوقع كل الحاضرين، فيما عدا هيرميس، الذى تداول مع بورين عدة مرات فى الموضوع المنظور، حيث تم استدعاؤه كبروفيسور للشهادة، أن يروا ظاهرة مثل بورين؛ حتى الاثنين جرول ظهرا لأول مرة وقد تملكهما الفضول. كان بورين يرتدى سترة فضفاضة كشمير مضلعة صفراء بلون البازلاء، ولأن هيرميس كان قد قال له، من الأفضل الظهور برابطة عنق، ارتدى عليها أيضًا قميصًا أصفر بلون البازلاء ورباطًا ذهبيًّا غليظًا إلى حد ما، معقودًا على الرقبة، كالمستخدم فى تعليب الهدايا وقت عيد الميلاد؛ سرواله كان أخضر بلون السبانخ، وحذاؤه من أربطة جلدية مجدولة فى غير إحكام، يكاد يكون صندلاً، وعلى عكس ذلك كانت تصفيفة شعره الداكن تشير بشكل واضح للطبقة الوسطى؛ أيضا ذقنه حليقة بعناية وبدون شنب؛ وجهه الناضر المكتسب سمرة بـ«عينيه الكلبيتين المحبتين»، كما قالت أجنيس هال فيما بعد، أشعر بالود، عندما أفصح بصوت محشرج عن بياناته الشخصية: أربعة وثلاثون عامًا، متزوج، وله سبعة أطفال، ليست له علاقة قرابة أو نسب بالمتهمين. بعد ذلك طلب منه هيرميس إيجاز القول عن هذا الأمر، قرر أنه درس بدقة «الواقعة»، المنظورة للمداولة هنا، وألم بكل الاعترافات التى قيلت بشأنها، بما فى ذلك تلك التى تمثل أهمية قصوى له، الخاصة بإربل مندوب المبيعات، الذى عرف منه توًا عن طريق السيد هيرميس المدعى العام، أن البيانات البالغة الأهمية، التى أدلى بها فى المحضر، قد أيدها أحد رجال الشرطة على مدار محاكمة اليوم؛ تم فيها وصف

نقاط على درجة كبيرة من الأهمية، وهل له أن يوجه للمتهمين سؤالاً. عندما قال شتولفوس، مسموح له، سأل بورين، الذى لم تغادر البهجة وجهه، جرول الابن، كيف أحدث هذا الصوت الموسيقى، الذى تم وصفه تارة قرقعة، وتارة كدوى طبول، ووصفه إربل مندوب المبيعات بأنه «جميل إلى حد ما». تهامس جرول الابن بداية مع هيرميس، قبل أن ينهض وقال، لا يمكنه البوح بالسر، لأنه أحد العناصر القليلة للأسلوب الذى ينوى استكمال تطويره، وهو يخطط للكثير من هذا النوع؛ وقد بحث بالفعل فى ساحات تجميع الخردة عن غلايات قديمة، «فى حجم مرجل قاطرة»، لكى يقيم حفلاً موسيقيًّا، بمجرد أن يتسع له الوقت وتواتيه الفرصة. كانت الواقعة الموصوفة بأنها تلفيات مادية هو المتسبب فيها مجرد «تجربة أولى، موفقة على أية حال»، ينوى استكمالها. طلب منه شتولفوس، أن يثق فى التزام جميع المشاركين، وأيضًا المشاهدة الآنسة هال، بالتكتم على السر وعدم حجب المعلومة عن «السيد البروفيسور»، قال جرول، إنه متأكد، أن «الشاهد بورين» يهدف لانتحال الفكرة، كما هو مألوف من الفنانين؛ لم يفقد بورين ابتهاجه أيضًا من جراء ذلك، واعترف بأن فضوله ليس إيثاريًا بالمرة، وأضاف لمعلومات جرول، أنه، أى بورين، ينتمى لاتجاه فنى مختلف تمامًا وأنه يعده بشرف، عدم البوح بالسر خارج قاعة المحكمة. عاود جرول الابن التشاور مع الدفاع، الذى طلب من الرئيس، أن يأمر بإدراج أقوال جرول فى المحضر و"إثبات نوع من التنويه لحق الملكية الفكرية بهذه الطريقة". شتولفوس، الذى كان فى مزاج طيب جدًّا، طلب من

أوصم، تسجيل أقوال جرول فى المحضر. أدلى جرول الابن، من توارت شكوكه ثانية وراء ابتهاجه، أنه أحدث هذه الأصوات من بونبون الشعير بالإضافة لبعض بونبون القشدة، بمعنى، النغمات العميقة من بونبون الشعير، والنغمات الحادة من بونبون القشدة، وقد قام فى الحقيقة بتفريغ كلتا الصفيحتين فى السيارة، ثم أحدث بهما ثقوبًا، وملأهما ببونبون الشعير أو القشدة، وأحكم سدهما بالغطاء، وأحدثت النار، النار الشديدة بعد ذلك الأثر المنشود؛ محاولات سابقة بالبونبون اللاذع وما يسمى بخد الجميل(١)، استخدم فيها إحدى علب حفظ الطعام الصفيح الكبيرة، فشلت لانصهار المادة وسيلانها فى شكل عصيدة، بدلاً من «إصدارها لموسيقى». أجرى تجارب أيضًا بروث الماعز وفتات السكر النبات الصغيرة ـ دون نتيجة. المدعى العام، الذى لم ينفد صبره فقط، بل بدأ يستاء، لأنه، اعترف فيما بعد، «بدأ يندم، لأنه أذعن لأبناء منطقة الراين الماكرين هؤلاء فى تحريك هذه القضية»، سأل بورين، هل هو أستاذ كرسى أم ليس أستاذ كرسى، بورين، من أفلتت منه هنا ضحكة خافتة لا تخلو من استخفاف تقريبًا، قال، إنه لا هذا ولا ذاك، هو أستاذ جامعى فى المدينة الكبيرة المتاخمة، شهادة تعيينه موقع عليها من رئيس الوزراء، وحقيقة الأمر هو لا يحمل هذه الشهادة دائمًا معه أو لذاتها، لكنها بكل تأكيد يمكن العثور عليها «فى مكان ما فى البيت»؛ هو مستحق للمعاش، مرة أخرى أيضًا قال

(١) فى الأصل Seidenkissen وتعنى وسائد حريرية أى قطع بونبون بشكل الوسائد الحريرية لكن هذه التسمية غير مألوفة فى العربية. (المترجم).

هذا بضحكة خافتة منه ـ فى الحقيقة «تم تخطيه» فى الانتخابات الأخيرة للمديرين، إلا أنه متأكد من أنه «سيكون له فرصة حقيقية» فى المرة القادمة. أضاف أن تماثيله، موجودة فى، قال، «انتظر»، وعد على أصابعه، هامسًا مع نفسه، حتى سبعة، وقال للمدعى العام، وهو مازال مبتسمًا فى ابتهاج، «فى سبعة متاحف، ثلاثة منها فى الخارج. أتعرف، أنا فى حقيقة الأمر موظف». سأل المدعى العام الرئيس، دون أن يكتم استياءه، هل له أن يعرف، أم هل يجوز له أن يعرف هذا ربما من زميله الموقر هيرميس، لماذا يتم استجواب الشاهد البروفيسور بورين. أجاب هيرميس: البروفيسور موجود هنا، لكى يشهد، بأن «الجريمة» ـ نطق ضمنيا علامتى التنصيص بمهارة ـ التى يتم تسميتها هنا بـ«الواقعة»، كانت عملاً فنيًّا. ولأن شتولفوس أومأ أيضًا برأسه تعقيبًا على أقوال هيرميس هذه ولأن برجنولته، كان ينظر لكوجل ـ إيجر متوسلاً، راجيًا بيدين مرفوعتين فى صمت، ثم انكمش فى نفسه، بأن شخص بعينيه لأسفل ودوّن فى دفتر ملاحظاته نقاطًا مفتعلة، عرف كوجل ـ إيجر، كما قال فيما بعد لزوجته، «فى هذه اللحظة عرفت لأول مرة، أنه تم خيانتى وبيعى».

- طلب منه هيرميس، أن يذكر تعريفًا لذلك الاتجاه الفنى الحديث أو، بمعنى أدق، الأسلوب الفنى، المعروف عالميًّا باسم هبيننج، فقال بورين، إنه يريد التأكيد على أنه مازال على ولائه للتقليد الراقى القديم لفن النحت المجرد من المادة، وهو يعبر عن نفسه بهذا الأسلوب الفنى؛ وقد تلقى ـ قال هذا بتخريج واضح للألفاظ، لا

يخلو من تهكم لطيف للمدعى العام ـ جائزة الدولة مرتين؛ على أية حال، هو ليس من أنصار مدرسة الهبيننج، اختلف مع وعكف على دراسة هذا الفن، الذى تم تسميته باللا فن. ربما كان محاولة، لو كان على دراية وافية ـ ومن عساه على دراية وافية؟! ـ لإحداث فوضى خلاقة، لا للتشكيل المنطقى، بل للتشكيل بلا منطق، نعم، للتشكيل بلا منطق ـ لكن بنزعة يحددها الفنان أو الممارس، تجعل من هدم منطق التشكيل مرة أخرى تشكيلاً جديدًا(١). بهذا المعنى تكون الواقعة، موضوع التداول هنا، «بلا أدنى شك عملاً فنيًّا، نعم، فهو فى حقيقته فعل غير عادى، لأنه خماسى الأبعاد: البعد المعمارى، والتشكيلى، والأدبى، والموسيقى ـ لأنه ينطوى بشكل واضح على مقومات مركزة ـ وفى النهاية عناصر الرقص، كما تم التعبير عنها فيما يرى على إيقاع القرع المتبادل للغليونين. شىء واحد ـ وهنا عقد بورين مستنكرًا الحاجبين ـ أثار قلقه: لفظة «التدفئة»، التى استخدمها أحد المتهمين. هذا تضييق ملحوظ، إن لم يكن مغالى فيه لخصائص العمل الفنى، لأن العمل الفنى فى غاية أمره ليس لغرض التدفئة؛ ومن المآخذ أيضًا حقيقة أن الأمر يدور حول سيارة جديدة، بل، جديدة بحالة المصنع، وحقيقة أنها سيارة، وتَحتَّم

---

(١) يستخدم بل فى هذا الموضع اللفظتين الألمانيتين Gestaltung ، Entstaltung بهذا الشكل ثم يعاود استخدامهما بهذا الشكل Ent - StaLtung و Ge - Stalt machen وهى خاصة لغوية للألمانية غير متاحة بشكل مطابق فى العربية. ولفظة Entstaltung استخدمها فالتر بنيامين فى آرائه النقدية فيما يخص الإبداع الفنى ولم يتم وضع مفهوم لها وإنما الاستناد فى فهمها أساسًا على تقابلها ـ المناقض لا المضاد ـ للفظة -Gestal

أن تكون سيارة قابلة للاستخدام، توضع أمام عينيه بالقطع: وقود، وسيارة، وحريق، وانفجار: وهنا فى آخر الأمر عناصر التقنية الحديثة ماثلة فى ترابط فنى بأسلوب لا يخلو من العبقرية. المدعى العام الذى خفت شدة احتداده، سأله فى هذا الموضع بإذعان لا يخفى حنقه بأية حال، هل أقواله تعتبر قاطعة أم إلى حد ما موضوعية، وهو ما رد عليه بورين مبتسمًا، قاطعة أم إلى حد ما موضوعية مفردات نقد فنى، لم يعد يناسب هذا النوع من الأعمال الفنية. سأل المدعى العام، ألم يكن من الممكن، اختيار آلة أخرى، لماذا تحتم أن تكون سيارة ـ هنا ضحك بمكر. كل فنان يحدد مادته بنفسه، لا يمكن لأحد التدخل أو المشاركة بالرأى فى ذلك، وإذا ما رأى شخص، أنه يجب أن تكون سيارة جديدة، فلا بد إذاً أن تكون سيارة جديدة. سأل المدعى العام، من تحول استياؤه الدفين ثانية إلى مرح تقريبًا، هل من المعتاد، أن يسرق الفنان مادة العمل الفنى ـ كان يتكلم بتهكم واضح ـ؟ عارض بورين من جديد بما وصفه أوصم فيما بعد بشكل خيالى بأنه ارتجال موجز: قال، الرغبة فى العمل الفنى، عبارة عن نوبة انفعال شديدة، لدرجة أن الفنان يكون فى أى وقت مستعدًا تمامًا لسرقة المادة؛ وقال، غالبًا ما التقط بيكاسو من مقالب القمامة مادة لأعماله الفنية، وذات مرة جعل قوات الدفاع الألمانية تشارك لبضع دقائق فى عمل فنى من هذا النوع بموتورات مقاتلات نفاثة. ليس عنده المزيد لقوله: شىء واحد أكيد، هذه الواقعة تدور حول إنتاج عمل فنى رفيع الدرجة، وهو ليس، كما قال، ذا خمسة أبعاد، بل ذا خمسة مصادر إلهام فنية؛ بالطبع يتطلع

الفنان لمصادر إلهام فنية جديدة، لكن جمع خمسة مصادر إلهام فنية فى عمل فنى واحد، هو أيضًا شىء «رائع تمامًا»؛ ولأن الأدب الدينى ماثل، تردد قليلاً، ليس بقدر كبير فى شكل ابتهال: هذا العمل الفنى يمكن أن يكون أيضًا مسيحيا، فهو يتضمن على أية حال توسلاً للقديسين. سأل بورين بتواضع لطيف، هل له أن ينصرف الآن، فهو ـ يؤلمه بشدة، بل «يؤلمه إلى أبعد حد» اضطراره للقول، إنه على موعد مع السيد رئيس الوزراء، الذى قال له، إن أمرًا غاية فى الأهمية سيؤخره، لكن لا يصح ترك سيادته ينتظر طويلاً. قال المدعى العام، ليست لديه أسئلة أخرى، أمسك عن قول بعض الكلمات، كان يود قولها، واشترط، طلب خبير آخر، لأنه لا يعتبر بورين شاهدًا، بل خبيرًا. طلب هيرميس السماح له بطرح سؤال واحد: وصف لبورين بسرعة، أن جرول الابن كان قد طلب من إربل، مندوب المبيعات، زجاجة من عينة الدعاية لإسبراى الحمام الذى يروج له؛ أفشى له موكله، بأنه استخدم إسبراى الحمام كمادة فنية إضافية ـ سؤاله للسيد الشاهد: هل «مهارة إضافة» إسبراى الحمام الذى طلبه، وكما هو معروف ينتج رغاوى خضراء ضاربة للإصفرار أو زرقاء، يمكن إدراجه لعنصر الرسم كبعد سادس أو كمصدر إلهام فنى سادس؛ أيد بورين هذا، ووصف فكرة إدراج إسبراى الحمام بأنها توجيه لماح للمؤثرات. سمح له الرئيس شاكرًا بالانصراف، والتوجه لموعده مع السيد رئيس الوزراء.

الفصل الرابع

حدث مشهد صاخب بعد مغادرة بورين، لم يتم السماح لأوصم بتسجيله فى المحضر. انطلق المدعى العام فى الزئير، متجاهلاً كل اعتبار، متوجهًا لا لشتولفوس ولا لبرجنولته بشكل مباشر، مهددًا، بالتوقف عن أداء مهام وظيفته فى هذه القضية؛ شعر بأنه «زُج به فيها»، لا بالقدر الكبير من زميله هيرميس، من كان من صميم حقه، المناورة لوضع موكليه فى أنسب وضع، بل ـ هنا رفع يديه وشخص بنظره لأعلى متوسلاً، كما لو كان يناشد مساندة الرب أو على الأقل إلهة العدالة بشخصها ـ «فى الأعالى، فى أى مكان زججت بنفسى فى وضع، أرغمنى على التهاون فى تحمل المسئولية، وهذا ضد طبيعتى. أنا اعتزل مهام وظيفتى»! كوجل ـ إيجر، لا يزال شابًا ذا بدانة زائدة، أمسك بقلبه فى عفوية بخوف، جعل شروار فى الحال، يقفز باتجاهه، ويخاطب يوهان جرول المسجون احتياطيًّا على ذمة التحقيق بصيغة أنت بشكل مخالف للتعليمات بالصياح: «اذهب، وأحضر ليزا بسرعة» وأيضًا بإرساله خارج قاعة المحاكمة دون

تفويض. فى الحقيقة ترك كوجل ـ إيجر نفسه مذعنًا تقريبًا لشروار يقوده إلى المطبخ: وجهه الآخذ فى التحول للون الأزرق، وجه إنسان، يميل للإفراط فى تناول الطعام ولا يرفض كوبًا من الجعة، لم يظهر بالمرة نفورًا، عندما أسرع جرول الابن دون أن يطلب أحد منه لمساعدة شروار ومغادرة قاعة المحاكمة ـ بشكل مخالف للتعليمات كأبيه ـ، لقيادة كوجل ـ إيجر إلى مطبخ أسرة شروار. هناك كانت السيدة شروار تمسك بلبخة الكافور ناجعة المفعول (قامت بغريزتها باختبار حساسية بشرة المدعى العام جيدًا)؛ قالت السيدة شروار فيما بعد للسيدة هال: «جلده كجلد الحصان!»؛ فتحت له بحزم السترة، والصديرية، ورفعت قميصه لأعلى وأخذت تدلك بيديها القويتين الجميلتين «منطقة صدره».

أثناء ذلك أسرع برجنولته إلى شتولفوس، وصعد معه، من نسى أن يعلن عن فترة توقف، إلى حجرة مكتبه بأعلى، وأمسك بسماعة التليفون، عندما أشار له شتولفوس بأنه، من الحكمة دائمًا، فحص حالة كوجل-إيجر، من الناحية النفسية والجسدية، قبل إزعاج جرلبر. همس برجنولته، من علا وجهه الآن شيئًا ما، يمكن وصفه بأنه «خوف مكشوف»، ـ رغم أنه لا ضرورة للهمس بالمرة، فلم يكن بمقدور أحد فى كافة الأرجاء أن يسمع ـ همسًا لشتولفوس، ألا يمكن عند الضرورة توجيه الطلب للمدعى العام هيرمانز الموجود فى هذا الوقت فى إجازة، والمعروف عنه أنه يقضى إجازته فى بيرجلار من نفسه، بأن يشغل المكان الخالى. شتولفوس، الذى أشعل سيجارًا، والذى لم يمسه الحدث العارض المؤلم لا بشكل غير مزعج

فقط، بل بدا أنه مستمتع به تقريبًا، لَمّح إلى برجنولته بأن تَسرع كهذا ربما من الممكن أن ينبه الصحافة. قال برجنولته، الذى أشعل لنفسه سيجارة فى اضطراب، ـ وهو لازال يهمس ـ يجب طرح هذا الأمر اليوم «على خشبة المسرح وحتى لو تأخر الوقت للساعة الثالثة فجرًا». ترك شتولفوس بمفرده، فاغتنم الفرصة، ليُعلم زوجته بالتليفون، أنه ربما لن يمكنه أن يكون بالبيت قبل الظهر، ولا داعى لقلقها. قالت له زوجته، عاود جرلبر الاتصال وأخبرها بلطفه المعهود، أنه، أى شتولفوس، بمقدوره توقع وسام رفيع، «ربما معلق فى رقبته». فى هذه الأثناء كان كوجل ـ إيجر قد استعاد عافيته لا باليدين القويتين والجميلتين للسيدة شروار فقط، أيضًا بالكونياك، الذى جَرّعهُ له المتهم جرول الأب بمهارة، وأصبح قادرًا على صعود السلم وإجراء مكالمة تليفونية طويلة من حجرة مكتبه.

تحادث فى قاعة المحاكمة هيرميس مع السيدة أجنيس هال، والشاب أوصم وجرول الابن العائد لتوه من مطبخ آل شروار عن زفافه الوشيك على الجميلة إيفا؛ أعلن جرول الابن أيضًا، أنه سيقوم بمفرده، بتولى عمل الأب وينوى تعيين والده «بأجر، أقل من حد الحجز». السيدة هال، التى أعلنت له فى وجود محاميه، أنها تنوى تعويض الخسائر، تلقت منه قبلة، وتم دعوتها إلى عقد الزفاف، مثل هيرميس وأوصم أيضًا، الذى يحادث جرول بلا تكلف منذ وقت الزمالة معًا فى نادى كرة القدم «بيرجلار الأزرق فى أصفر»، حيث لعب جرول مدافعًا وأوصم جناحًا أيسر. لَمّحَ أوصم لجرول، ولهيرميس وللسيدة هال أيضًا، كم ينعى حظه، فى التزامه

بواجب تكتم الأسرار كمحرر محضر؛ قال أيضًا، كان من الأفضل لجرول الابن التهرب من الخدمة الإلزامية فى قوات الدفاع الألمانية بالحيلة، فهناك طرق بسيطة جدًّا.

انتهز جرول الأب وشروار الفرصة فى مطبخ آل شروار، «لتناول كأس»، وعلما فى هذه المناسبة من السيدة شروار المضطربة، أنها لم تكن إيفا هى من يحضر طعام العشاء البارد للاثنين جرول، بل الكهل شميتس نفسه، من كان رأيه غير ودى بالمرة عن «الخزى الذى لحق بابنته» وبذلك هدد، بمقاضاة سلطات القضاء بتهمة القوادة؛ مدى انعدم الود فى استيعابه للأمر، يظهر فى نوعية طعام العشاء، المكون من خبز مدهون بالمسلى النباتى مع نقانق الكبد الفلاحى وزجاجة مياه غازية. ضحك الرجال على اضطراب السيدة شروار، وقالوا، إنهم سينتهون من أمر السيد شميتس؛ لن يتقبل أى أب وأى أم «شيئا كهذا» بسهولة؛ بعض الاضطراب شىء طبيعى جدًّا، وأيضًا «هذا» لم يحدث بالمرة، كما ثبت، بين هذه الجدران، بل بعد دفن العجوز لويفن. عليها ألاّ تنزعج، فليس لدى شميتس أدنى مبرر، «لأداء دور العادل والملتزم بالقانون». فالأمر بمثابة تكدير فقط لزوجته، السيدة جيرترود، من تستحق تبريرًا، نعم، بل اعتذارًا، لكن السيد بيتر متلبد الشعور، وبمقدوره أن يأتى ثانية فى الصباح ليأخذ حصته من خبز مدهون بالمسلى النباتى. قاطع برجنولته شروار عند هذه النقطة، أبلغه برجنولته بتكليف من شتولفوس، أنه تم تحديد فترة توقف قدرها نصف ساعة، والسيد مدير محكمة الدائرة ينتظر بالدور العلوى وجبة، مكونة من الحساء وبيضة مغالى

فى سلقها وقليل من سلاطة البطاطس، وهو ما دفع السيدة شروار إلى قول التعليق، البيض، خاصة المغالى فى سلقه، «غير صحى» لمن تخطى سن الخمسين من الرجال، وهى ترمق برجنولته بنظرة اختبار، وتوصلت بوضوح إلى نتيجة أنه فى سن، يسمح له «بالكاد» أكل البيض المغالى فى سلقه، دون أضرار. بعد ذلك طلب برجنولته، من بدا له ـ كما قال جرلبر فى وقت متأخر من الليل ـ «هذا الجو بأكمله غريب جدًّا»، أيضًا بيضة مغالى فى سلقها، وقدح حساء وشريحة خبز وزبد. تم قيادته إلى حجرة معيشة آل شروار، حيث كانت المائدة معدة له، وللسيدة هال، وللشاب أوصم ولهيرميس. تم قيادة جرول الأب وجرول الابن طبقًا للتعليمات إلى زنزانتيهما؛ تشمم برجنولته حقيقة فى الخطوات العسكرية المبالغ فيها قدر المستطاع لشروار كبير حراس هيئة القضاء، وفى صلصلة سلسلة المفاتيح «ذلك النوع من الفساد، الذى نتطلع لمحاربته بلا جدوى، سيدى الرئيس». فى حضور برجنولته بدا للثلاثة الموجودين غيره، هيرميس، وهال، وأوصم، أن الحديث بلهجة منطقة الراين قد توقف لوهلة، وهو ما بدا لهيرميس، شاب منطقة الراين المرح والمتحدث الطلق، أمرًا غير طبيعى حقيقة. اندفع فى نهاية الأمر بسؤال إلى خالته، مستفسرًا عن ديوكها الرومى: هل تشهد انتعاشًا من جديد كالسنوات السابقة وهل ستمنح ليانصيب حفل الأكاديمية الكاثوليكية اثنين رائعى الجمال مرة ثانية. هنا تدخل أوصم بالنقد الشديد وطلب بإذعان مفتعل «من فضلكم لا تنسوا أيضًا الليبراليين»، من سيقيمون حفلهم الراقص فى يوم ذكرى القديسة

باربارا، فردت عليه السيدة هال، بأنها ستهدى أيضًا الشيوعيين، فى حال انعقاد هذا الحفل، قدر المستطاع فى يوم ذكرى القديس توماس، اثنين رائعى الجمال، إذا ما سعى أحد لذلك. هذه القفشة، التى أزالت التوتر نهائيًا من على المائدة الصغيرة إلى حد ما لحجرة معيشة آل شروار، نتج عنها ضحكات مرحة، انضم لها برجنولته على مضض، ووصف هذه القفشة فيما بعد "بأنها فى الحقيقة شىء ما شارد لبعيد».

فى هذه الأثناء قامت السيدة شروار فى المطبخ بتحميص شريحة خبز أبيض لكوجل - إيجر، وجهزت له «أومليه شفاف»، ونصحت زوجها بالعدول عن الجعة لكوجل - إيجر، وأيضًا عن الحساء وقالت، الأفضل أن يحضر له كوبًا من الماء «عليه جرعة لا بأس بها من الكونياك».

لو كان مخولاً لأوصم، تسجيل المزاج، الذى تم فيه استكمال وإنهاء المحاكمة، فى محضره الرسمى، لما وجد كلمة وصف أخرى غير شاحب، وربما أيضًا منهك. كوجل - إيجر بالذات بدا رابط الجأش بشكل مستغرب. نهض بناء على طلب شتولفوس بحركة من يده، وقال بصوت ينم عن انكسار تقريبًا، إنه يتراجع عما قاله قبل فترة التوقف، ويقر، أنه كان فى حالة نفسية، لا تليق بموظف فى وضعه، عسى أن يلقى هذا تفهمًا. وهو يستأنف بعد موافقة السيد الرئيس مهام وظيفته ثانية، ويقبل أيضًا كامل مسئوليته للوظيفة نفسها من جديد. كل الموجودين، وحتى برجنولته، شعروا بالتأثر

تجاه انكسار المدعى العام هذا، الذى سيحدد بقية مسار المحاكمة. المتهمان على وجه الخصوص، من طلب منهما شتولفوس الآن، الإدلاء بتفسير أخير، تملكهما التهور بشكل واضح. جرول الأب، الذى تحدث أولاً، تحول أثناء كلامه تجاه المدعى العام فقط، بذلك القدر، الذى اضطر شتولفوس لأن يطلب منه بإيماءة رأس أبوية وحركة يد مطابقة لها، بالتوجه إليه هو، الرئيس، بوصفه المُخاطب الأساسى. قال جرول الأب، عليه، لكى لا يخدع أيًّا من السادة والسيدات الحضور، أن يكرر مرة أخرى، ما قاله فى البداية: أى قرار من المحكمة لا يعنيه، وهو يدلى بأقواله هنا لأسباب شخصية فقط، لأن أناسًا كثيرين متورطون أيضًا فى «هذه القضية»، يعرفهم هو بأشخاصهم ويجلهم. أما عن القضية نفسها فعليه أن يقول ما يلى: هو ليس بفنان، وأيضًا ليس لديه أى طموح فنى، بمقدوره فقط التذوق، لا إبداع شىء خاص، إلا أنه اكتشف لدى ابنه موهبة، وأعلن استعداده، المشاركة فى هذا الأمر؛ هو مشارك بأدق معنى للكلمة، لكن كلمة مشارك تنطبق على حصته فقط من العمل الفنى الذى نشأ، لا على حصته فى الجريمة، بقدر ما هناك جريمة. يتحمل هو فى الجريمة المسئولية الأكبر، فهو بالفعل الأكبر، وهو كان أيضًا، من أدخل المنظور الاقتصادى فى الموضوع، بأن فسر لابنه، من ناقش معه بتمعن الخطة و«الوجه الدرامى الفنى للحدث»، أن قيمة سيارة كهذه لا تساوى بالمرة ربع المبلغ، الذى دفعه على مدار الأعوام الأخيرة للضرائب، وهو لا يزال مدانًا فقط بخمس المبلغ؛ بخلاف ذلك يمكن بالفعل، هذا ما قاله، أى جرول الأب، خصم التكلفة

كمادة للعمل الفنى من الضرائب، بالضبط كحال إمكان خصم رسام للوحة القماش، واللون، والإطار من الضرائب. فهو من ناحية يعترف بأنه مذنب، فى أنه «شجع ابنه على هذا القرض، كما يجب أن أعترف، الهائل إلى حد ما من قوات الدفاع الألمانية». وهو ينشد تفهمهم لأنه فيما يخص وضعه من القانون وقرار المحكمة لا يرجو البراءة ولا العقوبة العادلة، بل ينتظر «القادم مهما كان، كالغيث أو كسطوع الشمس». ليس لدى الدفاع والمدعى العام أسئلة أخرى للمتهم جرول الأب.

بقى جرول الابن هادئًا أيضًا ولبقًا، بطريقة، آخذته عليها فيما بعد السيدة أجنيس هال واصفة لها بأنها «تنطوى إلى حد ما على قليل من التعالى». قال، لا مبالاته من نوع آخر غير لا مبالاة والده؛ لا مبالاته تنصب بقدر أكبر على قيمة السيارة. أنجز هذا النوع من المهام، التى تم وصف طبيعتها والتدليل عليها بإسهاب، فى مجمل الأمر أربع مرات فى سنة واحدة، وبهذه الطريقة قام على وجه الإجمال «بقطع عشرين ألف كيلومتر، بما يعادل نصف محيط الكرة الأرضية». ثلاثة آلاف لتر بنزين تقريبًا، كمية مساوية من الوقود كان عليه حرقها - غالبًا على الطريق السريع من دورن إلى فرانكفورت «ذهابًا وإيابًا» بهذه الطريقة؛ صار أيضًا شاهدًا على عملية إسراف لا معنى لها فى الوقت، والمادة، والجهد والصبر فى قطاعات أخرى من العسكرية. وفى نهاية الأمر قام بقيادة السيارة لكى يقطع مسافة العشرين ألف كيلومتر هذه لمدة أكثر من خمسة وعشرين يومًا، «لمجرد تحريك عداد الكيلومترات». وكنجار تم قيادته

لأداء أعمال، كانت «فى الحقيقة مقززة» له؛ شهور بطولها قضاها يعمل فى ملحقات بار فى أول الأمر لملهى يخص أحد الضباط، ثم فى ملهى خاص بأحد ضباط الصف، مجرد «وقاحة زهيدة الأجر» فى أساس الأمر. هنا قاطعه شتولفوس، من طلب منه فجأة بحزم، عدم التفلسف هنا بشكل لا يليق بقوات الدفاع، بل التحدث فى الموضوع. اعتذر جرول الابن، وواصل كلامه، فقال، إنه فنان، وأى عمل فنى يحتاج لتصريح من الدولة أو السلطة، كما كان حال كل هبيننج هنا حتى الآن، لا يعد بالنسبة له عملاً فنيًا. تَدبُّر المادة والعثور على المكان يعد مخاطرة، يأخذها كل فنان على عاتقة؛ خطط لهذه الواقعة، ودبر المادة. يريد فقط التأكيد على أن: البنزين المستهلك، حوالى ثمانين لترًا، دفع ثمنها من حر ماله، فقد كان «حمقًا شديدًا» منه، الذهاب إلى الثكنة لسبب كهذا، والتموين من مستودع الوقود الخاص بالسرية، وإن كان مصرحًا له بذلك. ما يريد الاعتراف به: «الهدف»، سيارة، ربما كان كبيرًا جدًا: كان يمكنه الحصول على التأثير المنشود بهدف أصغر؛ لاح له، اتخاذ علبة من الصفيح فقط، فى وسطها هرم من ثلاث بنادق - وسأل عن بنادق بمعرفة أحد الأصدقاء أو بالأحرى الوسطاء، يمكن حرقها بهذه الطريقة تحت صوت «قعقعة البونبون»، كان ينوى لحام أجزائها المعدنية المتبقية فيما بعد ليجعل منها عملاً فنيًا تشكيليًّا. هنا قاطعه شتولفوس أيضًا، بقوله، هذا ليس موضعه؛ ثم سأل جرول الابن، هل تعى، ما يعيه والدك بشكل واضح: أن الاستيلاء على مادة مرتفعة الثمن بهذا الشكل يعد انتهاكًا للحق وخرقًا للقانون. قال

جـرول الابن، نـعم، هـو عـلى بـيـنـة من ذلك، لـكن ـ حـان الـوقت للاعتراف ـ بأنه كان سيتم استبدال المادة، عند الاضطرار إلى ذلك، ومن الطبيعى أنه سينشىء أعمالاً فنية فى المستقبل، سيحدد ويتدبر ويدفع ثمن مادتها بنفسه. وحيث لم تكن ثمة أسئلة موجهة لجرول الابن لا من الدفاع ولا من المدعى العام، طُلب من كوجل ـ إيجر، أن يبدأ مرافعته؛ وسؤاله، هل يأمل فى فترة توقف قصيرة للاستعداد، قال لا، وهم بالوقوف ووضع قلنسوته على رأسه وبدأ الكلام. هو، أى كوجل ـ إيجر، استعاد مرة أخرى لا هدوءه فحسب، بل أيضًا رباطة جأشه؛ تحدث برزانة، وبقدر من الطلاقة، دون مخطط، لم يكن ينظر إلى المتهمين ولا إلى الرئيس، بل يتجاوز بنظره رأسه إلى موضع معين على الحائط، كان موضع اهتمامه طيلة النهار: كان هناك باستمرار على «الدهان المهلهل المثير للشفقة»، كما يسمى باستمرار فى المناشدات الخاصة بالأمر، الكابى منذ وقت طويل، إذا ما تم معاينته بنظرة فاحصة، موضعًا يمكن التعرف عليه، كان معلقًا عليه فيما سبق المسيح مصلوبًا، عندما كان المبنى مستخدمًا كمدرسة، نعم، حقيقة، كما تذكر كوجل ـ إيجر فيما بعد، «تلك الدعامة الخشبية المتجهة بميل كعلامة السكك الحديدية تقريبًا إلى أعلى اليمين، التى تكون فرع شجرة البقس». تحدث كوجل ـ إيجر بصوت خافت، لا بخنوع، لكن بلطف، قال: الوضعية المحترمة للمتهم جرول الابن كـ«فنى مطلوب» وأيضًا وضعه الاقتصادى أمران محددان المعالم فى ذهنى، قام الدفاع بتوضيحهما كَقَدَر واحدٍ من الشهداء الحقيقيين للمجتمع الإنسانى؛ أيضًا الحشد الهائل من

شهود الدفاع حقق لديه، أى لدى كوجل ـ إيجر عكس الأثر المنشود، فهو إنسان ذو طبيعة حساسة بحيث، كما يرى على أية حال، يمكن إلقاء عبء المسئولية عليه بشكل أقسى من أى شخص آخر، أقل استحقاقًا. الأمر بالنسبة له، أى لكوجل ـ إيجر، كما بالنسبة لكيرفل رجل الشرطة: أنه يفزعه الاعتراف الخالص. نقاط الإدانة تعتبر ثابتة: خسائر مادية ومزاحًا ثقيلاً. تم إثبات نقطتى الإدانة باستيفاء، بل تم الاعتراف بهما. تم التركيز بشدة على العبث فى قوات الدفاع الألمانية؛ هذا العبث ينطبق على جميع نواحى الحياة والاقتصاد. اكتشف فى هذه الأثناء، من حملقته المتواصلة فى أثر المسيح المصلوب، هناك أيضًا، كما حكى لزوجته بعد ذلك فى المساء، آثارًا مختلفة لفروع شجر البقس ـ وهو ما دفعه لإطلاق ضحكة، لم يفهمها كل الموجودين، لأنه بهذه الابتسامة الرقيقة، الجميلة التى علت وجهه واصل قائلاً، كثر الحديث هنا عن الفن، عن التشكيل المنطقى، والتشكيل بلا منطق، وهو متأكد، أن الشاهد بورين، الذى أحضره كخبير، كان عليه أن يتوقع معارضة شديدة، إذا ما تم، وهو أمر لا يمكن تلافيه، استئناف الحكم فى هذه القضية. وبمقدوره الإعراض فى مرافعته عن هذا التعارض الجوهرى المدعى بين الفن والمجتمع، وأيضًا هذا الاستفزاز المدعى. الفن، فى نظره مفهوم ذاتى جدًا، وعفوى جدًا. حسم أمره لابد أن يتم فى «أماكن أخرى أعلى». إنه يطالب ـ وهو مبتسم بشكل متواصل لهذا الموضع، حيث كان معلقًا فيما سبق المسيح مصلوبًا ـ، يطالب، فهو يمثل هنا الدولة، التى أصيبت فى صميمها كما يقال بجريمة المتهمين ـ يطالب

بسنتين سجن ليوهان هينريش جيورج جرول، وسنتين ونصف السنة لجيورج جرول، وتعويض كلى عن الخسائر، وعدم حساب مدة الحجز على ذمة التحقيق، وقد كانت على أية حال بمثابة مهزلة واضحة المعالم. جلس مبتسمًا، اتجه بوجهه من جديد الآن للمتهمين، من لم يبديا أية حركة، فى حين تراجع برجنولته الجالس خلفهما للوراء بشكل واضح، عندما طالب كوجل - إيجر بالعقوبة.

شتولفوس، من استقبل الطلب مبتسمًا، طلب من هيرميس الآن أن يتقدم للدفاع، وطالبه بلباقته المعهودة، «عدم الغلو فى الإسهاب، لو تفضلت، أيها الزميل، فأنت تفهمنى».

هيرميس، من وُصفت مرافعته من جميع رجال القضاء الموجودين، ومن برجنولته بشكل خاص، بأنها «عادلة بشكل فائق» وموجزة، نهض مبتسمًا، نظر حوله، حيث توقفت نظرته وقتًا أطول على وجه خالته أجنيس هال، من وصف شروار تعبيرات وجهها فيما بعد بأنها «رزينة، باشة من داخل نفسها» - ثم قال، إنه مدرك لتفرد الواقعة، لتفرد المادة موضوع المداولة، ويحزنه بقدر كبير، أن الجمهور لم يعرف «من خلال المناورات الحاذقة لرجال الصحافة فيما بينهم» إلا القليل، بل لا شىء تقريبًا عن الأحداث، التى تم تداولها اليوم. مع ذلك فهو يريد أن يوجز: اعترف موكلاه، بأنهما لم يصادفا أية مصاعب فى استجوابهما، وأقرا، «وهى شطحة بعيدة جدًا»، بأنهما ليسا فقط مستعدين، لتعويض الخسائر الناشئة، فالخسائر تم بالفعل تعويضها بفضل سخاء «مواطنة بيننا عزيزة

وأهل للثقة، ومعروفة لنا جميعًا»، سلمته شيكًا على بياض. وبالنسبة له، أى المحامى، القضية برمتها واضحة المعالم بشكل، قد يؤلمه، لأنه، أى هيرميس، يعشق القضايا المعقدة؛ والقضية المنظورة بسيطة جدًا، لدرجة تكاد تصطدم بالنسبة له مع تعاليم المهنة؛ قال هيرميس، جاء فى أقوال منظر الاقتصاد د. جريهن أن الإجراء الاقتصادى الحديث قاس ولا يرحم ـ هذا ما أقره أحد العلماء، فيما يخص الموقف الاقتصادى للمتهم جرول. هل ـ وهنا نظر هيرميس بود أصيل لزميله كوجل ـ إيجر وبود ينم عن احترام فائق للرئيس د. شتولفوس: هل السادة قد توصلوا إلى فكرة أن العمل الفنى الذى أنجزه كلا المتهمين، كما دلل بشكل رسمى أحد أساتذة الجامعة، يمكن أن يكون بطريقة ما تعبيرًا عن تلك القسوة وعدم الرحمة؟ وهو يعلم جيدًا، أن تفسير الأعمال الفنية مسألة حظ، لكنه سيتجرأ على هذا التفسير. تم الاعتراف فى آخر الأمر علنية بقسوة ذلك الاتجاه الفنى الحديث، المسمى هبيننج، فى إحدى الجرائد المرموقة جدًا التى يتخطى توزيعها الإقليم، والتى لا يشوبها أدنى شك؛ نعم، تم حتى فى جلسة نقاش برلمانية طرح دور قوات الدفاع الألمانية فى علاقتها بحدث من هذا النوع للمناقشة. حسنًا، هو، أى هيرميس، لا يريد التملص وتفادى نقطتى الاتهام: عبث فظ، وأضرار مادية ـ. لكن ألا يجب أن ينطوى كل فن، كل أسلوب فنى على هذين العنصرين من منطق طبائع الأشياء، لأن الضرر المادى بمفهوم النظرية المعادية للفن هو كل فن، لأنه يغير المادة، يحولها بل يمكن أن يحطمها بشكل مباشر. قال هيرميس، من لَمَّحَ لشتولفوس

بنظرة، إنه يعرف جيداً، أنه سيختم الآن، يعرف جيداً، أن الدولة لا يمكن أن تتقبل كل هذا بهذه الطريقة، لكن ألا يمكن أن تساهم محاكمة اليوم هذه بقدر ضئيل على الأقل فى بلورة علاقة الدولة، والجمهور بالفن، الذى من طبيعته باعتراف الجميع أن يتضمن نقطتى الاتهام، وذلك بتبرئة المتهمين؟ نعم، هو يطالب بالبراءة ويطالب بأن تتحمل خزانة الدولة تكلفة القضية. أضاف هيرميس، الذى كان قد جلس بالفعل، ونهض الآن، بقى نقطة واحدة يجب أن يذكرها، فى إطار حق المطالبة بالتعويض عن الأضرار الخاصة بقوات الدفاع الألمانية هناك سؤال يطرح نفسه، سؤال يرجو حسمه أيضًا: هل قوات الدفاع الألمانية، إذا ما قبلت التعويض عن الخسائر، غير ملزمة، بإعادة أداة العمل الفنى، حطام السيارة ثانية؛ ففى النهاية لموكلى حق المطالبة بهذه الأداة، إذا ما تحملا التعويض عن الخسائر. وهو يحتفظ بحقه فيما يجد فى هذه القضية.

فى فترة التوقف القصيرة، التى حددها شتولفوس حفاظًا على الشكل فقط، فقد بدا له من الأفضل، الحفاظ على وقار المحكمة وعلى تقاليد الأداء، بإفساح فترة توقف رمزية على الأقل قبل صياغة مبررات الحكم وإعلانه؛ بقى الجميع فيما عدا برجنولته فى قاعة المحاكمة فترة التوقف؛ تهامس الاثنان جرول دون استحياء مع السيدة هال، وهيرميس مع كوجل - إيجر، من حكى له مبتسمًا، أن السيدة شروار «شخصية رائعة» حقًا، فقد بدأ يستطعم الآن فقط، أنها وضعت له لا كونياك فقط، بل، موهت به، ووضعت فى الماء مع «ما يسمى بعبوة المزيج» هذه أيضًا عشب الناردين، وهو سوف

يدرس بإمعان، فى هدوء وعلى مدار عدة أيام، أمر دحض ومعارضة «النهج المشار عليه به فى أماكن أخرى، أعلى»، كما يعرف هيرميس ذلك جيدًا؛ بقى فقط أوصم فى مكانه وشرع فى أداء شىء فى محضره، الذى كان يضفى عليه، كما اعترف فيما بعد، لمسة أدبية معينة؛ غادر برجنولته القاعة بعد وقت وجيز، لكى يحاسب السيدة شروار فى مطبخها، لأنه كان يعتزم اللحاق بالقطار الأخير، الذى يقوم من بيرجلار فى المدينة الكبيرة المجاورة فى حوالى الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل. أشد ما أدهشه اكتشافه فى مطبخ آل شروار السيدتين هيرميس وكوجل - إيجر، الأولى كانت تضع إصبعها على فمها، وتشرب بتلذذ حساء اللحم من قدح، والثانية، أخذت تسمع، فى توتر ثم استرخاء، وصف السيدة شروار للنوبة التى حلت بزوجها وعلاجه، حيث لَمَّحَتْ لها السيدة شروار، «قضية جرول هذه» يجب «أن تكون فى تقدير أى مدع عام بمثابة تبجح، لو لم يتناولها بشكل مناسب». ظهور برجنولته المفاجىء لم يلق استقبالاً وديًا بشكل واضح من أى من السيدات الثلاث: لم تضع السيدة هيرميس فقط إصبعها على فمها، أيضًا قطبت جبينها وسألت السيدة شروار بصوت غير خافت، هل «سمعت صوت طرق على الباب؟»، وهو ما نفته. انفلت من السيدة كوجل - إيجر، من كانت قد أضجرها النَقَاش، لأنه أراد أن يفرض عليها، كما بدا لها، ألوانًا معينة «بأسلوب دروس الألوان فى المدارس المهنية مقترنًا باعتداد شديد بالنفس»؛ وهى بالإضافة إلى ذلك من نما إلى علمها بالطبع عن طريق السيدة هيرميس، وزوجها وزوج السيدة هيرميس،

أن سبب وجود برجنولته هنا هو التجسس؛ انفلت من السيدة كوجل ـ إيجر «آهه يا إلـ!» كما يمكن أن تطلقها إذا ما لمحت فجأة حيوانًا غير مستحب رؤيته. وأخيرًا السيدة شروار، من كانت على علم أكيد بمرتبة ومهمة برجنولته، اكتفت بـ «حسنًا، وماذا ثانية؟» فظة إلى حد ما، أجاب عليها برجنولته، من لم يكن «يريد أن يفقد صوابه»، كما قال فيما بعد، «بسبب هؤلاء النسوة»، أجاب بالسؤال عن ثمن «الوجبة التى تناولها من وقت قصير». السيدة شروار، من أبلغها شترك خفير المحكمة، أن «هذا السيد يحتمل» أن يكون خليفة شتولفوس، انتهزت الفرصة، «لتبين من البداية، من صاحب الكلمة الأولى هنا فى هذا المكان»، وقالت بشكل يفتقر للود إلى حد بعيد، قيمة الحساب سبعون بفينيكا . كان وقع هذا على برجنولته «مريبًا، ككل شىء فى بيرجلار تقريبًا»؛ عاجز، إزاء فم السيدة شروار البض المتبجح، الذى لم يكن يفتقر بأية حال للتوهج الشبقى، غير قادر، على تفسير مناسب لهذا الفم البض المتبجح ـ متشممًا رائحة «محاولة رشوة، وإن كانت بسيطة»، غير مدرك، أنه يمكن من الأفضل عدم دفع ثمن، بل مقابلة نوبات الضيافة الكريمة من هذا النوع بعلبة شوكولاتة البرالين، أو بباقات الورود ولو فيما بعد، وأصر بصوت أشد نوعًا ما على، «دفع الثمن الحقيقى والفعلى لوجبة الطعام». السيدة شروار ـ من كانت تتابع بنظرتها السيدتين الموجودتين، من اضطرتا لإمساك أنفسهما عن الانفجار، ليس دون أن تتخذ وضعًا ووضعًا له معنى ـ حسبت على برجنولته، أن بيضة مسلوقة بخمسة وعشرين بفينيكا يعد مغاليًا جدًا فى ثمنها، وهى

تحسب الحساء، الذى اعتادت أن تعده بكميات كبيرة، أيضًا بخمسة وعشرين بفينيكًا كثمن مجز، وبالنسبة لها، لو أصاب تقديرها، خمسة وعشرين بفينيكا لشريحة خبز بالزبد كافيًّا إلى حد بعيد، وهى لذلك «ترجو السيد مستشار المحكمة»، ألا يدفع أكثر من ستين بفينيكا؛ فهى لا تدير هنا حانة، بل «لو جاز ركنًا للوجبات السريعة»؛ ثم شخصت بانكسار فى أول الأمر، ثم بانكسار حاد، وفى آخر الأمر بانكسار موجع، أثناء إجرائها للحساب، مارة بنظرتها على كل المعنيين بطريقة مختلفة، من السيدة هيرميس للسيدة كوجل ـ إيجر، ومن هناك حتى برجنولته. من ـ كان متأرجحًا، كما حكى فيما بعد، بين «الإذعان والتذمر» ـ اختار الإذعان؛ خطر بباله فى اللحظة الأخيرة، أن بقشيشًا، كان قد نوى دفعه بالفعل حتى فى هذه المرحلة من المحاكمة، «لا يُنصح به بالمرة، نعم بالمرة». بملامح، وصفتها السيدة شروار فيما بعد للاثنين جرول ولزوجها بأنها «وضيعة بشكل واضح»، قام بعد قطع العملات من حافظة نقوده على مائدة المطبخ، وكان «مبتهجًا بخلاصه»، كما اعترف فيما بعد. بعد أن غادر المطبخ مرتبكًا، وناسيًا حتى تحية زوجتى زميليه، أنصت، لأنه كان متأكدًا، من انفجار ضحك السيدات من ورائه. انتظر وتصنت دون جدوى، ثم سار، وعندما سمع فى القاعة أصوات تزاحم أقدام وتحريك كراس، اندفع للداخل، دون أن يشعر، أن السيدة هيرميس، من عاودت وضع إصبعها على فمها بعد أن غادر، «أطلقت» فى اللحظة نفسها الضحك وضحكت السيدتان الأخريان.

بعد ذلك بعدة أيام، عندما كان يقوم بإملاء الحكم وحيثياته المسجلين بلغة الاختزال على سكرتيرة شتولفوس، اضطر، كما اعترف أوصم، بمعاودة محو «أثر خفيف لبلل» من عينيه، لم تكن دموعًا بالضبط، لكن، «حسنًا، تعرفون ماذا كانت». عندما غادر شتولفوس، كانت الساعة تقترب من منتصف الليل تمامًا، وبرجنولته، الذى جاء فى الموعد بدقة، وصف نفسه فيما بعد أمام زوجته بأنه «متحذلق مقزز، لا يستجيب للتقويم»، لأنه اضطر للنظر إلى الساعة بشكل متواصل و«التفكير فى هذا القطار الأخير الملعون»، وفى القلب «مخاوف لا تتوقف بسبب أجر باهظ متوقع لسيارة أجرة بالنسبة لجهة حكومية - أتعرفين فأنا مجرد موظف ومازلت موظفًا، وأنا فخور بذلك». نسى برجنولته فى نهاية الأمر الساعة، فى حين أن أجنيس ادعت أنها كانت مغيبة تمامًا بعد كلمات شتولفوس الأولى. تكلم شتولفوس فى أول الأمر دون ارتداء القلنسوة، نظر إلى أجنيس، وإلى الاثنين جرول، وهيرميس، وأوصم، وكوجل - إيجر، ثم إلى أجنيس ثانية، من أومأ لها برأسه الآن علنية وبشكل لا يمكن إخطاؤه، ثم ابتسم لدخول السيدتين هيرميس وكوجل - إيجر، بصوت خافت، كدخول من يأتون إلى الكنيسة متأخرين ولا يريدون أن يتسببوا فى تشويش للواعظ. طيلة حديثه بدون قلنسوة، كان شتولفوس يتكلم عن أمور شخصية فقط؛ سيخلع الرداء حالاً، هذا ليس احتمالاً، بل أكيدًا، كما تم إبلاغه، آخر قضاياه، آخر ظهور رسمى له، وهو حزين، لعدم تجمع كل قاطنى دائرة بيرجلار هنا، ممن قدر لهم أن يُدانوا أو يُحكم عليهم؛ كان

عددهم كبيرًا، «زُمرة كبيرة إلى حد ما؛ كانوا أناسًا طيبين جدًا، لا جميعهم، بل غالبيتهم، سلوكهم قليل الالتواء، يظهرون خبثًا من وقت لآخر، إلا أن غالبيتهم - لا يستثنى منهم هيبرله الداعر - «طيبون حقًا». لكن القضية المنظورة هنا - واعتبر هذه إضافة مناسبة - هى الأيسر على الإطلاق: المتهمان، والشهود جميعهم، نعم الجميع، حيث أشار كما قالت السيدة هال إلى السيدة زايفرت، والادعاء، والدفاع، والجمهور وعلى وجه الخصوص السيدة صاحبة المقام الرفيع فى مقصورة المشاهدين، من شاركت لا فى غالبية، بل بالفعل فى كل محاكماته العلنية. ويحزنه ما حدث مع السيد كيرفل مفتش أول المالية، حيث اعترف بخطئه، وها هو يعتذر لكيرفل ثانية؛ أفلتت منه أعصابه بسبب تعقد الواقعة - وإزاء هذا الأمر لابد للأسف الاختلاف مع السيد الزميل هيرميس فى الرأى. القضية فى حد ذاتها - وللآن لم يرتد قلنسوته، حسنًا، إنه على بينة من أن حكمه يمكن أن يكون نهائيًّا؛ فهذه القضية لا تتجاوز فقط حدود اختصاصه، أى اختصاص رئيس محكمة، إنها تتخطى أيضًا اختصاص جميع المحاكم العليا، لأنها تقع فى «نقطة التقاء، نعم فى نقطة تقاطع»، وهو ليس بأية حال ذلك الرجل، الذى ينطق فى واقعة كهذه بحكم نهائى. سينطق بحكم، وهو بالنسبة له حكم نهائى، لكن هل سيكون مرضيًا فى أماكن أعلى وأماكن أخرى؟ لا يعرف، يمكنه فقط قول إنه لا يأمل ذلك، لأن ما طمح إليه دائمًا كقاض، نادرًا ما حققه: العدالة، حققها فى هذه القضية بأقل قدر عما سبق وأداره من قضايا: أيعدل بشأن الجريمة، بشأن الواقعة، بشأن العمل

ـ بشأن التنفيذ ـ، وهو يطلب من السيد أوصم محرر المحضر عدم وضع أى من هذه الكلمات بين علامتى تنصيص، لا يمكنه أن يكون عادلاً بشأن «أمر كهذا». أقتنع ـ وهنا ارتدى قلنسوته ـ بكل من الدفاع وممثل الادعاء: ما يعتبره ثابتًا بأدلة لا المزاح الثقيل لكن الخسائر المادية. اقتنع أيضًا بالمتهمين: أدليا فى المحضر بكل شجاعة بما سيقر به هو كقاض: لا عدالة بالمرة فى قضية كهذه، وهما، أى المتهمين، لم يتوقعا عدالة. وحقيقة أنه يعلن هنا عجزه كقاض، وأنه قد تم تكليفه كآخر محاكمة يديرها بقضية، تُبلور عجز العدالة الإنسانية: فهذا فى نظره أجمل هدية وداع من الإلهة معصوبة العينين، التى يرى لها هو، أى شتولفوس، وجوهًا كثيرة: مرة وجه عاهرة، وأحيانًا وجه سيدة متورطة فى جرم، لا وجه قديسة مطلقًا، وفى أغلب الحالات وجه مخلوق يدلى بأقواله، أضناه الإعياء، بسببه، بسبب القاضى، حيوان، إنسان وإلى حد ما إلهة صغيرة، صغيرة. وهو يحكم على المتهمين بالتعويض الكامل عن الخسائر، ويلزم قوات الدفاع الألمانية بالإفراج عن الأداة الفنية، لأنها لب الموضوع، وقد أقنعه فى أمرها فقط أقوال الشاهد بورين. إذا كان هذا النوع، «إنتاج أعمال فنية أو لحظات تحمل فى أحشائها إبداعًا»، ينتشر بسرعة، فإن لذلك تبعاته المهلكة، خاصة لو تردى ربما إلى المستوى الحرفى مثلما تجمدت جميع الفنون التى تمارسها الجموع الشعبية عند مستوى الابتذال. لذلك فعليه ـ وذلك دون ندم ودون إثقال على النفس ـ الحكم على المتهمين بالسجن ستة أسابيع، يتم حسابها من مدة الحبس على ذمة التحقيق. بالتأكيد لن يرى

المتهمين فى ذلك أى غضاضة منه، وإذا ما نصحهما هو ـ وقد خلع قلنسوته مرة أخرى ـ، من يمكن أن يكون والدهما أو جدهما: كان عليهما أن يسلكا طريقهما غير معتمدين على الدولة، بأن ـ وهذا ينطبق على الضرائب المتراكمة على المتهم جرول الأب ـ لا يمنحاه أية إمكانية، للتضييق عليهما فى حريتهما، وكان عليهما، إذا ما سددا هذه الجزية، أن يكونا بمكر الثعالب، لأنه قام هنا أحد العلماء، يعتبر كفاءة متخصصة، بتأكيد النهج القاسى وغير الرحيم للإجراءات الاقتصادية، ولا يصح مواجهة مجتمع قاس وغير رحيم بدون سلاح. كانت الساعة الثانية عشرة وخمس وعشرين دقيقة بعد منتصف الليل ـ وهى ما تم إبدالها بعد ذلك فى المحضر بناء على رغبة شتولفوس إلى الحادية عشرة وست وأربعين دقيقة، لأنه لم يود رؤية اليوم الجديد «مقرونًا بهذه القضية» ـ، عندما طلب شتولفوس وقد عاد للحزم، تقدم المتهمين للأمام والقول، هل يقبلان هذا الحكم. تشاور الاثنان لوهلة، فيما يشبه الصمت، بأن نظرا متسائلين إلى هيرميس، من أومأ لهما برأسه، مع محاميهما، ثم تقدما للأمام وأعلنا قبولهما للحكم. غادر شتولفوس قاعة المحاكمة بسرعة. لم يكن هو نفسه متأثرًا بقدر قليل حتى، بل لم يكن متأثرًا بالمرة، عندما قام بتعليق ردائه على المشجب أعلى فى الردهة خافتة الإضاءة؛ مسح على رأسه الجرداء من الشعر، حك عينيه المجهدتين، وعندما انحنى للأمام، لتناول قبعته من على المشجب، رأى برجنولته أسفل يجتاز الفناء المظلم ويبتسم.

الفصل الخامس

فى القاعة أسفل تساوت كفتا الإرهاق والتأثر، أعاق الأول الثانى لمدة دقائق عن الاندلاع، حتى صارت الغلبة للإرهاق، دموع التأثر لم تُذرف وغطت نوبات التثاؤب على التنهدات. حتى الاثنين جرول كانا منهكى القوى، أحسا بطول الوقت الكامن فى هذا الإجراء، الذى لاح لهم كتكرار مترنح فى بطء لأقوال معروفة. لو بدا لهما وصف السيدة شروار «مسيرة السرعة والعنف» اليوم بطوله غير مناسب، لأدركوا الآن، سرعة مسار الأمر. الآن أيضًا بدت لهما فجأة مدة الحجز القصيرة أزلية الطول، وأصابت الحرية التى نالاها فجأة ـ كما عبر عن ذلك جرول الأب ـ «كطرقة مطرقة». لم يودا العودة إلى هوسكيرشن، إلى بيتهما البارد، غير المرتب فى هذه الليلة، وبدا لهما طلب مكان للمبيت من السيدة شميتس فى مطعم شرفات نهر الدور، أمرًا غير صائب فيما يخص الوقت الذى يتقدم والإعلان الصريح للحرب من قِبل شميتس بسبب نوعية طعام العشاء. رغبتهما، فى قيادتهما فى الحال مرة أخرى إلى زنزانتهما، رفضها

فجأة بحزم شروار، من قال، هذا "مأوى حكومى على كل الأحوال، لعنك الله يا هنشن، فنحن على أية حال لسنا فى فندق"، وبخلاف ذلك، هو، أى جرول، يدرك بالفعل، أنه من الصائب، توجيه الاهتمام المحتمل للجمهور إلى جنة زنزانة بيرجلار، وبخلاف ذلك لا يعنيه، أى شروار، أن يتحول إلى «شخصية قضائية فى مجلات النكات». فى هذا الوقت كان شتولفوس قد رحل، ولم يكن الاتصال به أمرًا محبذًا، وقال كوجل ـ إيجر إنه مُجهد جدًّا، لدرجة أنه غير قادر على اتخاذ قرار وعلى الأخص فى أمر شائك كهذا؛ الشىء الوحيد، الذى يطمح إليه، هو لتران من الجعة وأربع وعشرون ساعة نومًا؛ ولأن هيرميس قد أعلن بخلاف ذلك أنه من الغباء، بعد حكم كهذا التطلع إلى كرم ضيافة الهيئة القضائية، تقبل الاثنان جرول العرض شديد الحياء للسيدة أجنيس هال، للمبيت فى منزلها، جذبهم إلى ذلك التطلع إلى حساء ذيل الثور مع نبات الهليون «المعلب للأسف»، والسلاطة الإيطالية، التى تجيد هى، أى السيدة هال، إعدادها بشكل شهى؛ وهى ليست فى حاجة لتقديم الجعة على أية حال، ربما زجاجة نبيذ، وربما من المستحسن تمامًا فى هذا الجو مناقشة، الهبيننج التالى، الذى تبدى استعدادًا للمشاركة فيه بالأداء الموسيقى». كانت قد قرأت، أن آلات البيانو القديمة مطلوبة لمناسبات كهذه، وإذا ما كانت هناك حاجة لسيارة جديدة وبيانو قديم، فلديها منه اثنان فى الكرار ـ لكن هنا قاطعها هيرميس بلباقة، من بدا له مناقشة مخططات كهذه «فى وجود المدعى العام أمر مروع جدًّا»، وأمسك بخالته من كتفها، ودفع بها بكياسة إلى

خارج مبنى المحكمة، والاثنان جرول من ورائهما. ليزا شروار، من، «نفد صبرها بالتدريج» الآن - حوالى الواحدة صباحًا - ، كما حكت بعد ذلك، أعلنت عن وصول سيارة أجرة للزوجين كوجل - إيجر، من غادرا مع الزوجين هيرميس مبنى المحكمة، الذى مكث فيه أوصم فقط، من كان يعمل فى محضره بخط يده الذى وصفته السيدة شروار بأنه «منمق».

كان يمكن وصف السيدة هيرميس بأنها الشخص الوحيد الذى لا يزال مفعمًا بالحيوية، قضت وقتًا ممتعًا بعد الظهيرة تتناول القهوة مع صديقتها، وتحدثت معها فى موضوع، يجعل لقبهما «إلزا - حبوب» يبدو فى محله، ثم خلدت للنوم ساعات عدة، وتجولت على الأقدام مارة على «شجرة كيوبر» فى طريقها إلى هوسكيرشن، حيث وصلت فى الموعد تمامًا إلى منزل آل كوجل - إيجر، لمساندة مارليز فى نزاعها مع، كما قالت كلتا السيدتين، كبير الرسامين المتحذلق مدعى الثقافة؛ وهو ما أصابت فيه توفيقًا، لأنها فهمت ملاحظاته التى تمتم بها بلكنة ثقيلة على اللسان لمناطق حقول اللفت هذه، وعرفت فيها فظاظة بينة، وردتها - بفظاظة وبنفس اللكنة - من نفس المقام. السيد هيرميس، من كان مجهدًا وشاحبًا، وظهر عليه ملامح التقدم بعض السنوات فى العمر، كان يترنح تقريبًا فى طريقه إلى منزله عبر شوارع مدينة بيرجلار النائمة، الهادئة ممسكًا بذراع زوجته، وعارض فجأة، عندما أرادت هى كما لو كانت «عثة وقعت على الضوء» التوجه إلى النافذة الوحيدة فى بيرجلار التى يصدر عنها ضوء لمطبعة جريدة «دورتال بوته» واقتحامها،

«لإعادتهم إلى صوابهم». نجح هيرميس، رغم بقاء القليل له من قدرته على المقاومة، فى إيقاظ شعور الشفقة لدى زوجته الحازمة، من بدت إلى حد ما ضحية لهذا الشعور، وتنازلت عن شجار ليلى مع هولفيج.

وصل برجنولته إلى أول محطة سكك حديدية لضاحية بالمدينة الكبيرة المتاخمة قبل أن تتمكن السيدة شروار فى نهاية الأمر من إغلاق الباب خلف أوصم والجلوس مع زوجها إلى آخر وجبة خفيفة، قدمت فيها دون تردد ودون أدنى ارتياب خبزًا مدهونًا بالمسلى النباتى مع نقانق الكبد الفلاحى المتبقى من الاثنين جرول، لأنها «كانت مجهدة جدًا، لا تقوى حتى على الإمساك بسكين». أسرع برجنولته طبقًا للتعليمات - «وعندما تصبح الثالثة فجرًا!» هكذا قال جرلبر - لأقرب موقف سيارات أجرة وانطلق فى الضاحية الهادئة، حيث رأى فى فيلا جرلبر ضوءًا يضوى وهو ما أراحه؛ أضناه طيلة ساعات المساء تصور إمكان اضطراره لإيقاظ الرئيس من النوم بقرعه المتواصل للجرس، وهو ما كان سيَثْقُل عليه جدًا، حتى لو حدث بناء على التعليمات. إلا أن جرلبر لم يكن لديه ضوء فقط، بدا أنه كان ينتظر صوت السيارة التى تقترب منه؛ ما إن دفع برجنولته الأجر للسائق، من بدا حانقًا وتمتم بشىء مثل «البقشيش عادة فى حوالى الواحدة صباحًا أكبر»، وبامتعاض واضح لبى أيضًا طلب برجنولته لقسيمة، بأن انتزعها من الدفتر «بعناد وقح فى الحقيقة»، كما حكى جرلبر فيما بعد؛ لم يكد برجنولته ينتهى من كل هذه الأمور المعطلة التى لا مفر منها حتى ظهر جرلبر لا عند باب

المنزل، وفتحه فحسب، بل كان يقترب من برجنولته نازلاً السلم، واصطحبه واضعًا ذراعه على كتفه بشكل أبوى وسأله، لحظة دخولهما المنزل: «ها، ألم يكن الطعام هناك ممتازًا؟ ألا يزال هناك مطابخ فى هذه الأوكار، قل لى؟" قال برجنولته مخالفًا حسن تقديره للأمور ومرتكبًا خيانة خسيسة للسانه: «نعم، ممتاز، أود حتى القول: كان فريدًا من نوعه!» فى حجرة عمله، التى أشاع فيها دخان سيجار متوقد مع وجود دخان سيجار قديم جو الرجولة المألوف، والتى نشر فيها، كما قال برجنولته فيما بعد، مصباح أرضية قديم هائل الحجم ذات مظللة حريرية خضراء وقارًا خافت الحدة، وأرفف الكتب المكتظة عن آخرها أيضًا نزاهة علمية، ترك جرلبر، من لم يكن يظهر على وجهه فقط حسن طويته، بل كان فى مقدور كل طلابه ومرءوسيه حتى تأكيدها («باستثناء بضعة فتيان أوغاد») - ترك جرلبر «بشكل استثنائى هذا الرواق ذات القداسة لتدخين السجائر»، ولم يطلب من برجنولته، خلع معطفه. ضحك جرلبر، عند درايته بأمر أزمة المدعى العام العصبية، بأمر طلبه العقوبة، وابتسم، عند سماعه الحكم الذى أصدره شتولفوس، ودون الأسماء التالية: كولب، بورين، وكوتكا، والطريقة فى حد ذاتها، التى كان يقاطع بها تقرير برجنولته من وقت لآخر، عندما كان هذا يبدو مهددًا بالخوض فى ترهات آراء فلسفية قانونية أو سياسية، بدلاً من تحديده للشخوص المذكورين بإيجاز، الطريقة فى حد ذاتها كانت بالغة الود وحسن الطوية كأمر تلك الإشارة الخاتمة، التى أنهى بها الحديث و«دون المزيد من اللغط»، كما اعتاد برجنولته منه،

تناول التليفون بيده، وأدار رقمًا، ثم طلب سيارة أجرة لبرجنولته، من تمنى له «نومًا هادئًا جدًا، جدًا هو يستحقه». بحساسية مرهفة جدًا شعر برجنولته بأن جرلبر فى هذا اليوم لم يتطرق للحديث عن وظيفة رئيس المحكمة، التى كان برجنولته لا قد تلقى وعدًا بها فقط، بل خُصصت له. محتاطًا لعدم إيقاظ أى شخص، أدلى بخبر فقط بشكل آلى على شريط تسجيل يفتح من ذاته، أدار جرلبر، بعد أن رأى برجنولته ينطلق فى السيارة الأجرة، رقم نائب البرلمان هذا الذى قابل معه هولفيج فى الأمسية الماضية بعد المسرح. أملى إلى شريط التسجيل حجم العقوبة والأسماء كوتكا، والرائد ترويجر، والعقيد فون جريبلوته، ثم قال بعد ذلك بعض العبارات الواضحة، رجا فيها من النائب، أن يطلب من السيد وزير الثقافة بالبلاد، من لم يكن فى الحقيقة من أنصار الحزب، إلا أنه كان صديقًا للنائب، معلومات مستفيضة قدر المستطاع عن البروفيسور بورين. أنهى الاتصال، تروى لوهلة، هل الأمر ضرورى إلى هذا الحد، للاتصال فى هذا الوقت بمطران، تربطه به صداقة متينة، وإفزاعه بإقحامه فى أمور جادة فى مثل هذه الساعة من الليل. ثم، خطر بباله، وهو لا يزال ممسكًا بسماعة التليفون فى يده، أنه طبقًا لتقرير برجنولته كان هناك عند إدلاء القس كولب بأقواله اثنان فقط من المستمعين غير العاديين، وانتقل إلى الحديث عن فترة الضحى القادمة (عندما اتصل بالمطران بالفعل فى حوالى الحادية عشرة، وكان هذا أول من سأله، كم عدد المستمعين الذين كانوا موجودين، ثم ذكر جرلبر إن العدد اثنان، فانفجر المطران فى نوبة ضحك من القلب، من القلب

بشكل يتناسب مع عمره، كتم ضحكه وانتابته نوبة من ضيق التنفس، واضطر لقطع الحديث، قبل أن يتمكن من أن يقول لجرلبر، إن كولب اعتاد أن يطلق "آراءه الغريبة" فى أيام الأحد أمام حوالى مائتين أو ثلاث مائة من أبناء القساوسة).

أوصم محرر المحضر كان آخر من غادر مبنى المحكمة. رفض من السيدة شروار، من كانت تحبه، وكانت على صلة قرابة به من ناحية والدته وأصرت على أن يناديها «خارج إطار العمل» بخالتى، دعوة لمشاركتها فى تناول خبز شميتس بنقانق الكبد الفلاحى، وتجول عبر الفناء السابق لمدرسة جسر نهر الدور. بعد أن قاوم أوصم إجهاده بالماء البارد، انتشى مزاجه، واختلط بالتأثر بسبب شتولفوس المسن؛ تطلع إلى صحبة إنسان، تأرجح فى تصور أن صحبة كهذه قد توجد على أحسن الظن فى هذه الساعة هناك، خلف تمثال نيبوموك يمينًا بداية من الطريق المؤدى إلى فيلا السيدة هال، التى كانت لشدة دهشته قابعة فى قاتم الظلمة، ووجد فى مدخل بوابتها وهو ما أدهشه بشكل أقل جرول الابن يعانق إيفا شميتس، من وصفهما فيما بعد بأنهما «تجمدا كتمثالين»، غير اتجاهه بسرعة، فاقدًا طلاقة مزاجه، حيث لم تكن فقط الغيرة هى ما عكرت صفاء نفسه، كان مضطرًا أيضًا لمغادرة ملهى السيدة زايفرت مكروبًا، لأنها هددته، لو لم يدفع ديونه، ستخبر والده، أوصم كبير صانعى الأحذية، عن «نفقات الشمبانيا الهائلة»؛ شعر أنه لا يقوى بشكل كاف على المثابرة، لإقناع السيدة زايفرت سليطة اللسان فى هذا الجو المشحون بالتوتر تقريبًا بقرض آخر، كان قد «أوشك على

الإذعان»، واستسلم على أية حال لقدره، فى الاضطرار للتوجه إلى البيت، حيث رائحة الجلد «كانت فى حقيقة الأمر تسدى له لا باستمرار، بل أحيانًا أكثر» مما تسديه له الكآبة السوداوية لوالده المترمل فى سن مبكرة؛ اكتشف عندئذ، «وقد أدركت لأول مرة، كم الأمل والسعادة الذى يمكن أن تعنيه عبارة «سنا فى الدجى» ، ضوءًا فى مطبعة جريدة الدورتال بوته، سعى إلى هناك، وجد الباب مفتوحًا، دخل، قاطع هولفيج صديقه فى الحزب والسيد بريهزل «المتعاطف» مع نفس الحزب بنوبة جدل شديد، حيث لاح بخاطره، كما حكى أيضًا فيما بعد، لأول مرة، «مدى التفاهة الحقيقية التى يمكن أن يبوح بها الوجه الباش الوسيم لهولفيج». جلس هولفيج برابطة عنق متدلية، وأكمام قميص مطوية لأعلى، و«زجاجة الجعة متأرجحة كعامل بناء»، ثانية إلى آلة اللينوتيب (وصف عامل التجميع لجريدة الدورتال بوته عمله مع ذلك بأنه «لا معنى له وزائد عن الحاجة» تمامًا، لأنه، أى عامل التجميع، يضطر عادة إلى تجميع العمل كله على أية حال من جديد، ولا يمكنه إضافة ساعات عمله، لأنه بطبيعة الحال لا أحد يعرف، على الأقل لا يجوز لهولفيج نفسه أن يعرف، أن «العبث الليلى أو عبث ساعات الصباح المبكرة لا طائل من ورائه») وتنازع توًا مع بريهزل نكد الطبع على لفظة «منتفخة»، التى سقطت منه فى وصف وجه شيفين؛ هو، أى هولفيج، قرأ فى جريدتين يوميتين يتجاوز توزيعهما الإقليم وجريدة أسبوعية يتجاوز توزيعها الإقليم، لفظة الصفة «منتفخة» من ثلاثة محررين، يراد بها شفاه سفاح الأطفال شيفين، فكيف بالله تسقط منه هو بالذات، يا

بريهزل؟ قال بريهزل، من لم يعد يخفى نفاد صبره وأيضًا استهانته بغباء هولفيج، لأن شفاه شيفين لم تكن منتفخة؛ لم تكن «ممطوطة للأمام» بأية حال، كانت ببساطة «بلا معالم مميزة تمامًا»؛ فليسمها «شفاه عادية»، لو لم يكن وقع التعبير شفاه عادية غريبًا بدرجة كافية؛ سأل هولفيج، من اتخذ وضع الرئيس فجأة، برغم تظاهره بـ«وضع المتكفل بشاق الأعمال»، وهو ما بدا لأوصم على أية حال أمرًا «متكلفًا بما فيه الكفاية»، هل إذاً، جميع، نعم جميع المحررين الآخرين أضراء، أم أغبياء، أم متحيزون وهو، السيد فولفجانج بريهزل، «المبصر الوحيد، من احتكر حقيقة شفاه شيفين»؛ قال بريهزل، لا، هو ليس المبصر الوحيد، ولم يحتكر أية حقيقة، علاوة على أن الحقيقة لا تُحتكر، لكن شفاه شيفين ببساطة ليست منتفخة، لم تكن على أية حال طيلة اليوم - وهو شاهد شيفين ثمانى ساعات متوالية -، لم تكن على أية حال فى هذا اليوم منتفخة! قال هولفيج بود الزملاء، آه ها، ودعا أوصم، أن يتولى أمر ضيافة نفسه من صندوق جعة زجاجات، وعاد بريهزل الآن لشىء من الماضى. صورة أرشيفية لشيفين، تظهره غير حليق بسيجارة فى الفم، رفضها بريهزل كدليل على انتفاخ الشفاه؛ نعم، فقد دس سيجارة فى فمه، بطريقة، تشير لأعلى، وتبين على هذا النحو، كشفاهه، أى شفاه بريهزل، التى ليست منتفخة بأى حال، من خلال الإمساك بالسيجارة «انتفاخًا معينًا»؛ هذه الصورة، الوحيدة المنشورة حتى بداية المحاكمة، هى بالفعل ما دفعت محررى الجرائد الأخرى للوصف «منتفخة»؛ وهو، أى بريهزل، يرفض، إدراج الوصف منتفخة

فى تقريره؛ وبخلاف ذلك فالقضية المثارة ضد شيفين «غير مهمة بشكل ملحوظ»، وهو يقترح، بداية من الغد، لا، من اليوم، فالساعة الآن بالفعل الثانية والنصف فجرًا وهو منهك جدًا، تبنى تقارير وكالة، «من ناحيتى أنا فى أمر الشفاه المنتفخة، لن أكتب، أنه كان ذا شفاه منتفخة». أوصم، من لم يتبين إلى الآن بحق غباء السيد هولفيج، ومن كان يأمل سرًا، أن يدعوه هولفيج إلى ملهى السيدة زايفرت، المفتوح حتى الساعة الرابعة فجرًا، استشهد به هولفيج أمام القاضى، داخلته لوهلة فقط غواية، إنصافه فى رأيه وبذلك يشترى لنفسه، كما أدرك بالخبرة، اثنين ويسكى بالصودا؛ فيما بعد، عندما عاود تذكر هذه الواقعة وحاول بملكته المتطلعة للدقة اكتشاف، هل الأمل الذى لاح له فجأة بشكل "مضجر ومضنٍ للغاية"، لقضاء بقية الليل فى صحبة هولفيج، هو الذى حسم الأمر، وقرر، أن يطاوع نفسه، كان قراره لصالح بريهزل لا انصياعًا لميله، بل انصياعًا للحقيقة، بذكر دلائل على خبراته العالية «فائقة الذكاء حقيقة» فى وصف شهود العيان، من كانوا يتبعون فى الغالب لا حكمهم، ولا حواسهم، بل تحيزًا؛ شاهد العيان الوحيد الدقيق، الموثوق فيه حقيقة، الذى يعرفه، هو نفسه كيرفل رجل الشرطة المسن، من لن يتردد بالتأكيد، عن وصف شفاه شيفين بأنها غير منتفخة، إذا ما وجدها غير منتفخة، وحتى لو كان قد قرأ فى نصف دستة جرائد محلية وغير محلية أنها منتفخة. كيرفل بشكل مطلق ـ، لكن هنا قاطعه هولفيج بنفس الفظاظة، التى نالت من كرامة أوصم وقت الظهيرة فى مطعم شرفات نهر الدور، وقال، إنه ضاق ذرعًا

من هذا «النبش فى عفانة هذه المنطقة من بيرجلار»، أمامه عمل؛ حسنًا، يريد أن يصرف نظره عن كلمة «منتفخة»، لأنه يحترم الحرية، وخاصة إذا ما اصطدمت برأيه، لكن الأسماء كيرفل، وهال، وكيرفل وهال ثانية، لم يعد يقوى على سماعها الآن فى الحقيقة. وعندما سأل أوصم الآن، هل يقوى على سماع اسم جرول، صار هولفيج، وهو نادرًا ما يحدث، غير مهذب وقال، هو، أى هولفيج، ليس موظفًا، راتبه لا ينتظره كل أول شهر بالبنك، أمامه عمل. استأذن بريهزل بسرعة، وترك للسيد أوصم، سماع «نفس موال» هولفيج لعدة دقائق؛ إنه من الضرورى، الإبقاء على حرية واستقلالية جرائد مثل «دورتال بوته»، وهو أمر ملزم للحرية والديمقراطية، وأنه لا رياضة ولا تسلية بأية حال، إذا ما كان عليه تولى العمل على آلة اللينوتيب بيديه. بشكل أكثر بسبب الإجهاد، الذى انفجر بداخله من جديد بعد التلذذ بجعة الزجاجات، لا بسبب كياسته، سمع أوصم مدة دقائق كلمات هولفيج العدوانية بشكل يثير الدهشة، قبل أن يستأذن هو أيضًا ويتوجه للبيت. لم يعد يتخوف منذ وقت طويل من رائحة الجلد بالمنزل، كان حتى يتطلع إليها.

المؤلف فى سطور

هينريش بل (١٩١٧ ـ ١٩٨٥)

أديب ألمانى معروف، وإحدى العلامات المضيئة فى أدب ما بعد الحرب، حاصل على جائزة نوبل عام ١٩٧٢ تَغْلُب على موضوعات أعماله مواقف النقد والتنديد بالحرب وتبعاتها. واكب قلمه الناقد تطور وبناء المجتمع الألمانى دون كلل بعد الحرب، إلى جانب اهتمامه بخبرات الحرب والتَغيُرات الاجتماعية فى فترة ما بعد الحرب. ترأس رابطة الأدباء فى ألمانيا الاتحادية ثم رابطة الأدباء الدولية فى الفترة من عام ١٩٧١ إلى ١٩٧٤.

من أعماله: «صورة جماعية مع سيدة»، «شرف كاتارينا بلوم الضائع»، «بيت بلا حارس»، «تأملات مهرج»، «بلياردو فى التاسعة والنصف»، «خبز تلك السنوات الخوالى»، «مدونة يومية أيرلندية»، «ما جمعه د. موركا من صمت وكتابات ساخرة أخرى»، «ما أن اندلعت الحرب»، و«ما أن انتهت الحرب»، «الإقصاء من الكتيبة»، «حصار حذر»، و«إصابة حرب وقصص أخرى».

حصل على جائزة نوبل عام ١٩٧٢وجائزة الناشرين الفرنسيين عن أفضل رواية أجنبية، وجائزة إدوارد فون دير هايت لمدينة فوبرتال، والجائزة الكبرى لولاية نوردراين فستفالن، جائزة جيورج بوشنر للأكاديمية الألمانية للغة والأدب، ميدالية كارل فون اوسيتسكى للرابطة الدولية لحقوق الإنسان.

المترجم فى سطور

علاء الدين ندا.

أستاذ مساعد اللغة والأدب الألمانى بالمعهد العالى للغات - مصر الجديدة،

نشر ترجمات لنصوص أدبية لهوجو لوتشر، وفرانز كافكا، وليسينج، أرتور شنيتسلر، وهينريش فون كلايست، وأرنو شميدت، وبيترا ناجنكوجل، وهيرتا موللر، وفريدريش شيللر، وكاترين باسيج، وفريدريش هولدرلين.

التصحيح اللغوى: **ياسر مكى**
الإشراف الفنى: **حسن كامل**

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

هنريش تيودور بل (1917 – 1985) أديب ألمانى معروف، وإحدى العلامات المضيئة فى أدب ما بعد الحرب أو ما يطلق عليه أيضا أدب الأنقاض أو أحيانا أدب العودة للوطن، حاصل على جائزة نوبل عام 1972.

فى عام 1966 ظهرت روايته الكبيرة "نهاية مأمورية، وهى تتخذ شكل تقرير قضائى ملىء بالتفاصيل الدقيقة. وفيها يسرد الكاتب وقائع محاكمة طريفة، أطراف الادعاء فيها جهات عليا والمتهم فيها أب وابنه يمتهنان النجارة. نتيجة مستحقات مالية كبيرة للضرائب يتم توقيع الحجز على الأب. ويلتحق ابنه الذى يعينه فى هذا الظرف الضيق بقوات الدفاع الألمانية لأداء الخدمة الإلزامية.

حياة بل وأعماله، كتاباته وأفعاله وجهان لعملة واحدة. ويمكن القول بأن السياسة والأدب امتزجا فى انسجام كامل فى أعماله. قلمه الناقد واكب تطور المجتمع الألمانى وبناءه دون كلل بعد الحرب. موضوعات أعماله تعكس خبرات الحرب والتغيرات الاجتماعية فى فترة ما بعد الحرب بألمانيا. تناولت أيضا كتاباته خلافاته مع الكنيسة الكاثوليكية، ومع السلطة ووسائل الإعلام وعواقب دولة المخابرات.

تصميم الغلاف: حنان محفوظ